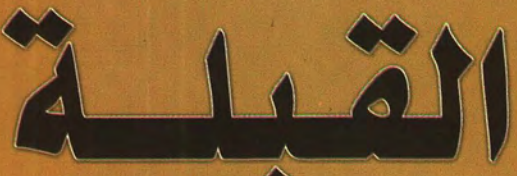
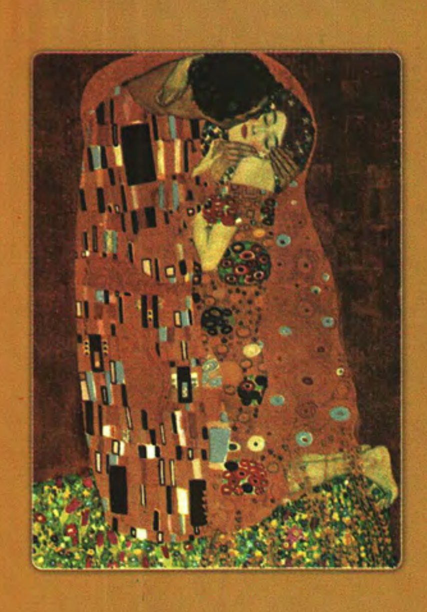
حسين علي الجبوري



وتقاليد التقبيل

في شرائع الحب والدين والسياسة



القبلة وتقاليد التقبيل

فى شرائع الحبّ والدين والسياسة

حسين علي الجبوري

القبلة وتقاليد التقبيل

في شرائع الحبّ والدين والسياسة



دار آراس للطباعة والنشر

اربيل - اقليم كردستان العراق

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الاكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار آراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

حسين علي الجبوري
القُبلة وتقاليد التقبيل - في شرائع الحبّ والدين والسياسة
منشورات آراس رقم: ١٢٤٠
الطبعة الأولى ٢٠١٢
كمية الطبع: ١٠٠٠ نسخة
مطبعة آراس - اربيل
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٢٠٦ - ٢٠١٢
الاخراج الداخلي: ئاكو أكرم
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد أحمد البناء

ردمك:
ISBN: 978-9933-487-08-9

مُفتتح

١- وفيما كان (يسوع) يتكلّم، اذا يهوذا أحدُ الاثني عشر، قد وَصل ومعه جمعٌ عظيمٌ يحملون السيوفَ والعصى، وقد أرسلَهم رؤساءُ الكهنةِ وشيوخ الشعب. وكان مُسلِّمُهُ (يهوذا) قد أعطاهم علامة قائلاً: الذي أُقبلّه فهو هو، فاقبضوا عليه فتقدم في الحال إلى يسوع وقال: سلامٌ سيدي! وقبلَه. فقال يسوع: ياصاحبي لماذا أنت هنا؟ فتقدَّمَ الجمعُ وألقوا القبضَ على يسوع.

متّى ٤٧/ ٢٦/

٢- وعندما هَرَب الخليفةُ المتّقي لله إلى الرِّقَةِ من بطشِ توزون التركي، امير الأمراء، بعثَ هذا اليه يستأمنه، فكرّ راجعاً إلى بغداد. فلما وصلَ إلى السنديانةِ على نهر عيسى، قابلَه توزون وقبلَ الارض بين يديه، واظهر إنه وَفى بما كان حلفَ عليه، ولكنه صعِدَ اليه وأخذه وأمر بِسَمْلِ عينيه، فسُمِلَتَا وعندها صاح المتّقي صيحةً عظيمة.

البداية والنهاية ٢٣٧/ ١١/

٣- ومرَّ قيسُ يوماً بزوج ليلى وهو جالسٌ يَصْطَلي عندَ نارٍ في يومٍ شاتٍ فقال له:

بِرَبِّك هل ضَمَمتَ اليك ليلى

قبيل الصّبح أو قبلتَ فاها؟

وهَل رفَّت عليكَ قرونُ ليلى

رفيفَ الأُقحوانة في شذاها؟

فقال: اللهمَّ إذا حلَّفتَني فنَعَم.

فقبض قيسٌ بيديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه وسقط الجمرُ مع لحمِ راحتيه وعضّ على شفتيه فقطعهما.

الاغاني ٢٤/ ٢/

المقدمة

مشاهد القُبَل التي قدمتُها في مدخل الكتاب لاشكَّ أنها طَبَعت في نفس القارئ أثرا، من حيثُ أنها جَسَّدت أمامَ رؤيته أحداثاً من التاريخ مغمورةً ومطويّة، وكانت القبلةُ فيها مدار الحدث، وما كان الحدثُ ليتَّسق من دونها، فلو لم يقَبّل الخائن يهوذا الاسخريوطي استاذه ومعلّمه السيد المسيح فلربما سار التاريخ مساراً آخر، وخَفِيَ المسيح على طالبيه فنجا، ولكن القبلةَ كانت شيفرةَ الدلالة فشخَّصته من بين حوارييه الأحد عشر وهم يتناولون العشاء الرباني، فألقي القبضُ عليه ثم عُلِّق بعد ذلك على الصليب فصارت تلك القبلة أغدر قبلة في التاريخ.

و شبيه بها (قبلة الارض) التي مَوَّهَ فيها القائد الخائن توزون التركي على سيدّه الخليفة المتقي لله . فانها جعلت الخليفةَ يطمئن اليه ويسلّمُ له نفسه، ولكنه خدعه بتلك القبلة فأضحت من أشهر قبل الخداع المشهورة في حوادث التاريخ.

أما القبلة التي جعلت المجنون بليلى يندفعُ نحو النار الموقدة فيقبض على الجمر وتتهرَّأ راحتاه، فمن غير شكٍّ انها كانت من تأثير الغَيرة القاتلة التي تصيب المحبين وتستولي على عقولهم. وهي مرضٌ نفسيّ مركوزٌ في لاشعورهم، ينغِّصُ عليهم حياتهم وقد يُبَدِّدُ شملهم أو يدفعهم إلى الجنون اذا تفاقمت وطغت على الرزانة والتعقّل فيصبح الواحد منهم حبيساً في جحيمٍ من الظنون.

كما ترى ان لكل قبلة من الانواع التي سلفت دلالة وكذلك القبل التي سنذكرها في البحث لم تخل من دلالة ايضاً. وقد تكون الدلالة واضحةً جليةً لاتحتاج إلى تفسير، وقد تكون الدلالة خفية غامضة تحتاج إلى إمعان رُؤية وتحليل تدعمه الشواهد والآثار التاريخية كـ(قبلة الحبيبين)

المثيرة التي يبدأ بها أشهر سِفر من اسفار الكتاب المقدس وهو سفر (نشيد الاناشيد) أو (نشيد الانشاد). ولاتزال هي والسِفر نفسُهُ في موضع الجدل بين علماء اللاهوت اليهود والمسيحيين وكذلك بين علماء الفولكلور والانثريولوجيا والآثار.

و من انواع القُبَل المحتاجة إلى تفسير وكان لها شأنٌ في تغيير مجرى الحدث التاريخي نذكر قبلةً غريبةً في تأديتها، طَبَعها المُقَبِّلُ على (كَفَلِ) حصان أو حسب النصّ: على (إليةِ) فرس، فأنقذ بها آلاف الأنفس من القتل ولو لم تحدث لذهبَ أولئك الناس ضحيةَ طيش قائد متهور.

إن هذه القبلة بخاصةٍ قدَحَت في نفسي فضولاً للبحث عن السّر وإغراءً بالجولان في عالم القُبَل، فاندحتُ فيه فاذا هو عالم فريدٌ وممتع لأنه متصلٌ بالأرواح ومتصلٌ باجتماعيات الشعوب وتقاليدها وعاداتها واعرافها ودياناتها وكانت نهاية الجولة هذا الكتاب.

و قد اتخذت فيه منهج المقارنة والتحليل اعتماداً على المدونات التاريخية بالأضافة إلى الروايات الشفاهية لأناس معاصرين عاشوا تجاربهم الخاصة.

و لابد ان اذكر ان تاريخنا ما هو إلا روايات شفاهية متناقلة عبر السنين وقد فَعَل بها تقادم الزمن فعلاً وكذلك تجاذب الأهواء وتضارب السياسات واختلاف الآراء فعل بها فجاء بعضها ينقض بعضها، غير أنها بمجموعها مطروحة أمام الباحث وما عليه إلا ان يتلَمّسَ له طريقاً بينها يتجنَّب فيه العثار والزلل، فربَّ عثرةٍ أوردت صاحبها موردَ الهلاك. خاصة اذا كان البحثُ يتعلّق بالأمور المحظورة كبدائه المقدسات وفرائض السلفيات، فانّ الخارج على هذه محكومٌ عليه بالكفر، يستحق الرجم أو القتل.

لهذا حرصت على ان اسلك بينها مسلك التوفيق فلا أثير حساسيّة شخص مجبولٍ طبعه على عبادة المقدس والتعصب له.

و لما كانت قبلةُ (إلية الفرس) المنقذةُ هي التي دفعتني لولوج عالم التقبيل فقد بدأتُ كتابي بها ثم انهيتهُ بها وبين البداية والنهايةِ فتحت ابواباً وفصولاً ستراها مفيدة إن شاء الله.

المدخل

قُبلةٌ غريبة

تنقذ الكربلائيين من مذبحة

في سنة ١٨٤٢م حدثت مذبحة فظيعة في كربلاء، قام بها الوالي العثماني (نجيب باشا) ضد أهاليها. وكان من تسمّوا بـ(اليرمازية) أي الشقاة، قد ثاروا على الحكومة العثمانية بزعامة السيد ابراهيم الزعفراني وتحصّنوا بالمدينة، فقرّر الوالي القضاء عليهم، فأرسل قوّة عسكرية كبيرة بقيادة الفريق (مصطفى باشا) استطاع فتح المدينة عنوة فدخلها في (١٣ كانون ٢) من السنة المذكورة وأباحها للجنود فوطأوا مرقد الامام العباس بن علي وكان قد استجار به مَلأٌ كبيرٌ من الناس فقتلوا منهم خلقاً عظيماً.

و قد وصف الشاعر (عبد الغفار الاخرس) تلك المذبحة فقال مادحاً قائدها:

فلاذوا بقبر ابن النبي محَّمدٍ	وقد سُرَّ في تدميرهم صاحبُ القبر
سيولُ دم القتلى غداة ابادهم	تسيل بها تلك الأَزقّةُ والجُـدْر
فلا برحت أَيامُـهُ الغرُّ غُرّةَ	تضيء ضياء الشمس في طلعة البدر[1]

و كذلك هو طبع شعراء السلاطين في كل زمان ومكان .

إلا أن الناس الذين التجأوا إلى مرقد الامام الحسين بن علي قد نجوا من القتل بأجمعهم، ويعود الفضل في نجاتهم إلى (قُبلةٍ) على كَفَل فرس.

و جلَّيةُ الأمر أن القائد المذكور لما انتهى من تلك المذبحة في ضريح العباس انتقل إلى مرقد اخيه الحسين ليفعل بمن فيه مثلما فعل بمن في سابقه. فوقف قبالة الباب الموصد وقد هيَّأ مدفعاً لضربه وكان راكباً

١. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث/ د. علي الوردي/ ٢/ ١٢٣.

فرساً بهيأةٍ مرهبة، وفجأة فُتحَ الباب وخرج منه نائب كليدار الحضرة وعمامته في رقبته وهو يبكي ويلطم ويطلب الأمان.

ثم خاطب القائد بالتركية التي كان يتقنها قائلاً: "أفندم، إننا لم نخلع الطاعة ولم نفارق الجماعة فلا تأخذنا بذنوب المفسدين وترحَّم علينا بالأمان".

ثم استدار نحو مؤخرة فرس القائد وطبع على اليتها قبلة[1]. فلما رأى القائد فعلته تأثَّر كثيراً وهدأت سورة غضبه ولان فرفع يده واشار إلى الجنود بالتوقف عن اطلاق النار، فتوقَّفوا. ثم اعلن الامان فنجا جميع من كان داخل الصحن من الموت بفضل تلك القبلة.

و هنا لابد ان نقف هنيهة امام هذا الموقف (الانساني) الذي انطلق فجأة من طاغية موتور، أزهق في تلك الموقعة أربعة وعشرين ألفاً – حسب بعض المصادر – دون أن يرتعشَ قلبه لحشرجة طفلٍ او احتضار شيخ او نشيج امرأة، فنتساءلُ كيف ألانته تلك القبلة الغريبة، وجرّدته من نازع الغضب والتَّوتُّر الثائر في نفسه؟ وهل كان المنقذ نائب كليدار الحضرة على درايةٍ بما سيحدثه تقبيل الفرس بهذا الشكل على طبع القائد؟ ام انه اندفع اليه بلا وعيٍ نتيجة الانهيار النفسي المتأتي من الخوف والفزع؟

لقد قيل في حينها ان النائب أهان بتلك القبلة نفسه وشعبه وان القائد لما رأى حالة الذلّ التي أحاقت بخصمه اخذه زهوُ الأنتصار وشعر بأن الخصم قد استسلم فلا داعٍ لأن يستمر بالقتال فأمر بوقفه.

قد يكون هذا التعليل مقنعاً لأن السياسة تقتضي في الظروف المشابهة ان يستخدم الغالب الوسيلتين المعروفتين في السيطرة على الأمور: وسيلة الترهيب ووسيلة التحبيب. وقد استخدم القائد وسيلة الترهيب في مرقد العباس فكانت عبرة لمن اعتبر وبقيت وسيلة التحبيب فرأى ان يستخدمها

---

١. مدينة الحسين/ محمد حسن الكليدار آل طعمه/ ١/ ٨١.

لدخول صحن الحسين فدخله من باب الرحمة والتعطّف والأستعلاء فتم له ما أراد واستقر أمن العباد.

و لكن مع حصافة هذا التعليل وواقعيته تبقى في ذهن الباحث عن اللمحات الاجتماعية مسألة تقبيل مؤخَّرة الفرس مثيرة لتساؤله، ألا يمكن ان تكون هي التي عزفت على اوتار عواطف القائد المهتاجة فهدَّأتها؟ ثم لو كان النائب اقتصر على لغة الكلام فحسب للوصول إلى تهذيب نفس القائد وترقيقها فهل كان سيحصل ذلك الامان؟

في رأيي ان لغة الكلام في مثل تلك اللحظات الحرجة تتعطل ويبطل مفعولها فلابدّ ان يقترن معها عمل آخر أو بالأحرى لغة اخرى تعمّق تأثير الكلام، فارتأى النائب ان يستخدم لغة التقبيل فأنه اعمق تأثيراً في النفوس فاستخدمه ونال به مبتغاه.

و هنا ينثال سؤال آخر: لماذا تقبيل مؤخرة الفرس بالذات ولم يعمد النائب إلى تقبيل يد القائد أو رجله وهما اكثر الاجزاء تأثيراً في استمالة القلوب الصلفة؟

يبدو لنا ان النائب كان يعرف ان تقبيل الايدي والارجل بطل تأثيره على القائد لكثرة ما ألفه من المنافقين والمتزلفين وطالبي الحاجات، ولكن هذه القبلة لها سحرٌ آخر اكبر في التأثير عليه وكان النائب يعرفه بحكم درايته بطبائع الاتراك فاستخدمه فأنقذ اهالي كربلاء من المذبحة.

و قبل أن أصل بك - أيها القارئ - إلى معرفة ذلك السحر رأيت ان ألِجَ معك اولاً عالمَ التقبيل منذ بداية التقبيل ثم نعود معاً لاستجلاء سحر قبلة مؤخرة الفرس التي دخلت التاريخ.

الباب الأول

استهلالات معرفية

- منشأ نزعة التقبيل
- القبلة في القواميس العربية
- البوسة والتباوس
- تشريح التباوس عند اخوان الصفاء
- لغة القبلة
- انواعٌ من القبل
- القبلة في عوائد الشعوب

منشأ نزعة التقبيل

من المحتمل ان تكون نزعة التقبيل قد نشأت عند الانسان منذ أن صار يقف على قدميه ويقابل الآخرين وجهاً لوجه واصبحت ذراعاه مستعدتين للعناق. وهذا رأي الموسوعة البريطانية[١]. وهو رأيٌ جميل لا مِراء فيه حيث يمكن الاقتناع بأن تبدل الوضع البايولوجي للانسان من الَحبْوِ إلى انتصاب القامة وتحرّر اليدين من وظيفة الارتكاز قد يؤدي إلى تحوّل في السلوك والطباع. ولما كانت قدرة هذا النوع من الأُناسي الذي يطلق عليه علماء الأجناس اسم (الأَنسان المنتصب Homo Erectus) على التفاهم مع أنداده ضعيفةً لقصور لغته عن التعبير فإن الملامسة بالشفاه على مواضع مختلفة من جسم المقابل قد اسعفته كثيراً في التعبير عن عدة اغراض يروم البوح بها لمن يقابله.

و تمضي الموسوعة فتعرّف القبلة بانها ضمٌّ الشفاه على الشفاه أو على الخدّ أو اليد أو القدم لشخص آخر كدلالة تعاطف أو تبجيل أو انجذاب جنسي.

بينما رأى باحثون آخرون بأن القبلة كانت فقط في المرحلة الاخيرة من تطور طويل بدأ بتلامس الوجوه وشمّها مثلما يفعله الاسكيمو والماوري فانهم لا يزالون يفركون انوفهم مع بعضها ولا يقومون بتقبيل بعضهم بعضاً. وقد لوحظ ان الناس في بعض القبائل الهندية يتبادلون التحية بطريقة شمّ الوجوه واعتادوا ان يقولوا (شُمَّني) بدلاً من ان يقولوا (قبلني)[٢].

إن الشمَّ في حقيقته نوع من الملامسة الحميمية وقد رأيتُ من العراقيات

---

١. .Encyclopedia Britannia. Kiss Item

٢. .Webster Ency. Kiss Item

من يعمدن إلى شمِّ خدود بعضهن دون تقبيلها. ولكن بعض العراقيين من المحبّين بخاصة يقبلون أولاً ثم يشمّون. يقول شاعرهم:

بوسه واشمّنه   واشمّ العِطِر منّه

و مع هذا فان القائلين بأسبقية اللمس يذكرون إنه أصلُ المشاعر وقد أظهرت التجارب بأن أخف الملامسات مع الآخرين تنبّه الدماغ وتستثيره فنرى كثيراً من الحيوانات تتعارف مع بعضها باللمس حينما تتلاقى، فالقطط والكلاب تدلك أجسامها بأجسام اصحابها أو أجسام نظائرها، والطيور تدلك مناقيرها بمناقير بعضها عند التجاذب والحمام يزقُ بعضه بعضاً في حالة التواصل ومطارحة الحبّ. والفِيَلَةُ تجدل خراطيمها بخراطيم بعضها البعض. وحتى الحشرات تتعارف بالتلامس بقرون الاستشعار وكذلك الحلازين.

و يرى باحثون آخرون ان التقبيل بدأ أول ما بدأ بين الأمّ وطفلها وذلك عندما تحاول تبسيط الطعام وتدفئته بمضغه بفمها قبل ان تنقله – بطريقة قُبله – إلى فم طفلها. انها ذاكرة اللاوعي لهذه المزاملة الآتية من الماضي البعيد والتي وهبتنا القبلةَ الحاضرة.

و يربط فرويد القبلة بالرضاعة ويقول ان منشأ القبلة متأتٍ من اللذاذة التي يشعر بها الطفل عند مصّه حلمة ثدي الأمّ طلباً للغذاء. ويسمي فرويد هذه المرحلة بـ(المرحلة الفمّية Oral Stage) وهي تمتد من ميلاد الطفل إلى بلوغه ١٨ شهراً حيث يكون الفم مركزاً للذّة. وعندما يكبر يحنُّ إلى ذلك الماضي ويتحول المص إلى تقبيل الآخر[1].

القبله فى القواميس العربيه

جاء فيها ان (القُبْلَةَ) هي (اللَّثمةُ). ولثَمَ الرجلُ صاحبه: وضَعَ فَمَه على

---

١. القبلة/ د. فوزية الدريع/ ٥٧ وما بعدها.

فمِهِ. ويعبارة الفراهيدي في (العين): وضعكَ فاكَ على (في) آخر. وفي صحاح الجوهري تقول: لثمتُ فاها – بالكسر – اذا قَبّلتها وربما جاء بالفتح. قال جميل:

فَلَثَمتُ فاها آخذاً بقرونها   شُربَ النَزيفِ ببردِ ماء الحَشْرَجِ

وفي لسان العرب:

ولثَمتُ من شفتيه أطيبَ مَلثَمِ

و يأتي (الكَعْمُ) كنوعٍ من انواع التقبيل وهو العنيف. ومعناه التقام الفم. مأخوذٌ من كَعمِ البعير، إذا شُدَّ فمه لئلا يعضّ. وجاء في (تاج العروس) مادة (كَعَمَ): المكاعمة: المضاجعة في ثوبٍ واحد ومنهم من فرّقَ بين المكاعمة والمكامعة. فالاول لثمُ الرجلِ صاحِبه واضعاً فَمَه على فمه والثاني مضاجعة الرجلِ صاحبه في ثوبٍ واحدٍ. وفي الحديث نهيٌ عن المكاعمة والمكامعة. ومنه قول الزمخشري: كامعها فكاعمها: ضاجعها فقبلها.

وجاء في (النهاية) انه (ص) نهى عن المكاعمه وهي ان يلثم الرجلُ صاحبه ويضع فمه على فمِه كالتقبيل. أُخذ من كعم البعير، وهو ان يُشَدَّ فمُهُ اذا هاج، فجُعِلَ لثمُهُ اياهُ بمنْزلة الكِعام[1]. ومنه الحديث: (دَخَلَ اخوةُ يوسفَ عليه السلام مصر وقد كعَمُوا افواه إبلهم).

و على هذا يظهر ان الكعم من أعنف انواع التقبيل وكان جارياً بين الرجال في حالات التعاطفات الأَخوية القصوى، ومَنَعه النبي (ص) ربما لاعتبارات صحية. ويظهر كذلك انه كان يجري اثناء التواصل الوجدي بين المحبين والمتزوجين. وأحسب انه يقابل في الانكليزية مصطلح (Deep Kiss) (القبلة العميقة) وهي قبلةٌ يستخدمُ فيها اللسان يتحرّى لسان

---

١. النهاية في غريب الحديث والأثر/ ابن الأثير/ ٤/ ١٨٠.

الشخص الآخر من فمه وتحدثُ في سياقِ إثارة الشهوة والتعبير عن الحب كذلك[1].

و استعمال هذه القبلة قديم مذكور في نصٍّ سومري. وسميت بصفتها الوضعية واطلق عليها اسم (لعبة اللسان).فذكر النصّ ان عشتار مارستها مع حبيبها (دموزي . تموز) أثناء زواجهما المقدس حيث قالت:

"أضجعني على سرير الحبِّ الشذي حبيبي الغالي
اضطجع إلى جانب قلبي
ومارسنا (لعبة اللسان) بعضاً مع البعض الآخر
فعل ذلك حبيبي (دموزي) خمسين مرة"[2].
و جاء في نصٍّ آخر:
"نال مُتُعتَهُ مني. ابتهجَ كما يبتهجُ أحدٌ بي
الأخ جاء بي إلى بيته
اضجعني على فراش العسل المعطّر
حلوي الثمين يتّكئُ إلى (قلبي)
وضعَ اللسان مرةً بعد مرة، مرّةً بعد مرّةٍ
اخي صاحب اجمل وجه . . فعل ذلك خمسين مرة"[3].

البوسة و التباوس

و الغالب في كلام الشعب في العراق ومصر وبقية البلدان العربية لفظة (البوسة) وهي مأخوذة من (البوس) أي التقبيل. فارسيٌّ معرّب حسب

---

١. Ency. Bri. Ibd.

٢. الاسطورة والتوراة/ ناجح المعموري/ ١٥٨.

٣. طقوس الجنس المقدس السومريين/ كريمر/ ترجمة نهاد خياطة/ ١٥٣.

الصحاح ولسان العرب وغيرهما من القواميس. يقول احمد امين: والقُبلةُ يسمونها في مصر (البوسة)[1].

و قد تَغَلَّبَت لفظة (القبلة) على مجال الادب والنصوص الرفيعة ومع هذا فإن (البوسة) اخذت نصيباً في ذلك المجال كذلك. فاشتقَّ من البوس أفعالٌ دخلت ضمن الحديث والحوار الفصيح، فجاء مثلاً في (صبح الاعشى): ولما وَصلَ الرسول إلى الرَّحْبَةِ المحروسة، قال للنائبِ فيها: بُسِ الارضَ للأمير تيمور واقرأ الخطبة بإسمه[2].

وفي (اغاني) ابي الفرج:

وقامَ هذا ببوس ذاك وذا يعنِقُ هذا بغير تقديرِ[3]

وقال احد الشعراء:

وكان خشِفٌ قد باسَهَا بغمٍ وهي من (البوس)بعدُ شبعانه[4]

كما استخدمت لفظة (البوس) في شعر الازجال، فأنشد الشيخ ابو بكر العجمي لنفسه من المواليا:

للحِبِّ قالوا معناك الذي اذبلتو

جُد لي بقبلة، فقبّلتو فيك خبَّلتو

فقال: اقسم لو أن (البوس) سبَّلتو

ومات للشوق ما درتو وقبّلتو

و استعملت لفظة (التباوس) لأعطاء معنى المشاركة في تبادل القبل كما

---

١. كتابه/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية.

٢. ج/ ٧/ ص ٣٤٠.

٣. ج/ ١٤/ ط. دار الكتب.

٤. قِرى الضيف/ مؤلف مجهول/ ١/ ٤١٠.

في (الف ليلة وليلة)[1] ويستشفُ من السياق انه اريد من استخدامها استيحاء أقصى تصوُّر للمشاركة الحميمة بين المتعاشقين والالتزام بجميع الجوارح وهو مالا يتوفّر استيحاؤه من الالفاظ المرادفةِ الأُخرى.

تشريح (التباوس) عند اخوان الصفاء

و يبدو انه لهذا السبب استخدم اخوان الصفاء[2] هذه اللفظة في مجال (تشريحهم) لعملية التقبيل وبيان ما يحدث اثناءها من تغيّرات (فسلجية) داخل جسم المتلاثمين. فالتباوس عندهم عمليةٌ مركبة من اختلاط الريق بالريق وامتزاج الانفاس بالانفاس مع الرطوبات الموجودة في المعدة واجزاء الدم الموجودة في الكبد، فنشأ من هذا الخليط تركيبة تسير في العروق فتنعقد في سائر اجزاء الجسم شحماً ولحماً ودماً وعصباً. قالوا:

"إذا تعانق العاشق والمعشوق جميعاً وتباوسا، وامتص كلُّ واحدٍ منهما ريقَ صاحبه وبلَعَه، وصلت تلك الرطوبة

---

١. تكملة المعاجم العربية/ دوزي/ ١/ ٢١١.

٢. (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) جماعة سرّية دينية وسياسية وفلسفية شيعيّة او اسماعيلية باطنية. عاشوا بالبصرة في الصنف الثاني من القرن الرابع الهجري ويذكر منهم خمسة هم: محمد بن بشير البُستي الملقب بالمقدسي. وابوالحسن بن هارون الزنجاني، ومحمد بن احمد النهرجوري، والعوضي، وزيد بن رفاعة. جماعة تألفت وتصافت واجتمعت على القدس والطهارة. وضعوا مذهباً زعموا انه يؤدي إلى الفوز برضوان الله. ولذلك سموا باخوان الصفاء وخلان الوفاء. جمعوا معارف عصرهم العلمية والفلسفية والدينية في رسائل تزيد على الخمسين وتكوّن ما يشبه دائرة المعارف. مذهبهم تلفيقي، اخذوا فيه من كلٍّ علم. اعتقدوا ان الشريعة دُنِّسَت بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، ففيها الحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وحتى انتظمت الفلسفة اليونانية بالشريعة المحمدية فقد حصل الكمال. (انظر/ الموسوعة العربية الميسرة).

إلى معدةٍ كلٌ واحدٍ منهما وامتزجت هناك مع الرطوبة التي في المعدة. ووصلت إلى جِرمِ الكبد واختلطت بأجزاء الدم هناك وانتشرت في العروق الواردة إلى سائر اطراف الجسد واختلطت بجميع اجزاء البدن وصارت لحماً وشحماً ودماً وعروقاً وعصباً وما شاكل ذلك.

وهكذا ايضاً اذا تنفَّسَ كلٌّ واحدٍ منهما في وجه صاحبه خَرَجَ من تلك الانفاس شيءٌ من نسيم روحِ كلٌ واحدٍ منهما واختلط بأجزاء الهواء، دخلت إلى خياشيميهما اجزاء ذلك النسيم مع الهواء المستنشَق ووصل بعضُه إلى مقدَّم الدِّماغ وسرى فيه كسريان النور في البلَّور، واستلذَّ كلٌّ واحدٍ منهما ذلك التنسُّم ووصل ايضاً من اجزاء ذلك الهواء المستنشق بعضٌ إلى جِرم الرئة من الحلقوم ومن الرئة إلى جِرم القلب مع النبض في العروق الضوارب إلى جميع اجزاء الجسد، واختلط هناك بالدم واللحم وما شاكل ذلك من اجزاء الجسد، فانعَقَدَ في بدن هذا ما تحلَّلَ من جسد هذا وفي بدن هذا ما تحلَّل من جَسَدِ ذاك، فيكون من ذلك ضروب ومن المِزاجات من تلك الأمزجة ضروب الاخلاط ومن تلك الأخلاط ضروب الاخلاق كلٌّ ذلك بحسب امزجة ابدانها"[1].

من خلال هذا التحليل الطريف لآلية التباوس، نفهم ان اولئك المفكرين كانوا يقولون بإمكان التماهي بين الذوات بالقبلة. وان المتعاشقين يمكن ان يكونا ضميراً واحداً وكياناً واحداً عن طريق الاعتناق والالتباس وامتزاج الريق بالريق واستنشاق الانفاس.

---

١. رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء/ ٣/ ٢٧٤/ ط. دار صادر بيروت.

و قد عَبَّر كثير من الشعراء عن حالة الالتباس هذه وصيرورة الجسَدين جسداً واحداً بالمعانقة فأبدعوا. يقول احدهم:

تَوَهَّم واشينا بليلٍ مزارَه فهمَّ ليسعى بيننا بالتباعدِ
فعانقته حتى اتحدنا تعانقاً فلما أتانا ما رأى غيرَ واحدِ[1]

و لاشك ان الاخطل الصغير (بشارة الخوري) قد استوحى من هذا البيان ابياته التي يقول فيها:

ماكان أحلى قبلاتِ الهوى إن كنتَ لا تذكرُ فاسأل فَمَك
تمرُّ بي كأنني لم اكن ثغرَكَ او صَدّرَكَ او مِعْصَمَك
لو مرّ سيفٌ بيننا لم نكن نعلَمُ هل اجرى دَمي أودمك[2]

لغة القبلة

و لسنا نجد شعباً من شعوب العالم لا يولي هذه العملية اهمية كبيرة. فهي لغةُ الأنْسَنَةِ والتعاطف ورمز التوحيد والترابط، بواسطتها يستطيع الواحد ان يظهر مكنون اعماقه من العواطف الجيّاشة، وبها يمكنه ان يُعَبِّرَ للآخرين عن عديدٍ من الدلالات التي تقْصرُ عنها الكلمة.

و نذكر من جملة الشعوب القديمة التي استخدمتها بشكل واسع أهلَ بابل فقد جاء في النصوص المسمارية ان العوائل البابلية كانت تقبّلُ احداها الاخرى عندما تلقي تحية الصباح[3]. وهذه كما ترى صيغة من صيغ الترحيب. وكانت واسعة الانتشار في الثقافات الاجتماعية الأخرى ومنها ثقافة اليونان والرومان والجرمان.

---

١. ديوان الصبابة/ ابن ابي حجلة/ ٢٠٩.

٢. الهوى والشباب/ ١٠٢/ ط. دار المعارف بمصر.

٣. الحياة اليومية في بلاد بابل واشور/ جورج كونتينو/ ١٢٢.

و تورد نصوص (التوراة) مجالات عديدة تتخذ فيها القبلة كتعبير عن حالة اجتماعية معيّنة، كقبلة الولد لوالده او والدته أو حميّه أو الوالد والوالدة لأولادهما واحفادهما. وقبلة الأقرباء والاصحاب وقبلة ذوي المرتبة الواحدة للصداقة او التظاهر بها. وقبلة المختلفين رتبةً على نوعٍ من التنازل أو الوقار. وجعلت القبلة احياناً كعلامة على المصالحة[1].

و كان المسيحيون الاوائل يحيّون بعضهم بالقُبَل وهي (قُبل السلام) وعندهم ما يسمى بالقبلة المقدسة ولا تزال باقيةً في تقاليد الروم الكاثوليك، كأن يُقبِّلُ اسقفٌ كاهناً جديداً وهو نفسه كان قد قُبِّلَ عندما كُرِّس لمنصب الكهنوت.وكان من تقاليد الفرسان في العصور الوسطى تقبيل بعضهم عند منحهم اللقب[2].

انواعٌ من القُبل

الشائع في عملية التقبيل انها تكون بإستخدام الثغر يباشر موضعاً معيناً من جسمِ المقبَّل والغالب على الشفة او الخد أو بقية الاجزاء الظاهرة. ولكننا نجد إلى جانب هذا نوعاً من القُبَل لا تستخدم فيها المباشرة بل يعوّض عنها بتبادل البصاق، فإذا أراد شخصٌ من قبائل (الماساي) في افريقية ان يقبِّل شخصاً بصقَ عليه لأن البصقة عندهم تعبيرٌ عن الحبِّ والتقدير[3].

و رأينا نوعاً من القبل لا تستخدم فيها الشفاه وانما يستخدم فيها الأنف يلامِسُ أنف الشخص الآخر عدة مرات وتسدُّ هذه الحركة مسدَّ القبلة الشفوية.

---

١. قاموس الكتاب المقدس/ جورج يوسف/ مادة قبلة.

٢. Ency. Bri. Ibd.

٣. طبيعة المجتمع البشري/ د. قيس النوري/ ٢/ ٢٥٤.

و يجري هذا النوع من التقبيل في مجتمع الجزيرة العربية ودول الخليج ولا نجده في بقيّة المجتمعات العربية الأخرى كما اننا لم نجد له أثراً في اعراف المجتمع العربي القديم. ولربما كان هذا واصلاً اليهم من ثقافات شعوب اخرى حيث يذكر ان الشعوب البولينيزية تمارسه وكذلك شعب الاسكيمو. ونذكر دائرة معارف بطرس البستاني ان الاصحاب والاصدقاء في جزر (سوسيتي) يفركون انوفهم بعضاً على بعض[1]. إلا انه ليس من السهل تأثيل العادة العربية إلى عوائد هذه الشعوب. وقد تستطيع ان نعزوها إلى ظهور ائتلاف اجتماعي نشأ بين الناس على وجوب استخدامها نتيجة تعرّض البلاد إلى وباء. فللخوف مما تفعله القبلة الفميّة من نقل الوباء، استعاضوا عنها بتلامس الانوف. وقد ثبت ان كثيراً من الامراض السارية والقاتلة كالحمّى الغددية والسفلس والطاعون تنتقل بين الناس بتبادل القُبل فماً لفم. ولهذا تجد بعض الشعوب كاليابانيين والصينيين لا يستخدمون التقبيل في التحيات ويستعيضون عنه بالانحناء فالانحناء عندهم تحيّة لكلّ المناسبات.

و في الواقع ان هذه عادة صحيّة سليمة فما يدريك ما ينقِلُ لك مقبِّلك الغريب من أمراض. وكيف تثق انك لاتنقل اليه شيئاً مما يحمله فوك من الجراثيم.

يقول الدكتور علي شلق:

(ان القبلة فيها تجاوز على مقاييس الاناقة والصحة العامة وتصلُ إلى درجة السماجة ساعة ما يعبِّرُ بها الانسان عن شوقه بالتقبيل بالفم، ففي ذلك ما لا يجهله أحدٌ من الغَفْلَةِ وثقلِ الظلِّ.. القبلة في المعيار الحضاري لا لزوم لها ولا معنى لها)[2].

---

١. انظر/ مادة (السلام) في دائرة المعارف المذكورة.

٢. كتابه/ القبلة في الادب العربي/ المقدمة.

و تستخدم (قبلة الأنف) عندنا في العراق ولكن ليس انفاً بأنف بل أنفاً بخدّ حيث يقوم الواحد بعد المصافحة بوضع انفه على خدّ الشخص الآخر ويستنشق بقوة. واذا كان هذا الآخر ممن يألف هذه العادة فان الاثنين يتبادلان التحية بتبادل الاستنشاق.

و قد ظهر في الدراسات ان هذا النوع من التقبيل مألوف لدى الساميين الأوربيين (اي اليهود) ولدى الشعوب في الجنوب الشرقي من الهند حسب ما ذكرته الموسوعة البريطانية.

و في أوربا يمارس بعض الناس طبع القبلة على طرف الأنف. نجد هذا في احدى رسائل الموسيقي المشهور (موتسارت) بعثها إلى والده يقول فيها:

"وفي الايام التي اجلس خلالها على الكرسي أُغني اغنية (اوركانا فاكانا)، وفي النهاية اقبل طرفَ أنفك

و هو في الحقيقة لا يزال يجري ويمتلك حبي وطاعتي لك"[1].

و تمارس النساء في مجتمعنا نوعاً من التقبيل نستطيع ان نطلق عليه اسم (التقبيل الصائت) حيث تجعل المرأة خدّها على خدّ زميلتها ثم تبوس الهواء بصوت عالٍ عدة بوسات متسارعة يسمعُ صوتها العابرُ والواقف.

و يسمّي المؤرخ احمد أمين هذه القبلة (قبلة الطقطقة) وهي شائعة في المجتمع المصري حيث يقوم الأقارب اذا تلاقوا بوضع الخدّ على الخدّ وتقبيل الهواء ويمارسها الجنسان المختلفان على حدٍّ سواء من المدنيين أو القرويين.

و قد يكون سبب نشوء هذا النوع من التقبيل هو الخوف من انتقال الوباء كما اسلفنا فيعوّض عنه بالتماس البعيد عن مباشرة الأفواه.

---

١. Ency. Bri. Ibd.

و مثله نخصُّ بالذكر (تلامس الأكتاف) وهو من التحيات المعوّضة عن التقبيل والجارية عندنا في بعض المناطق الريفية بخاصة. فبعد ان يتلازم المتوادّان بالايدي يتجاذبان إلى بعضهما بحيث يمسُّ كتف احدهما كتف الشخص الآخر عدة مرات، وقد يطبع الواحد قبلةً على كتف زميله.

القبلة في عوائد الشعوب

تخضع القبلة بجميع انواعها المختلفة لضوابط وحدود تقررها أحكام الشعوب وأعرافها. ففي المجتمعات التي تقوم على أساس الفصل بين الجنسين لايسمح بتقبيل الفتى فتاته إلا بِمُبُرّرٍ شرعي وعند غيابِ هذا المبرِّر تُعتبَرُ القبلة حراماً يستوجب العقاب. أما في المجتمعات التي أزالت الحدود بين الجنسين فيباح التقبيل بين الفتيان والفتيات علناً ولا حاجة إلى التستر.

و في واقع الأمر إن التقبيل نجده مباحاً في الغرب، يمارَسُ كتعبير عن الصداقة أو الحبّ أو التحية. فلا يكون عندهم ضير في تقبيل الرجل المرأة الاجنبية يلقاها وحدها أو مع زوجها، فيُعبّر عن صِدق نواياه بطبع قبلةٍ او قبلتين على خدّها او يدها بعد المصافحة. اما المحبّون فلا يجدون من يمنعهم عن تبادل القبل الحميمة في الطريق وعلى مشهد من الملأ.

بينما تحرّم كثير من المجتمعات الشرقية بعامة والاسلامية بخاصّة هذه الممارسة فلا تكاد تجد احداً يقبّل امرأة في الطريق إلا اذا كانت من محارمه. غير ان امتداد ثقافة الغرب إلى بعض هذه المجتمعات عن طريق الاحتلال أو الاستعمار، ليَّنَ من تصلّب المحرمات، فأخذ الناس عادتهم في حرّية التقبيل.

ففي اليابان نجد اليوم ان التقبيل بين الجنسين يمارس علناً بعد ان كان مستنكراً حتى قيل عنهم انهم لا يتلامسون وليس عندهم حتى كلمة عن القبلة.

و حدث هذا في المجتمع الهندي الاسلامي المعروف بتقاليده الشديده التي تحرم مصافحة المرأة بَلْهَ تقبيلها. ولكن المكانات التي اتصلت بالانكليز اتصالاً مباشراً صارت متساهلة في هذا الشأن بينما بقيت المكانات البعيدة عن التلاقح معهم على عاداتها القديمة في التحريم.

و جرى هذا في بعض المجتمعات العربية. ففي الجزائر حافظت البقاع التي نأت عن ثقافة الفرنسيين على نظرتها الزمّيتةِ تجاه تقبيل المرأة. ولكن المناطق التي اختلط الفرنسيون بها تساهلت واخذت منهم طريقتهم في (البوس الفرنسي) وهو التقبيل مرتين او ثلاثاً على الخدّ لكلٍّ من الجنسين سواءً أكانوا من الاقارب أو الاباعد.

و لاتزال المجتمعات الاسلامية البعيدة عن التواصل مع الغربيين تقف موقفاً متصلّباً إزاء مقابلة المرأة للأغراب فلا يجوز لها مدّ يدها لمصافحتهم. ففي (بنغلادش) لا يتصافح المختلفان جنساً أو يقبّل بعضهم بعضاً وكذلك الحال في (افغانستان). ولكن يحق للرجال ان يتلاثموا بالقبل الخفيفة بعد العناق وتربيت الظهور ثم جعل اليد اليمنى على موضع القلب. اما النساء فيمارسن العناق ويقبّلن بعضهن بعضاً ثلاث مرات على الخد.

و كان المجتمع في (ايران) قبل الثورة الاسلامية منقسماً بين فئة متحررة تبيح لنفسها تجاوز حدود الفصل بين الجنسين، وبين اغلبية متشددة تمنع النساء من مصافحة الرجال. ولكن بعد الثورة (سنة ١٩٧٩) صار التحريم شاملاً الجميع فحرّم على النساء مصافحة الرجال على العموم بينما يستطيع الرجال التلاثم مع بعضهم كعلامة على التعاطف والأخاء.

و في (مصر) يتصافح الاصدقاء من نفس الجنس ويقبلون الخدّ الايمن والايسر لبعضهم البعض. واذا كان اللقاء بعد غيابٍ طويل فان القبلة تُعاد

عدة مرات وتختم في بعض الاحيان بقبلة عل الجبين. ويحيي الرجل المرأة بالمصافحة فقط في حالة مدّها يدها وخلافاً لذلك فان التحية تكون كلامية.

و في (مراكش) يحيي الناس اصدقاءهم الاقربين بطريقة مسح الخدود ثم تقبيلها وذلك بعد المصافحة. وللتعبير عن السرور بمقابلة الشخص الآخر أو للتعبير عن حرارة اللقاء فان الواحد يضع يده اليمنى على قلبه بعد المصافحة.

و في (تونس) يقوم الاصدقاء واعضاء العائلة بممارسة التحية بطريقة (تقبيل الهواء) اما بين الغرباء من الرجال والنساء فان المصافحة تكون تحية اعتيادية عندهم.

اما في (السودان) فلا يستطيع الرجل ان يتلامس مع المرأة في المحافل العامة ولكنه قد يصافحها فيما لو مدّت هي يدها إليه.

و كل ذلك يجري وفق تعاليم شرعتها تقاليد الشعوب واعرافها ودياناتها، وليس من الغريب ان نجد في هذه التعاليم ما يقاطع بعضها بعضاً كنظرة بعض الصينيين إلى القبلة بأنها توحي بكأل اللحوم البشرية بينما يطلق شعراء اليونان عليها اسم (مفتاح الفردوس)[١].

١. عن مصادر متعددة. انظر مثلا Encarta Ency. Greetings Item.

الباب الثاني

القبلة في (الكتاب المقدس). انواعها واغراضها

- تقبيل (البعْل) وتقبيل الأجرام السماوية
- تقبيل اللحِّية
- القبلة تعبيراً عن المحبّة العائلية
- قبلةُ العُشاق وقبلة الزواني
- القبلةُالمقدسة بين المسيحيين الاوائل
- تدنيس القبلة المقدسة
- القبلة في ليلة عيد رأس السنة المسيحية

تقبيل البعل وتقبيل الأجرام السماوية

نجد في الكتاب المقدس – الذي يضمُّ بين دفتيه التوراة والانجيل – ذكراً لأنواع عديدة من القبل معزّزةً بوقائعها التاريخية أو غاياتها الاجتماعية أو الدينية.

و نظراً لكون (التوراة) هي الاقدم في التاريخ فإننا نعثرُ بين ثناياها على أحافير آثارية من ممارساتٍ للتقبيل كانت الشعوب التي سبقت اليهودية أو التي عاصرتها تؤديها اثناء عباداتها كالشعوب التي عبدت (البَعْل)[1]، فأنها كانت تقدم له الاضاحي البشرية وتجثوا أمامه وتقبّله حسبما جاء في (سِفر الملوك الاول)[2].

---

١. البعل: معناه السيد اوالمالك او الرب. ولا تزال هذه الكلمة مستعملة عندنا تطلق على زوج المرأة. وجمعها في العربية: بعول وبعولة وبعال للمرأة بعلٌ وبَلة. وبمعنى الزوج قوله تعالى ((وإن امرأةٌ خافت من بَعلها نشوزاً)) (النساء/ ١٢٨) و ((وبَعولتُهنَّ)) (البقرة/ ٢٢٨).

وبمعنى الربّ او السيد استعملها عبدة الاصنام العرب. وأشار القرآن الكريم إلى هذه العبادة في قوله تعالى: ((اتدعون بعلاً وتذرون احسن الخالقين)) (الصافات/ ١٢٥).

وكانت عبادة البعل عمومية بين اهالي المشرق القدماء وبحدود سنة (٢٣٠٠) ق.م. عبدة الفنيقيون والآراميون والكنعانيون وعبدة بنواسرائيل ايضاً.

صوِّر بعل برأس ثورٍ مقرَّن وعلى رأسه حزمة رعود بشكل سهام ولذلك اعتبر إلاهاً للغيوم والعواصف. وهو إلاه الشمس وزوجته العبلة عشتاروت إلاهة للقمر. وكانت عبادته تتمثل بتقديم الضحايا البشرية اليه. وبنيت معابده في اعالي التلال المرتفعة ولهذا اعتبر إلاهاً للقمم. وقد امتدت عبادته إلى البلاد الأوروبية فعبده شعب ايرلنده واسكوتلندا.

٢. ١٩/ ١٨.

و قد انتقلت هذه الشعيرة إلى اليهود انفسهم في زمن النبيّ (إيليا) (بحدود سنة ٨٨٠ – ٨٥٠ق.م) حيث ارتد قسم كبير منهم عن ديانة التوحيد وعبدوا البعل وسجدوا له.

و اشتهرت من الشعوب التي عبدته كنعان الذين سكنوا الارض المسماة باسمهم، والتي تبدأ حدودها الأصلية من مدخل (حماة) إلى الشمال، وبادية سوريا والعرب إلى الشرق والجنوب وساحل البحر المتوسط إلى الغرب.

و قد عُثر على تماثيله في (اوغاريت) بسوريا وكانت له معابد هناك وكهنة، فيأتي المتعبدون اليه ويقدمون له الاضاحي وتشمل اضاحي الاطفال. ولما ظهر النبي (ايليا) قام بقتل نحو اربعمائة وخمسين نفساً من كهنتهم وكانت عقوبة تقبيل البعل القتل[1].

اما الشعوب التي عبدت الأجرام السماوية فكانت طريقة عبادتها تجري بمدٍّ اياديهم نحوها ثم يقبلونها وكذلك يفعل عبدة القمر. وقد جاءت الاشارة إلى هذه الممارسة في سِفر (ايوب) عندما تضرّع إلى الله قائلاً: (فلتسقط كتفي من كاهلي ولتنكسر ذراعي من مفصلها إن كنت نظرت إلى الشمس حين سطعت أو إلى القمر يسير بالبهاء، فافتتنَ قلبي سِراً وأرسلت يدي إليها قبلةً من فمي، انها جريمةٌ تُرفع إلى القضاة لأني اكون قد كفرتُ بالله العليّ)[2].

أقول: ولايزال وَشَلُ تلك الممارسة باقياً عندنا نراه عندما يُلَوّحُ انسانٌ إلى انسانٍ آخر يده بالتحية، فانه – ان كان بعيداً – يقوم بتقبيل يد نفسه ثم يرسل القبلة اليه في الهواء.

---

١. قاموس الكتاب المقدس/ نخبة من ذوي الاختصاص واللاهوتيين/ ١٨٢.

٢. انظر/ ايوب/ ٣١/ ٢٦ و ٢٧.

تقبيل اللّحية

كما نجد في التوراة اشارات تفيد بأن اللحية علامة من علامات الافتخار وكرامة الانسان. فإذا أُريد تقديره قبلّوا لحيته ولذلك كانوا يعتنون بها وكان اهمالها عندهم دلالة على تشويش او خَلَلٍ عقلي. ولكنهم كانوا يطلقونها في حالات الحزن كما انهم ينتفونها او يجزّونها دلالة على الحداد، فعندما وصل إلى سمع النبي (عزرا) (العُزَير) إن شعبَ اسرائيل وكهنتهم تزوجوا من نساء اجنبيات واختلط نسلُهم بأمم الارض عَمَدَ إلى ثيابه فمزّقها ونتف شعرَ رأسه ولحيته[1].

و كانت أكبرُ اهانةٍ توجه إلى الانسان عندما يعاقب بحلقِ نصف لحيته، كما فعل ملك العمّونيين بعبيد داود. فأنه أهانهم إهانة كبيرة عندما حلق أنصاف لحاهم[2].

و تُعتَبرُ إهانة اللّحية عند الساميين بشكل عام من اعظم الأهانات التي لاتُغتَفَر اما تقبيلها فهو من علامات التقدير والاحترام والأِجلال.

و كان الساميون (لحيانيين) اي من ذوي اللحى ومنهم الآشوريون والبابليون الذين كانوا يقصّرون لحاهم في حين كانت لحى الموظفين طويلة ومقصوصة بشكل مربّع. بينما كان السومريون حليقي اللحى وهم ليسوا من الساميين[3].

و كان المصريون القدماء يحلقون رؤوسهم ووجوههم غير انهم كانوا يلبسون لحىً اصطناعية مستعارة، اما في وقت الحداد فكانوا يطلقون لحاهم وشعورهم. ولكنهم عندما يمثلون امام الفرعون كانوا يغتسلون

---

١. عزرا/ ٩/ ٣.

٢. صموئيل ٢/ ١٠/ ٥،٤.

٣. الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور/ المصدر السابق/ ١٢٤.

ويحلقون كما فعل يوسف عندما أرسل عليه الفرعون وهو في السجن ليحلَّ له لُغزَ حلمه فانه حلق وابدل ثيابه ودخل على فرعون[1].

و كانت اللّحى الاصطناعية معروفة عند السومرين حيث تشيرُ قصيدة سومرية على لسان الالاهة (إنانا) ان حبيبها (دموزي) كان يلبس لحيةً اصطناعية من حجر اللاّزورد وان هذه اللّحية بالذات هي التي جذبتها اليه اكثر من ايٍّ شيء آخر. تقول:

"التي صنعت من أجلي
لحيته حجرُ اللازورد
الثور البريّ الذي خلقَهُ (آن) من أجلي وفقاً للناموس
لحيته حجر اللازورد
الملك لحيته حجر اللازورد"[2].

و اللحية عند العرب رمزُ الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره لذلك كانت تقبَّل اكراماً لصاحبها.

و يقُسم باللحية ويعدُّ القسم بها من الايمان المغلظة، يمسك بها الحالف بيده اليمنى فيحلفُ بها انه لا يكذب أو إنه سيفعل أو ما شابه ذلك. ولايزال الحلف بها جارياً إلى اليوم بقول الحالف: وحقِ لحيتي هذه. ويمسك بها بيده.

و إذا مدّ غريبٌ بيده نحو لحية رجلٍ كبير المنْزلة واحتمى بها أو استجار بها وجب على صاحبها حمايته والاهتمام بأمره ومساعدته.

و قد يمسك الغريبُ او المحتاج او المطارَد بلحيةِ سيد قبيلة أو شريف قوم ويبين له أنه في حماه ومنعته فيتوجب على السيد او الشريف حمايته. وإذا

---

١. تكوين/ ٤١/ ١٤.

٢. طقوس الجنس المقدس عند السومريين/ كريمر/ ١١٠.

امسك المتخاصمان بلحيتي بعضهما اثناء المصالحة دلَّ ذلك على توثيق المصالحة.

و نسب عادة إكرام اللحى إلى سيدنا ابراهيم[1]. وتكريمها يتم باصلاحها وتمشيطها حتى لا تكون متناثرة بشعة المنظر. فروي ان النبي محمداً نظر إلى رجلٍ طويل اللحية فقال: ما كان على هذا لو هيَّأ لحيته. فبلغ الرجل ذلك فهيأ لحيته بين اللَّحْيَيْن (اي اخذ من جانبيها) ثم دخل على النبي فلما رآه قال: هكذا فافعلوا. وقال (ص): إن المجوس جزّوا لحاهم ووفّروا شواربهم واما نحن فنجزُّ الشارب ونعفي اللحى وهي الفطرة. وهناك احاديث نبوية كثيرة في تكريم اللحية لا مجال لذكرها هاهنا[2].

القبلة تعبيراً عن المحبة العائلية

وهي على ثلاثة انواع حسب توصيف (قاموس الكتاب المقدس)[3]

١- تقبيل الأكبر للأصغر ويحدث هذا غالباً عند اللقاء أو الفراق حيث يقوم الكبير بتقبيل الصغير كالأب لابنه أو ابنته أو لاحفاده كما فعل (لابان) الآرامي عندما بكَّر صباحاً وقبّل بنيه وبناته ومضى.

ويندرج في هذا النوع تقبيل الحماة لكنّتها أو الخال لابن اخته او العم لابن اخيه وما شابه.

٢- قبلة الاصغر للأكبر بطَلَبٍ من الاكبر عادةً. كما طلب اسحاق من ابنه أن يأتي ويقبله. ومن هذا النوع قبلة (عَرفه) لحماتها عندما أرادت ان تفارقها.

---

١. تللتفصيل انظر/المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام/ د. جواد علي/ ٤/ ٩٠٦ وقاموس الكتاب المقدس/ المصدر السابق/ ٨١٣.

٢. تذكرة الفقهاء/ العلامة الحلي/ ٢/ ٢٥٣.

٣. ج ٢ ص ٢٠٢.

٣- قبلة المتساوين بين الأقارب مثل الأخ لأخته أو اخيه أو الاخت للأخت أو أولاد العمومة والخؤولة.

و هناك قُبَل اخرى ذكرتها التوراة ويظهر ان لها سُنَّةً خاصة كقبلة يوسف عندما وقع على وجه ابيه الميت وقبّله. وقبلة اصحاب المقامات العالية لمن دونهم كتقبيل (ابشالوم) لأبناء الشعب حيث ظهر منه تواضع ولطف أكسبَهُ قلوب الناس ومن هذا النوع قبلة داود لبرزلاي الجلعادي.

و جاء ذكر قبلة الصداقة بين المتساوين على مبدأ الصداقة أو التعارف. مثل قبلة يوناثان وداود. ثم قبلة بهدف الاحترام كتقبيل المرأة لقدم يسوع في بيت سمعان الفَرّيسي. وقبلة الوداع وقبلة السجود.

و قد ذكر ان الناس كانوا في ذلك الزمان يُجبَرون على تعظيم الملوك واحترامهم بالسجود لهم ولَحسِ تراب اقدامهم.

قبلةُ العشاق وقبلةُ الزواني

تنفرد التوراة بذكر هذين النوعين من القبل بينما لا نلقى ذكراً لهما في الأنجيل. ففي سِفر (نشيد الاناشيد) المثير للجدل نقرأ قصةً شعريةً تدور حول عاشقين مُتيّمين اجتمعا على الاخلاص والوفاء لبعضهما فاستخدما القبلةَ تمتيناً لحبهما، حيث نجد السِفر يُفتَتَحُ بنداء من العاشقة تقول فيه:

"دَعوه يلثمني بقبلِ ثغره
لأن حبّك اشهى من الراح"

وسوف نتطرق إلى توصيف هذه القبلة بالتفصيل في الباب التالي.

أما (قبلة الزواني) فقد وردت في (سِفر الأمثال) وهو عبارة عن مواعظ ابٍ لابنه شبيهة بمواعظ لقمان الحكيم لابنه. والواعظ هو النبي الحكيم (سليمان) حسبما يعتقد. ومن جملة مواعظه تحذير ولده من (المرأة

الشريـرة) ومـن لسان الـعـاهـرة المعسول ذات الـبـعـل. . لأنـه بسبب المرأة الـعـاهـرة يـفـتـقـر الانسان إلـى رغيف الخبز. والزانيـة المتزوجـة تقـتـنص بـأشراكـهـا الـنـفسَ الـكـريمـة[١]. ومـن هـذه الاشراك قُـبـلـتـهـا المليئـة بـالـغشِّ والخداع. يقول سليمان لابنه وهو يعظه:

"إني أشرفتُ من كُوَّةِ بيتي وأطلَـلتُ من خـلال نـافـذتي فشاهدت بينَ البنين الحمقى شابّاً مجرداً من الفـهم، يجـتـاز الطريق صوب المنعطف، باتـجـاه الشارع المفـضي إلى بيتها، عند الغَسَقِ في المساء .. فأمسكته وقبلتهُ وقالت له بوجهٍ وقح بحثتُ بشوقٍ عنكَ حتى وجدتك.

وقد فرشتُ سريـري بـأغـطيةٍ كَتانّيةٍ مُوشّـاةٍ من مـصر وعطّرتُ فِراشي بطيبِ المُرِّ والقرفة، فتعـال لترتويَ من الحبِّ حتى الصباح وتَتَلَذّذَ بمُتَعِ الغرام فـان زوجي ليس في البيت، لقد مضى في رحلةٍ بعيـدة . . . فأغـوتـهُ بكثرة افانين كلامـهـا، وَرَنَّحَتهُ بَتَمَلُّقِ شفتيها، فمضى على التَّوِ في أثَرهـا كـثورٍ مسوقٍ إلى الذبـح أو كأيَلٍ وقع في فَخٍّ . . والآن إصغوا الـيَّ أيـهـا الأبـنـاء وأرهِـفـوا آذانكم إلى اقوال فَمي: لا تجنحْ قلوبكم نـحو طرقـهـا ولا تَحُمْ في دروبـهـا، فما اكثر الذين طرحَتْهمُ مُثخنين بـالجـراح، وجميع صرعاهـا اقويـاء . . ان بيتها هو طريق الهاوية المؤدي إلى مخـادع الموت"[٢].

---

١. أمثال/ ٦/ ٢٤.

٢. م.ن. ٧/ ٦ وما بعدها

القبلةُ المقدَّسةُ عند المسيحيين الاوائل

و هي القبلة التي جاء التأكيدُ عليها في الرسائل الأنجيلية ووصفت بـ(القبلة الطاهرة) في رسائل بولس الرسول[1]. وسُميت بـ(قبلة المحبّة) في رسائل بطرس الاولى[2]. كما دُعِيَت بـ(القبلة المقدسة) لوجود هدف فيها وهو لمُّ شمل المسيحيين الاوائل الذي كانوا يتعرّضون للإضطهاد والتشتيت وربطهم مع بعضهم، فكأنها علامة استدلال يعرفُ بواسطتها المسيحيّ ان من يحييه بها هو مسيحيٌّ مثله فتطمئن نفسه اليه ويتواصل معه.

فقد جاء ان بولس الرسول أرسل سنة (٥٧ م) رسالة إلى جميع المسيحيين في (كورنثوس)[3] تتضمن تعاليم الديانة المسيحية وفي ختامها اوصاهم قائلاً: سلِّموا بعضكم على بعضٍ بقبلة طاهرة[4].

---

١. شهيد مسيحي.. في اول مرة اضطهد المسيحيين بعُنف ثم اهتدى سنة (٣٣)م واختلى في شمال جزيرة العرب مدة ثلاث سنوات باشر بعدها بتبشير الامم الوثنية في مدن اسيا الصغرى (تركية الحالية) واليونان (٥٠–٥٨)م. حُبس في القدس مرتين وسيق إلى روما حيث قطع رأسه سنة (٦٧)م. له ١٤ رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة او إلى بعض تلاميذه أهمها إلى غلاطية وافسس وكورنثوس وروما.

٢. بطرس.. القديس. شهيد مسيحي (نحو ١٠ ق.م. – ٦٧م) كان صياد سمك على بحيرة طبرية فدعاه المسيح وسمّاه (كيفا) اي الصخرة واقامه رئيساً للرسل. بَشرَّ في اورشليم والجليل ثم أقامَ في انطاكية وروما حيث صلب في عهد نيرون وقيل انه صُلبَ مقلوباً.

٣. عاصمة مقاطعة (إخائية) في بلاد اليونان. كان بها هيكل لعبادة إلاهة الحب (افروديت) فاشتهرت المدينة بالخلاعة وضرب بها المثل في الفخور. وكان هذا الفخور في حينها ضرباً من ضروب عبادتها. افروديت هي (إنانا) السومرية و (عشتار) البابلية.

٤. رسالته الاولى إلى مؤمني كورنثوس/ ١٦/ ٢٠.

و في سنة(٥٨ م) أرسل رسالة مشابهة إلى اهل تسالونيكي في مقدونيا أَكَّدَ عليهم قائلاً: "أيها الاخوة .. صلّوا لأجلنا. سلّموا على جميع الاخوة بقبلة طاهرة"[١].

و كان المؤمنون المسيحيون في عهد الرسول بطرس يتعرّضون للاضطهاد والتعذيب من قبل الوثنيين واليهود في مختلف البلاد فأرسل اليهم بطرس رسالة من مكان إقامته في (بابل) عَنونَها إلى المشتّتين المغتربين في بلاد بُنطس وغلاطية وكبدوكيه واسيا وبيثيّة، يَحُثُّهم بها على التكاتف وطلب منهم الاتحاد بـ(قبلة المحبّة). قال في آخرها: سبابل تسلِّم عليكم وكذلك ابني مرقس .. سلِّموا بعضكم على بعض بقبلة المحبة"[٢].

و بطرس هذا كان صَيّاد سمك اسمه (سِمعان). فلما تمسَّح اصطفاه المسيح وسماه (كيفا) وهي كلمة سريانية معناها الصخرة وقيل (صَفَا) وهي بنفس المعنى.

و لما كان هذا الرسول يقيم في بابل، فما من شكٍّ في إنّه تأثّر بتقاليد أهل بابل الذين كانوا يتبادلون التحيات فيما بينهم بالتقبيل كرمزٍ للتعارف والتآخي – كما أسلفنا – فاتخذ من تلك الأُصولية سبباً لجمع شَعْثِ المسيحيين في البلدان المذكورة.

أما كيف كانت تلك القبلة تؤدى فلم يأتِ شيءٌ في الرسائل عن أمرها. ولكننا نستطيع ان نزعم انها كانت تطبع بين العينين وذلك استدلالاً من خبر اسلامي ورد في كتاب (القُبَل والمصافحة والمعانقة) لأحمد بن زياد الاعرابي (٨٦٠ – ٩٥٢ م) ذكر فيه ان جعفر بن ابي طالب لما قدم من أرض الحبشة تلقّاه رسول الله (ص) فقبَّلَ ما بين عينيه. فخجِلَ جعفرٌ فقال له النبي : ما هذا؟ فقال له: ان النجاشيَّ اذا كرّم أحداً من أهل مملكته فعل هذا.

---

١. تسالوينكي الاولى/ ٥/ ٢٥.

٢. بطرس الاولى/ ٥/ ١٣/ ١٤.

و لما كان النجاشيّ رئيساً للكنيسة الحبشية فليس من المستبعد انه كان ينطلق في أدائه لتلك الشعيرة اعتماداً على التعاليم المأثورة الواصلة اليه من الرسل القدماء الذين ذكرناهم.

تدنيسُ القُبلةِ المقدّسة

و قد شاعت قُبلةُ الأخوّة المقدسة بعد ذلك بين المسيحيين واتخذتها بعض المنظمات الرهبانية وسيلة من وسائل الارتباط الروحي بين الاعضاء ومن اشهر المنظمات التي استخدمتها منظمة فرسان الهيكل (The Templars) التي تأسست سنة (١١١٩ م) من قبل الصليبي الفرنسي (هيوغ باين Huques de Payns).

و رغم السمعة التي تمتّع بها اولئك الفرسان من حيث النّزاهة والصدق والشهامة، فإن كثيراً من الشكوك حامت حول سلوكيّاتهم التي اتخذت طابعاً تنظيمياً وسرياً. ففي سنة (١٢٠٧م) اتهم البابا فرسان الهيكل بالارتداد عن عبادة الله والايمان بمعتقدات عبادة الشيطان[١]. وقد كُشِف عن تلك الأسرار في زمن رئيس فرسان الهيكل (جاك دومولاي) وذلك عندما قام الملك فيليب بإدخال جواسيسه بين الفرسان فقدموا للملك تقارير جاء فيها:

"وفقاً لتقارير الاشخاص الموثقين علمنا ان اخوة التنظيم

---

١. عبادة الشيطان (Satanism) ديانة متقاطعة مع الديانات السماوية الثلاث تقوم على اساس عبادة نقيض إله الخير وهو الشيطان وإهانة الإلاه المعبود الذي نصّت عليه تلك الديانات. وتتمثل بتدنيس الكتاب المقدس وإحراق الصليب والسخرية من القداس الكاثوليكي بإقامة نقيضه (القداس الاسود). وهذه الديانة لا علاقة لها بديانات الثنويين الذين يعبدون إلاهي الخير والشر كالديانة المجوسية واليزيدية وغيرها بل تكاد تكون قريبة من طقوس السحرة الوثنيين الذين يسخّرون القوى الشيطانية من أجل غايات لا إنسانية.

العسكري لفرسان الهيكل المقنَّعين بثياب الغنم هم ذئـاب
راحوا يهينون الدين الذي نؤمن به وعملوا على صلبِ
سيدنا المسيح مرةً اخرى في أزمـاننا وهو الـذي صُلب
ليخلّص البشرية فأمعنوا فيه الأذى اكثر من الأذى الـذي
لحق به يوم صُلِبَ حَقّاً .
وعندما يدخل أحدهم في هذا التنظيم العسكري يشرعُ
بقسم الولاء أمام صورة السيد المسيح ثم يعملُ بكلٍّ عمىً
وأسى على نفي ألوهية المسيح ثلاث مرات وبكلٍّ قسوةٍ
رهيبةٍ يبصقون في وجهه ثلاث مرات .
وبعد نزع الثياب المدنية عن ذلك العضو الجديد يأخذونه
عارياً في حضور واحد منهم تكون مهمته استقبال الأعضاء
الجدد في التنظيم ويقبلهم أولاً في قاعدة عمودهم الفقري
وثانياً في سُرَّتهم وأخيراً في فمهم .
وبعد إهانة القانون الألاهي بأفعال كريهة وشائنة يجبرون
أنفسهم على القسم والعهد دون خوف من خرق القانون
الانساني ويسلمون انفسهم لبعضهم البعض دون أي
رفض وبذلك يطلب منهم ذلك الشخص الدخول إلى
غرفة رهيبة ولذلك السبب وقع غضب الله على
أولئك الخونة غير المخلصين".

و بعد هذا التقرير اتهم فرسان الهيكل بمضاجعة الذكور ونظر إلى طقوسية تقبيلهم قاعدة العمود الفقري للعضو كدليل على هذه الرغبة الشائنة الشاذة. فقام الملك فيليب بالقاء القبض عليهم وأخضعهم لعمليات تعذيب فظيعة انتزع منهم اعترافات بذلك. ولكن بعض المؤرخين دافعوا

عنهم بقولهم: ان تقبيل فم العضو الجديد وتنظيم فرسان الهيكل كانت عبارة عن قبلة سلام وهي من التحايا الشائعة في العصور الوسطى.

إلا ان المقولة المتعلقة بتقبيل قاعدة العمود الفقري للعضو الجديد في فرسان الهيكل قد شاعت في تنظيم مسيحي آخر هو تنظيم الأسبتاريين أو الهوسبتالرز (Hospitallers) وهو منظمة عسكرية انشئت في بيت المقدس في القرنِ الثاني عشر للميلاد[1].

و هكذا مسخت قبلة المحبّة والأخوّة التي نادى بها رسل السيد المسيح واصبحت طريقاً للفجور واللواط.

القبلة في ليلة عيد رأس السنة المسيحية

لقد اتسع مؤدى القبلة عند المسيحين فيما بعد وصار رمزاً لإيقاظ الالاه من موته وبعثه إلى الحياة مرةً ثانية. ففي احتفالات عيد رأس السنة المسيحية التي تقع في مطلع الربيع، فصل عودة الحياة إلى الأرض، يُعَبَّرْ عن عودة الألاه (المسيح) إلى الحياة عن طريق ممارسة التقبيل بصورة حرّة بين المحتفلين من الاناث والذكور حيث تطفأ الانوار اثناء الاحتفال ويعمُّ الظلام المكان وهو اشارة إلى موت الالاه. ففي هذه اللحظات تختلس القبل بين المحتفلين ليعود الالاه إلى الحياة ويعبَّرْ عن ذلك بإشعال الانوار.

و لذلك تُعتَبرُ القبلةَ في هذه المناسبة فرضاً لزومياً لابد من إحداثه لإتمام عملية بعث الالاه ويعتبر الممتنع عن التقبيل مُذنباً يستحق العقوبة السماوية لأنه يتسبَّبُ بإبقاء الالاه ميتاً وبذلك تتوقف دورة الحياة على الارض. يقول الشاعر (أرنو دانييل) احد شعراء البروفانس الجوالين:

---

١. تاريخ التعذيب/ براين إينز/ ٥٨ وما بعدها.

"اني احبها وابحثُ عنها بقلبٍ كبير
لا اطمع في امبراطورية روما او أن أُسمى فيها (البابا)
إذا لم أعد اليها هي التي يتحرّق قلبي اليها وينفطر
ولكنها إن لم تشف ما بي من عذاب
بقبلةٍ في (عيد رأس السنة)
دمّرتني وذهبت هي إلى النار"[1].

لقد اصبح المسيحُ عند المسيحيين رمزاً للإلاه الذي يموت ثم يعود إلى الحياة مرةً ثانية. وقصته مشابهة لقصص آلهة الخصب الكبار مثل (تموز) الذي يموت في الشتاء ويعود في مطلع الربيع بعد إقامة مراسيم تزويجه التي تبدأ بتبادل القبل مع الكاهنة العظمى التي تمثل الارض.

أما فكرة (ايقاظ الإلاه بالقبلة) فقد امتدت إلى كثير من الاحتفاليات الشعبية المسيحية. فمن العادات الروسية التي لا تزال تُراعى إلى الآن في إقليم (نيرشتا Nerechte) في يوم الخميس الذي يسبق (أحّد العنصره) – وهو أحد اعياد الحصاد التي حفظتها الكنيسة ضمن اعيادها – في هذا اليوم تخرج الفتيات إلى احدى أَجمات التامول فيلففُنَ حول احدى الاشجار الضخمة نِطاقاً أو شريطاً ويقمن بتضفير الفروع السفلى لتلك الشجرة على هيأة جديلة مستديرة ثم تأخذ كل اثنتين من الفتيات بتبادل القبلات من خلال الجديلة وبذلك تصبح كل منهن (خِدناً) (زوجاً) للفتاة التي تبادلت معها القبلات. ثم تخطو احدى الفتيات بعد ذلك للامام وتسير مثلما يسير الرجل السكران بحيث تقلّد حركاته تماماً ثم تلقي بنفسها على الارض وتتمرغُ على العشب بعض الوقت ثم تتظاهر بأنها راحت في سباتٍ عميق (وهو حسبما يظهر بانها تقوم بدور الالاه الذي يموت) وبعد ذلك تَتَقدّم

---

١. الحبُّ و الغرب/ ديني دي رجمون/ ت. د. عمر شخاشيرو/ ١١٣.

نحوها فتاة اخرى فتقبلها. وفي بعض الاحيان يقوم بدور الفتاة النائمة احد الفتيان[1]، وفي هذه الحالة تكون الطقوسية اقرب إلى واقع الحال، فالفتى النائم لاشكّ انه يمثٍّل المسيح (الإلاه الميت) حيث تقوم الفتاة بتقبيله فيعود إلى الحياة مرة ثانية.

و يمكن ان تُفسِّرَ هذه الطقوسية تلك الفكرة التي طرحها آباء الكنيسة المسيحية الذين قالوا ان قُبْل (نشيد الاناشيد) تمثل رمزاً لشوق الكنيسة ان تلثم شفاه المسيح، والواضح من هذه الطقوسية ان الفتاة قد تكون بمثابة الكنيسة والفتى النائم هو المسيح فعندما تقوم (الفتاة) (الكنيسة) بتقبيله تعيد قيامته من بعد موته.

---

١. الغصن الذهبي/ فريزر/ ١/ ٤٥٤ الترجمة العربية.

الباب الثالث

القبلة في نشيد الاناشيد

- التعريف بالنشيد
- قبلة النشيد قبلة حبيبين
- قبلة النشيد قبلة عروسين
- من هو العريس؟
- التفسير الرمزي لقبلة النشيد
- المدلول الاجتماعي لقبلة العروسين

التعريف بالنشيد

نشيد الأنشاد أو نشيد الاناشيد (The Sing of Songs) أو (شيرها شيريم لي شلومو) بالعبرية ويعني حرفياً (نشيد الاناشيد لسليمان) هو احد الاسفار الشعرية الخمسة التي يضمُّها العهد القديم (التوراة) وهي: ايوب والمزامير والأمثال والجامعة والخامس (نشيد الاناشيد) الذي هو عبارة عن قصيدة غزلية مطوّلة تقوم على اساس السرد الحِواري بين عاشقين فتحا نفسيهما للحب فتدفقت احاسيسهما عبر الابيات الشعرية الجميلة بحريّة مطلقة غير عابئة بالألتزام بأصول الحشمة الواجب التزامها في كتاب ديني.

و لذلك قيل ان القصيدة مخلّةٌ بالآداب لما جاء فيها من اوصاف دقيقة للمواضع المحرّمة من جسد المحبوبة وبعض المواقف الشبقية التي تفصح عن وقوع الممارسة الجنسية اثناء خلوة الحبيبين. ولهذا السبب فقد النصُّ صفة القداسة عند البعض فصار النشيد – كما اكد بعض الكتاب – يقرأُ في الخمّارات وكأنه اغنية خمرية. اسمع مثلاً (بنات اورشليم) ينادين في النشيد:

"كلوا ايها الخلاّن

اشربوا حتى الانتشاء ايها المحبون".

و لكن علماء التوراة نظروا اليه نظرة تقديسية بالغةَ التطرّف فقال عنه (رابي عقيبة) في القرن الاول: "إن سائر الكتب كلها مقدسة اما النشيد فهو قدس الاقداس[1].

تسبق النشيد مقدمة تعريفيّة تقول: ناظم هذه القصيدة المطولة الرائعة بوحيٍ من الله هو سليمان بن داود ويعود تاريخها إلى القرن العاشر قبل

---

١. نشيد الاناشيد/ آن ماري بلتيبه/ ٨.

الميلاد.

و لكن قارئ القصيدة لا يرى فيها ما يؤكد صدورها عن سليمان بن داود عدا ورود اسمٍ مجرّدٍ من النسبة هو (شلومو) (سليمان) وموصوفاً بلفظة الملك، قد يكون ايَّ ملك او اي شخص اسمه سليمان لقب بالملك تكريماً له. اما (الله) فلم يأت النشيد على ذكره وهكذا يستبعد ان يكون النشيد صادراً بوحيٍ من الله.

و على كل حال فان النشيد سُجّل باسم الملك سليمان بن داود وبذلك ارتفع إلى مرتبة القداسة التي تبوِّؤهُ الدخول إلى اسفار التوراة دون اعتراض حيث ان كلُّ ما يقوله النبيُّ يعتبر وحيّاً من الله. وعلى اساس هذا المبدأ قدّسه المسيحيون كذلك إذ رأوا فيه رموزاً تشير إلى مَحبَّةِ المسيح للكنيسة وهو ما يتفق مع تعاليم (العهد الجديد) (الانجيل) بأن الله محبّة[1].

هذا بالنسبة إلى اللاهوتيين اما بالنسبة إلى النقاد الأَدبيّين والفلوكلوريين فان النشيد لا يعدو عن كونه قصيدةً غرامية مكشوفة تعبّرُ عن شوق العشاق للإنطلاق بحرية وممارسة الحب امام الملأ دون خشية من عقاب التقاليد والاعراف و الاديان. اسمع الفتاة – ولنسمِّها (سلمى)[2] – وهي تطلق صوتها في مفتتح النشيد تنادي الناس (او اشخاصاً معينين) قائلة:

دعوه يلثمني بقبلات ثغره[3]

ثم تتوقف قليلاً ريما لتسترد انفاسها من بعد التقبيل لتوجه الكلام هذه المره إلى حبيبها فتقول:

---

١. كتاب الحياة.. ترجمة تفسيرية/ ط. اولى/ لبنان/ ١٩٨٨ ص ٨١١.

٢. اعتماداً على اسمها في النشيد (شولميت) وهو مؤنث (شلومو) سليمان.

٣. في بعض الترجمات (ليلثمني بقبلات فمه) أو (ليقبلني بقبلات فمه) وفي الترجمة الانكليزية (دعوه يقبلني بقبلات فمه).

لأن حُبّك الذُّ من الخمر

مُبهِجٌ شذى عطورك

اسمكَ كالطِّيب المسكوب

فلا عجب إذْ عشِقتك العذارى".

ثم تمضي طالبةً منه ان يجذبَها خلفه:

اجذبني وراءك فنجري"

و يبدو إنه جذبها اليه وجرت خلفه فأدخلها غرفة من غرف بيته أعدت لهذه المناسبة.. تقول:

"أدخلني (الملك) إلى مخادعه

نبتهج بك وتفرح ونَطري حبَّك اكثر من الخمر

والذين أحبّوك محقّون".

و هكذا دخلت بيت (الملك) الذي قد يكون حبيبها أو قد يكون عريسها كما سنرى.

قبلة النشيد قبلة حبيبين

حسب ظاهر النصّ الذي تقدم إنها قبلةُ حبيبين. وهي قبلةٌ محرّمة منذ ان وضعت المحرّمات والزواجر الاجتماعية والنواهي الدينية فهي ابنة الخطيئة في نظر الاخلاقيين والوعاظ الدينيين. والباب الذي يفتح نار الشبق، ونسبت إلى الشيطان الذي يثلث الحبيبين إذا اختليا فيغريهما بها، فيقتطفانها، فاذا فعلا سقطا في شرك العقوبات الدنيوية التي تحدّدها الاعراف الوضعية. بالأضافة إلى العقوبات السماوية. ولكنها رغم ذلك مُشتهاة مُبتغاة حتى لو كان ثمنها الموت أو الخلود في الجحيم.

و نتيجةً لتلك الزواجر صارت تمارسُ في الخفاء والستر. فاذا عزّ الدخول

في حجاب الخفاء والستر راحت تُطَلبُ في الاماني والاحلام. ولهذا تمنَّت (سلمى) بطلة النشيد ان يكون حبيبها اخاها. حتى اذا التقته في الطريق والتقاها قبّلته بحرية وامام الناس دون ان يُخزِيها احد. قالت تخاطبه بحرقة الصادي ينشد الارتواء:

"ليتك كنتَ لي كأَخٍ راضعٍ من ثديَي أُمي
حتى اذا التقيتك في الطريق
قمتُ بتقبيلك
ولا أجد من يزدريني على ذلك
وسأقودك وادخلك بيت امي
التي هي علّمتني الحبّ
وسوف اسقيك الخمرة المُطَيَّبة
لتسكرَ من رحيق رماني"[1].

و الرمان تقصد به شفتيها وربما نهديها ولطالما شبهت النهود بتكوّر الرمان.

و يبدو من خلال النصّ كذلك ان العاشقة كانت تحت مراقبة اهلها لئلا تجتمع بحبيبها اجتماع حرام.

وكان حبيبها يطاردها وكانت هي تخشى ان تلاقيه، فلاذت ببيتها وتناومت أو نامت، ولكن أنّى لها ان تنام وقلبها أرِقٌ ينتظر قدوم الحبيب. تقول:

"قد غفوتُ. ولكنّ قلبي ظلَّ ارقاً
آه . . أنصتوا . . ها هو صوت حبيبي طارقاً:
"افتحي لي يا أُختي" يا حبيتي يا حمامتي

---

١. نش ٨/ ١ ، ٢.

يا واحدتي التي ليس لها نظير
رأسي قد ابتلَّ بالطلِّ
وخصائلي من ندى الليل".

فتجاوبه:

قد خلعتُ ثوبي، فهل ارتديه ثانيةً؟
غسلَتُ قدميَّ فكيف أُتربهما مرة اخرى"[1].

و يبدو ان الحبيب أراد ان يفتح الباب عُنوة، فمدّ يده إلى المزلاج فلم يستطع فتحه لأنه كان موصداً من الداخل، فيئس ورحل. وعند ذلك فارقتها روحها لرحيله فهرعت لتفتح الباب:

فتحتُ لحبيبي، لكنّ حبيبي رحل
قد توارى
ففارقتني روحي لرحيله"[2]

و هنا لا تملك الحبيبة نفسها عن الخروج للبحث عنه، غير عابئة بظلام الليل والعسَسَ الذين كانوا يرقبونها ويتربصون للإيقاع بها وامساكها مسك اليد بجريمة انتهاك المحرّمات. تقول:

فتشتُ عنه فلم اجده .. ناديته فلم يجب
وجدني العسَسَ الطائفون في المدينة
ضربوني ، جَرَّحوني
حرّاسُ الاسوار نزعوا إزاري عني
استحلفكن يا بنات اورشليم

---

١. نش ٥/٢ ، ٣.
٢. نش ٢/٦

إن وجدتنَّ حـبـيـبي مـاذا سَتقُـلنَ لـه؟

قلـن لـه: انني مـريضـة حـبـاً"[1]

و هكذا ترى ان الحبَّ وهو يجري على هذه الوتيرة هو حبٌّ عاشقين محرّم ومـقـمـوع وذلك مـن وجـود عـنـاصر الردع والـترهـيب المتـمـثـلـة بـالـعسَسَ وحراس الاسوار ولو كان حبّ عروسين شرعيين لما احتيج إلى ذلك. ولهذا السبب نقول ان تلك القبلة هي قبلة حبيبين محرمة.

قبلـةُ النشيد قبلـةُ عروسين

مِن وجهٍ آخر يحتمل النصَّ ان تكون القبلة فيه (قبلة عروسين). وهي قبلة غير محرّمة وتباح في العلَن أمام الناس كما يحدثُ عندنا هذه الايام في احتفاليات الأعراس. ندركُ ذلك من خلال قراءة مطلع النشيد عندما تُطلِق الفتاة نداءً جريئاً تقول فيه:

دعوه يلثمني بقبلات ثغره".

و الجرأة في هذا الموقف ليست معهودة بالفتاة الخادرة إلا اذا كانت مهيّأة للزواج وحينها يجوز لها ان تقول ذلك أو ان تقول:

ليلثمني بقبَل فمه"

و يبدو ان النداء هذا موجَّهٌ إلى فتيات من المدينة كن صويحباتها سمتـهنَّ بـاسم (فتـيـات اورشليم)، يمكن ان يقـال انـهنَّ يُمثلنّ وصيفات الشرف في العرس حيث تناديهن قائلة:

اخرجن يا بنات اورشليم

وانظرن الملك (سليمان)

بالتاج الذي توَّجته به أُمُّه

---

١. نش ٥/ ٧ وما بعدها.

في يوم عرسه وفي يوم فرحِ قلبه"[1].

و تشير مقاطع اخرى ان هذه الفتاة كانت مرسومة للزواج ممن اطلق عليه اسم (الملك سليمان):

الملك سليمان

صنع لنفسه تختاً من خَشَب لبنان

صَنَعَ اعمدتَهُ من فضَّةٍ ومتَّكأَه ذهباً

ومقعده ارجواناً

وداخله مرصَّع بالأبنوس"[2].

و هذا التخت هو ما نطلق عليه اليوم اسم (سرير النوم) حيث يهتمُّ العريس به ويوصي أن يكون من فاخر الخشب كخشب الجوز او البلوط او الابنوس ويرصع بالزخارف ويزركش فرشه بالالوان الزاهية والمذهبة.

و يصف مقطع آخر حاشية الملك (العريس) الذين يخدمونه ويحرسونه وكانت العادة ان يحملوا السلاح وكأنهم في حرب. ولا تزال هذه العادة متبعة في كثير من الاعراس حيث يتقلّد اصدقاء العريس السيوف أو الخناجر أو البنادق أو المسدسات وبعضهم يقوم باطلاق النار أو يُرقّص سيفه كأنما يقاتل به اشخاصاً غير منظورين. فتقول بطلة النشيد:

هو ذا سريرُ سليمان حوله ستون بطلاً من ابطال اسرائيل

قابضون على السيوف مدّربون على الحرب

كلٌّ منهم سيفه على فخذه

بسبب اهوال الليل"[3].

---

١. نش/ ٣/ ١١.

٢. نش/ ٣/ ٩.

٣. نش/ ٣/ ٧.

كما يظهر لنا من بعض ابيات النشيد ان الفتاة كانت مُتَنقِّبة:

جميلةٌ انت وعيناكِ حمامتان من وراء نقابك"[1].

و لايوضع النقاب على الفتاة لو كانت معشوقة إلا في حالة تهيئتها لدخول مخدع العرس فيطرح على وجهها الحجاب. وهذا التقليد لا يزال سارياً عندنا ويرمز إلى عذرية الفتاة.

و عندما نمضي في القراءة نجد هذا البيت:

ادخلني الملك إلى مخادعه"

وبترجمة اخرى هي اقرب إلى واقع الامر:

ادخلني الملك إلى حجاله"

و الحجال: جمع حَجَلّة وهي بيت يُزَيَّنُ للعروس أو سِترٌ يضربُ لها في جوف البيت لتمارس فيه دخلتها مع زوجها.

ثم تقول المحبوبة (العروس):

بينما (الملك) مستلق على اريكته

فاح ناردينى بأريجه"[2].

اي اختلطت عطورنا مع بعضها كأشارة إلى حدوث المقارنة الزواجية ومن خلال هذا يتأكد لنا أن قبلة النشيد هي قبلة عروسين.

من هو العريس؟

لقد رَسَخَ في اعتقاد شارحي التوراة ان العريس المذكور في النشيد هو

---

١. نش/ ٤/ ١.

٢. الناردين: عطرٌ سيخرج من نبات الناردين ينبت في الهند وقد تطيبت به عروس النشيد (سلمى) وسكبته على رأس السيد المسيح. وهو غالي الثمن (من جورج بوست في الكتاب المقدس).

الملك (النبيُّ) سليمان وهذه العروس شولميت أو (سلمى) هي عروسه تزوّج بها بعد معاناة غرامية عنيفة وملاحقةٍ مجهدة وادخلت عليه اخيراً وهو في حجلته فتعانقا للمباضعة واختلطت اطيابهما مع بعضها. وقد انبجسَت قريحة الملك بهذا النشيد الموحى به من الله على لسانه فصار دستوراً للحبِّ المقدس الذي يكرّس وفق تعاليم الله.

إلا أن الدراسات الفلوكلورية والميثولوجية ومنها دراسة العالم الاثنولوجي (ج.ج. فتشتاين) اثبتت خطل ذلك المعتقد حيث أن اسم (سليمان) مقحمٌ على النصّ فحالما يحذف يصبح النشيد عبارة عن مقاطع غنائية مُشتَّتة تشير إلى كونه توليفاً من أغاني الاعراس الشعبية التي كانت تغنى من قبل بعض الشعوب المعاصرة لبني اسرائيل أو المجاورة لهم كشعب فلسطين فأنهم كانوا يطلقون على العريس اسم (الملك) وعلى عروسه اسم (الملكه). ولا يزال هذا التقليد جارياً بين الفلاحين واهل القرى في سوريا وفلسطين ولبنان[1].

و يؤيد هذا الرأي ما نجده عند الصابئة المندائيين – وهم اصحاب ديانة عاصرت بني اسرائيل – فإنهم إلى اليوم يعاملون عريسهم كما لو كان ملكاً ويلزم أن يكون له صاحب عن يمين وصاحب عن يسار ويعرف الذي عن اليمين بـ(امير اليمين) ويعرف الذي على اليسار بـ(امير اليسار)[2].

و في مصر بمدينة (الفيّوم) يُرفع مستوى العريس التمجيدي إلى مرتبة (الملك) ولكنه ملك يملك ولا يحكم، فإن المجموعة المحيطة بالعريس وهم صحبه واقرباؤه ينتخبون (سلطاناً) من بين كبار الحاضرين، له منْزلة اجتماعية محترمة تجعله قادراً على إدارة الجلسة مسموع الكلمة.

و هذا السلطان يعتبر هو الحاكم الحقيقي، يتمتَّعُ بصلاحيات الحكم

---

١. طقوس الجنس المقدّس عند السومريين/ صموئيل نوح كريمر/ ١٢٩.

٢. الصابئة المندائيون/ دراور/ ١/ ١٢٦.

والتنفيذ معاً. ويبدأ السلطان ممارسة صلاحياته بتعيين اثنين من (الوزراء) ينضمّان إلى معيّة الملك، (العريس) يرافقانه دوماً ولا يتحرّكان بعيداً دون أذن السلطان. ثم يُعيّن السلطان رتباً اخرى تنفيذية مثل الضباط والعساكر والخفر.

و يعلن (السلطان) بعد استكمال اجراءات التعيين المشار اليها تمام خضوع الجلسة لسلطته بأن يصيح: (قُفِلَت الجلسة) فلا حديث ولا حركة إلا بأذنه وإلا خضع المخالف لحكم فوري ينفّذُ به في الحال وعادةً يكون الحكم في دائرة الغرامة التي وحدَتُها (المليون). والمليون هنا يعادل قرشاً صاغاً من النقد المصري ويجمع تلك الغرامات لتضاف إلى (خزينة دولة العريس). وتُصرف على لوازم اغراض الاحتفالية كاستجلاب السكّر والشاي والسجائر وغيرها[1].

و من الغريب أن هذا التقليد يكاد يجري بحذافيره في القرى اليهودية في كردستان العراق. ففي قرية (سَنَه) يأتي اليهود بعريسهم في الصباح الذي يتلو الدخلّه فيجلسونه على اريكة (متوّجاً كملك). و(الشو شبيم) الحراس يحيطونه والشرطة على جانبيه كذلك. فيذهب هؤلاء الشرطة إلى السوق واماكن التجمع الاخرى فيقبضون على بعض الناس ويعودون بهم فيضعونهم بين يدي العريس. وقد يكون من بين المقبوض عليهم نساء، فيفرض العريس على الجميع غرامة (جُور) ولا يستطيعون التملص من الدفع ويؤتى بالمال الذي يجمع فيشتري المحتفلون به طعاماً يأكله الجميع.

و في (اشنويه) وهي قرية يهودية اخرى يكون تشبُّهُ العريسِ بالملك اكثر وضوحاً وقرباً من تقاليد أهل الفَيّوم حيث يُعَيَّنُ أحد اكبر اقارب العريس

---

١. العريس ملكاً/ عبد الحميد حوّاس/ مجلة التراث الشعبي البغدادية/ العدد السادس/ ١٩٧٧ ص ٢٦.

احتراماً بمنصب (ديوا مبكي) ومعناه (حاكم الديوان) وإلى جانبيه يقف اثنان من الشرطة (أشكاسه) فيصدر الديوا مبكي أوامره: احضروا فلاناً وفلانا، ويُعدِّدُ أَسماءَ فيقوم الشرطة باحضارهم فيطرحونهم أرضاً امام الملك ويقومون بضربهم حتى يوافقوا على أعطاء ما يطلبونه منهم ويكون إما مالاً أو دجاجاً فتنطلق الحاشية بالغنيمة ومعهم العريس والعروس إلى (مزرعة كروم) فيرقصون فيها وينقضّون على الغنيمة.

و يرى (أريك براور)[1] أن هذه العادة متبعة لدى الكرد المسلمين أيضاً وربما اقتُبِست منهم. فعند الكرد يُنظر إلى العريس على انه ملك ويتصرَّف ثلاثة من رفاقه على أنهم ضبّاط تابعون له (جافشان).

و في (كرتَن) و (برواني زاواي) يكون الاعتقال والتسريح بأمر من العريس يصدر اوامره اليهم باعتقال فلان وفلان فيُعتقل الاشخاص المحدّدون ليمثلوا بين يدي الملك الذي يفرض عليهم إتاوة كأن يطلب شاةً أو دجاجاً أو ألف جوزة أو شيئاً مماثلاً فاذا رفض ذلك الفلان فانه يُربط ويُضرب حتى يوافق. وفي بعض الاحيان يؤخذ الناس من فراشهم للمثول امام العريس[2].

و في العودة إلى النشيد وبالذات إلى المقطع الخاص بحمل السيوف من قبل حاشية الملك سليمان، تجد أن هذه الجزئية مألوفة لدينا ولها ما يشبهها في أعراس بعض الشعوب ومنهم (شعب النوبة) الذي هو إثنيةٌ خُلاسيّة نتجت من اختلاط المصريين بالسودان فصارت السُمرةُ القاتمة المائلة إلى السواد سيماهم وسيما نسائهم الرائعات الجمال اللواتي يذكرننا بسمرة فتاة النشيد عندما تقول عن نفسها:

---

١. أريك براور: باحث إثنولوجي يهودي عني بدراسة المجتمعات اليهودية في العراق واليمن وله كتاب: يهود كردستان.

٢. يهود كردستان/ اريك براور/ ١٦٩.

سمراءُ انا ولكنني رائعة الجمال"[1]

هؤلاء يرفعون عريسهم إلى مرتبة (الملك) وعندما يزمع الدخول على عروسه يعيّنُ صبياً حارساً له، يحملُ سوطه ويتبعه دائماً ليعلن عن مقدم (الملك العريس) وفي نفس الوقت يرافقه وزيران. وللملك العريس بالاضافة إلى سوطه وخنجره ذي الفاعلية السحريّة سيفٌ يطرق به ثلاث طرقات شعائرية على باب العروسة قبل ان يفتح الباب[2].

و على هذا وحسب النماذج التي ذكرناها يمكن القول بأن العريس المذكور في النشيد على اعتبار أنه الملك سليمان هو شخصيّة شعبية جرى تزويجه فرفعته تقاليد الزواج إلى مرتبة الملوكية في ايام عرسه فقط ولا علاقة له بالملك (النبي) سليمان. وان القبلة كانت في ذلك الزمان مفتاحاً لعملية التزويج وجزءً من رسوم القرانات تعارف الناس عليها منذ القدم بمختلف أجناسهم. وسوف نرى انها تظهر بشكل واضح عند شعب وادي الرافدين في اعراسهم الملوكية والشعبية، الأمر الذي جعل بعض العلماء ينسبون النشيد إلى هذا المصدر واشهرهم عالم الآثاريات السومرية (صموئيل نوح كريمر)[3].

التفسير الرمزي لقبلة النشيد

و لقد فُسرت القبلة التي أسلفنا انها (قبلة عروسين) عدة تفسيرات منها رمزية حيث اعتبرها الربانيون اليهود انها علامةٌ تُشير إلى علاقة الاههم (يهوه) بـ(أُمَّةِ اسرائيل) التي هي كعلاقة الزوج والزوجة. فكما إن الزوج يقبّل زوجته كتوثيق لزواجه فكذلك الإله يقوم بتقبيل فتاة النشيد التي

---

١. نش/ ١/ ٥ وفي بعض الترجمات: سوداءُ أنا.

٢. العريس ملكاً/ المصدر السابق.

٣. كتابه (طقوس الجنس المقدس عند السومريين/ ١٢٥ وما بعدها).

ترمزُ إلى أمّة اسرائيل سعياً لارتباطه بها كزوجة. ومما يؤيد هذا التفسير ان العهد القديم (التوراة) يشير في مواقع شتى إلى ارتباط (يهوه) بشعبه ويصرّح بأنها كارتباط الرجل بإمرأته[1].

ثم فُسِّر النشيد بمجمله تفسيراً مجازياً باعتباره رسالةً اخلاقية صادرة من الآداب العبرانية لتعليم بركات الزواج الذي يُثَمِّره الحب الانساني المكرَّس من الله. وهو حبٌّ ممتع ومقدَّس طالما مارسه صاحباه بطاعة كاملة لوصيّة الله[2].

ثم عمدوا إلى ابيات الغزل المكشوف من النشيد واعطوها دلالات ذوات مفهوم رمزي فجاء بعضها كالآتي:

١- لذلك احبَّتك العذارى	اي الامم
٢- ادخلني الملك إلى حجاله أو مخادعه	الملك هو الاله (يهوه) والحجال : المعبد
٣- بنو أُمي غضبوا عليَّ	الكلدانيون في زمن نبوخذ نصر
٤- جعلوني ناطورة للكروم	اشارة إلى العبودية في السبي البابلي
٥- إن لم تعرفي ابنها الاجمل بين النساء	بمعنى اسرائيل هي الاجمل بين الامم وهي الامة المختارة
٦- ادخلني بيتَ خمره	اي فلسطين بيت خمرَ اليهود
٧- أمسكوا لنا الثعالب	هم جيران السوء من السامريين والعمونيين والعَرَب.
٨- اخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج	سليمان هو هاهنا الملك التاريخي والعرس هنا هو عرسٌ صوفي بين

١. قاموس الكتاب المقدس/ المصدر السابق/ ٢/ ٤٢٥.

٢. كتاب الحياة/ ترجمة تفسيرية/ ص ٨١٧/ ط. بيروت ١٩٨٨.

الذي توَّجته به أمُّهُ في يوم   الملك والأُمّة التي تتوّجه

عرسه

٩- واقودك وادخلك بيت   اي تعلمني توراة القدس

أمي التي تعلمني الحب[١].

و هكذا يستمر الربانيون اليهود في صياغة التفسيرات الرمزية، وإلواء معاني النشيد الحقيقية نحو صيَغ مجازية بعيدة عن الواقع.

أما أباء الكنيسة المسيحية فقالوا: إن (قُبل الشفاه) تمثّل رمزاً لشوق الكنيسة ان تلثم (شفاه المسيح) والعاشقان المذكوران في النشيد هما المسيح والكنيسة.. والاصدقاء المرافقون هم الملائكة في السماء والمؤمنون في الارض[٢].

وجاء في بعض التفسيرات الكهنوتية للمقطع:

ليقبلني بقبلات فمه

لأنّ حبّك الذّ من الخمر

اجذبني وراءك فنجري

أنه بعد أن تختمُ النفسُ القبلةَ المقدسة من فم كلمة الإله، تسأّلَه ان يجذبها إليه بقوة النعمة قائلةً: اجذبني وراءك ايها القائل، وأنا اذا ارتفعتُ عن الارض جذبتُ إليّ الجميع.

و قالوا عن الحبيب (الطافر على الجبال) هو يسوع المسيح مُتَخَطِّياً الملائكة. و(الشتاء) هو رمزٌ إلى آلام (المُخلِّص) و(الربيع) اشارة إلى ولادة الكنيسة. و(أوان نماء الكروم) إيماءً إلى الاضطهادات التي نَمَتْ بها

---

١. ديوان الاساطير/ ١/ ١٩٨/ ترجمة قاسم الشواف وتقديم أدونيس.

٢. طقس الزواج المقدس ونشيد الانشاد/ كريمر/ آفاق عربية/ العدد الثاني ١٩٧٩/ ص ٦٥.

الكنيسة من دماء الشهداء.

أما (الثعالب الصغار المُفسِدة للكروم) فهم اصحاب البِدع الذين يفسدون الكنيسة[1].

ثم قالوا عن الفتاة العاشقة التي تقوم تبحثُ عمن تحبُّهُ ثم تدخله إلى غرفة امها، بانه تمثيل للكنيسة تنهض وتنطلق مفتِّشةً عمن تُحبّه وهو المسيح وعندما تجده تستقِرُّ معه في قدس الكنيسة.

و من الواضح ان هذه التفسيرات تحريفية مُجهدة، مَسَخت جمال النصّ الاصلي وحوّلته من صورته العاطفية الواضحة إلى صورة تستبطن دلالات صوفية غائمة ومرتبكة.

المدلول الأجتماعي لقبلة العروسين

من المعروف ان التقبيل عندما يُباح جهراً بين العروسين المقترنين شرعاً يعتبر بمثابة اشهارٍ أو إعلانٍ لشرعّية الارتباط. وهذا امرٌ يكاد يكون متعارفاً عليه في المجتمعات القديمة والمعاصرة ويتم ذلك في احتفالٍ علني يسمى (احتفال عقد القِران).

و يعتبر علماء الانثروبولوجيا احتفاليات (القران) كطقوس تحوّل أو انتقال (Rite of Passage) وهي علامة على تحوّل الشخص من مرحلة ماضية إلى مرحلة جديدة أو انتقاله من وضع اجتماعي سالف إلى وضعٍ اجتماعي جديد، والتحولات هذه تكون عند الولادة والبلوغ والزواج والموت. وتقام لكل منها طقوس معينة. فللولادة طقوسها وكذلك للبلوغ والزواج والموت.

و من الملاحظ في هذه الطقوس انها تجري وفق مبدأ الاشهار أو الاعلان

---

١. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/ ١/ ١٩٨.

حيث يعلن عن الولادة وكذلك عن البلوغ والزواج والموت.

و لما كانت (العملية الزواجية) لا يمكن اشهارها امام الأعين فقد جرى التعبير عنها بما يدلُّ عليها وهو القبلة العلنية.

و توجب الشريعة الاسلامية (الأِعلان) عند انتقال الفرد من طور العزوبة إلى طور البناء الزوجي. وذلك كتوثيق عيني يثبته شهود يعوّض عن التوثيق الكتابي الذي لم يكن معروفاً ذلك الحين.

و طريقة الأِعلان تكون بالضَّرب على (الدُّفّ) الذي يصاحبه في العادة (غناء) ثم (الوليمة). وقد جاء انه (ص) قال: أعلنوا هذا النكاح واضربوا عليه بالدفّ. وضرب الدفّ إعلانٌ صائت يسمعه الناس فيحضرون ليشهدوا الموقف. وبذلك يكون النكاح مشهوداً امام الأعين.

و من هذا تميّزَ الدفُّ بتفريقهِ بين نِكاح الحلال ونكاح الحرام حيث نكاح الحرام لايمكن اشهاره وقد جاء في الحديث: "فَصلَ بين الحلال والحرام الدفُّ والصوت عند النكاح"[1].

و من الواضح ان الرسول (ص) اراد ان يصحب ضربَ الدُفِّ غناءٌ فأجازه في هذه الحالة لكونه يساعد في عملية الإعلان. وقد جاء إنه (ص) مَرَّ هو واصحابه ببني زريق فسمعوا غناءً ولعبا، فقال: ماهذا ؟ فقيل: نَكَحَ فلانٌ يارسول الله فقال: كَمُلَ دينه، هذا النكاح لا السِّفاح ولا نكاح مع السِّر حتى يُسمعَ صوتُ دُفٍّ أو يُرى دُخان[2].

و يقصد رسول الله بالدخان، دخان الوليمة. والوليمة ضرورة من ضرورات الأِعلان، واشهر الولائم في المأثورات العربية كانت ولائم الاعراس حيث يمكن خلالها جمع اكبر عدد من الشهود.

و لفظ (الوليمة) يقع اساساً على (وليمة العرس) فأن وقع على غيرها من

---

١. مسند احمد/ ٣/ ٤١٨.

٢. المدونة الكبرى/ الامام مالك/ ٢/ ١٩٤.

دعوة إملاك أو نِفاسٍ أو ختانٍ أو حالِ سرور فانه يُفسّر على المجاز.

و الوليمة معناها الأجتماع وهي مشتقة من (الولم) وهو (القيد) وانما سمي ولماً لأنه يضمُّ ويجمع ويه سُمّيت وليمة العرس لأن فيها اجتماع الزوجين.

قال العالم اللغوي ثَعلب: الوليمة طعامُ العرس. وهي عند قومٍ كالشافعيّة واجبة وأما سائر الولائم فمُستحبّة[1]. وقد اعتمد في ذلك على خبر حسّان بن ثابت عندما أراد أن يتزوّج فأمره رسول الله (ص) أن يولمَ بشاةٍ فصارت الوليمة بهذا واجبةً وواجب حضورها كذلك فمن لم يُجبها فقد عصى الله ورسوله، وهو المشهور عند مالك. ويقول الشوكاني انها واجبة كذلك عند الشافعي في أحد قوليه[2].

و كلُّ ذلك يَنصبُّ في بابِ وجوبِ إشهار عملية الزواج بشكل خاص. وقد ذكر أن رسولَ الله (ص) حين تَزوّج ميمونة بنت الحارث أولم وأطعم الناس (الحَيْس)[3]. وأَولم على زينب (شاة) وعلى صفيّة (التمر والأفط والسمن)[4] وعلى خديجة (بقرةً)[5].

و قد جاء في بعض النصوص الأخبارية أنه (ص) كان يريد من هذه الاحتفاليات المهرجانية العامّة محاجّةَ اليهود بأن ديانته غير خالية من الانفتاح ولا تحرّم ممارسة الافراح والأخذ بنصيبٍ من اللهو إذا كان لا يخرج عن الحدود (المُجون). فقد روي إنه مرّ بقومٍ من الزنج وهم يضربون بطبولهم ويغنّون، فلما رأوه سكتوا. فقال: خذوا يا بني أرفَدَةَ فيما كنتم فيه

---

١. المبسوط/ الشيخ الطوسي/ ٤/ ٣٢٢.

٢. نيل الأوطار ٥/ ٢٣١.

٣. الحَيْس: طعام مركب من التمر والسمن والسويق.

٤. المجموع/ النووي/ ١٦/ ٢٩٢.

٥. م. ن. / ٢٩٣.

ليعلم اليهود إن في ديننا فسحةً.[1]

و يتضح لنا من خلال هذا ان اليهود في زمان الرسول (ص) كانوا يفتنون الناس بالغناء في حفلات زواجهم فأراد الرسول ان ينافسهم فسمح بأن يقام للعريس المسلم حفلاً مشابهاً يُذكر فيه شيءٌ من الغناء يضاهي الغناء اليهودي الذي لا نعرفُ عنه شيئاً وانما نخمِّنُ ان يكون متضمناً مقاطع من نشيد الاناشيد.

و ذكر المؤرخون ان الأنصار جاءوا النبيَّ (ص) فسألوه قائلين: يارسول الله ماذا نقول اذا زففنا. فقال قولوا:

أتيناكم.. أتيناكم

فحيّونا نحييكم

فلولا الذهبة الحمراء

ما حلَّت فتاتنا بواديكم"[2]

و قد يتبادر إلى الذهن أن النبي (ص) هو الذي نظم هذا (الشعر) ولكن لما كان الرسول ما عرف عنه قول الشعر فيمكن أنه سمعه من محيطه فأجازه.

و في خبرٍ آخر ورد إنه عندما انكَحَت عائشةُ ذات قرابةٍ لها من الانصار حضر رسول الله (ص) فقال: أهديتم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: أرسلتم معها من يغنّي؟ قالت عائشة: لا. فقال: ان الانصار قومٌ فيهم غزل فلَو بعثتم معها من يقول:

اتيناكم اتيناكم

فحيّانا وحياكم"[3]

---

١. دعائم الاسلام/ القاضي النعماني/ ٢/ ٢٠٥.

٢. كتاب النوادر/ القطب الراوندي/ ١٩٠.

٣. رواه ابن ماجه/ نيل الاوطار/ المصدر السابق/ ٦/ ٣٣٦.

و على الرغم من ان الرسول (ص) لم يجعل لقبلة العروسين العلنية ذكراً في تقاليد الأشهار التي فرضها عند الأعراس فإنه أوجبها عند المقارنة حسبما جاء في حديث مرويٍّ عنه: لا تقعوا على نسائكم كالبهائم، اجعلوا بينكم وبينهن رسولاً هو القبلة.

و له (ص) احاديث تقع في باب السِّتر والسِّرِّ منها قوله لمن تزوج ثَيِّباً: فهلاً بِكراً تُلاعبها وتُلاعبك أو تداعبها وتداعبك، وروي: تعضُّها وتعضّك. قال راوي حديث العضّ: فيدوم بذلك الأتلاف والموافقة ويبتعد وقوع الطلاق الذي هو أبغض الحلال عند الله[1].

إلا إن قبلة العلن اصبحت لازمةً في ايامنا هذه حيث نرى غالبية الناس لايجدون استيحاشاً أو ضيراً في تباوس العروسين امام الملأ اثناء الاحتفال وتؤخذ لهما التصاوير بين عزف المزامر وضرب الدفوف والطبول واهتياج الرجال والنساء فرحاً وتصفيقهم وغنائهم وزغاريدهم. وقد ينشدون هذه الاغنية يخاطبون بها العريس قائلين:

حِبهَه..حِبّهَه ولك حِبهه
لتخاف من أمهه
ومعناها :
قَبِّلها..قَبِّلها ويلك قَبِّلها
لا تخف من أُمها

والحَبَّة في (اللغة) العراقية معناها القُبلة، أخذوها من معنى الحبّ.

ثم يتلو ذلك المشهد مشهَد الوليمة الباذخة التي تعدّ للضيوف. وقد سُئل الامام (الخوئي) احد مراجع الشيعة عن تقبيل الرجل زوجته امام النساء ليلة الاحتفال بالزواج فقال: لابأس بذلك[2].

١. انظر/ المعجم الكبير للطبراني/ ١٩/ ١٥ وفيض القدير للمناوي/ ٤/ ٥٨٤.

٢. صراط النجاة/ الميرزا جواد التبريزي/ ٢/ ٣٧٣.

انها مسيرة طويلة في تاريخ القبلة، بدأتها الشعوب في أوائل حضارتها وكان منهم شعب وادي الرافدين الذي ابتدع (نشيد الاناشيد) بحدود الالف الثالثة قبل الميلاد لينشد في أعراس الآلهة والملوك والعامة.

الباب الرابع

الحبُ في بلاد وادي الرافدين

- مصطلحات الحب
- القبلة في خطوبة (انليل) و (سود)
- القبلة في عرس (انانا) و (دموزي)
- في احتفالية الزواج الملكي في مدينة (ايسين)
- خلال الزواج الملكي في (اوغاريت)

مصطلحات الحب

تقاليد الحبِّ في بلاد وادي الرافدين هي تقاليد الآلهة. وما يمارسه الشعبُ في هذا المجال يُعتَبرُ مقابسةً مما تقوم به الالهة من ممارسات غايتها الاولى خير البشر وسعادتهم. ولذلك عندما يتبادل الرجل والمرأة الحبَّ فانما يكونان في هذا الموقف قد عبّرا عن الرغبة الالاهية الداعية مبدئياً إلى التخصيب والولادة. وبهذا الطريق السحري يتمُّ إثراء عناصر الطبيعة والارض بالخير والرفاه واستمرار الحياة.

لقد كان الحبُّ عند أهل الرافدين ضرورياً لفتح الباب الموصد على الاثارة الجنسية، ومن هنا حفلت النصوص السومرية بأناشيد مكشوفة تعبِّرُ عن العواطف الشبقية المؤدية إلى ممارسة الجنس المباح وفق شروط الآلهة الداعية للأِنجاب. فوصفت جَسَد المرأة وجَسَدَ رجلُها بدقة وتفصيل وركّزت على المواضع المهيّجة للشهوة عندهما. كوصف جهازيهما الاخصابيين والشهوة العارمة التي تحرّك الاثنين فتجعلهما مغرمين يقومان بعملية الاخصاب لخير البلاد.

و كانت نظرة اهل وادي الرافدين إلى الحبِّ نظرةً ماديَّةً بحتة، ولم يلتفتوا إلى ما يثيره في النفس من تداعيات ذهنية وانبعاثات روحيّه تسمو على رغبات الحواس والمتعة. وسبب ذلك يعودُ إلى واقعهم الاجتماعي وطريقة تعاملهم مع الحياة، فهُم اهل زراعة والمُزارع يتعامل مع العناصر المنظورة امام عينيه: الأرض والمحراث الذي يشقّها والثور الذي يجرُّ المحراث ثم البذور والماء سواءً أكان وَدَقاً منهمراً من السماء أو نهراً جاريا، وعن طريق تواشج هذه العناصر مع بعضها تنشأ مادة الحياة.وهكذا نظروا إلى الحبّ حيث انه في غايته لا يختلف عن الغاية من العملية الزراعية فكلاهما يؤديان إلى نتيجة واحدة هي إدامة الحياة واستمرارها. ولذا

دخلت مصطلحات الحبّ عندهم بكنايات مستعارة من مصطلحات الزراعة. فأطلقوا – مثلاً – على المقارنة الجنسية لفظة (الحرث) لشبهها بغرز المحراث في الارض، وهي كناية – رغم بساطتها – بالغة الكثافة بما سيؤول بعد الحرث من تثمير للحياة البشرية. فجاء في أحدى القصائد ان (دموزي) الملك الأِلاه حرثَ فرج زوجته واخته (إنانا) الملكة الألاِهة.

و كانت (إنانا) قد هيأت نفسها للأِخصاب (الزواج) فاستحمَّت وارتدت ملابس السلطة وراحت تنشد:

أما بالنسبة لي أنا، بالنسبة لفرجي أنا
التلّةُ المنتفخة
فرجي انا الصبية من سيحرثه لي؟
فرجي انا هذه الارض الرّطبة التي هي انا
انا الملكة، من الذي يَضَعُ فيَّ
ثيرانه (للحراثة)؟"

و يأتي الجواب، سواءً من دموزي متحدّثاً عن نفسه ام من قبل (الكورس) الذي يمثل الاصدقاء المحتفلين:

إي اينين، إنه الملك الذي سوف يحرثكِ
انه الملك دموزي الذي سوف يحرثك
فتجيب (إنانا) وهي في قِمة الشهوة:
إحرث اذن فرجي يارجل قلبي"[١].

و ليس من الصعب على القارئ ان ينتبه إلى ما يُضمرُه قول (إنانا) وهي تعبّر عن نفسها بأنها (الارض الرطبة). ففي قولها كناية عن المرأة

١. ديوان الاساطير/ نقله إلى العربية وعلق عليه: قاسم الشواف/ تقديم واشراف: ادونيس ج١ ص ١٢٣.

الشديدة الاغتلام المتحفّزة للإخصاب. وقد وردت هذه الصفة في المجاز العربي بصيغة وهجاء في قولهم (يا ابن الرطبة) بمعنى (يا ابن البغيّ). قالها مروان لخالد بن يزيد بن معاوية وكانت ام خالدٍ يومئذ (تحت) مروان. اي زوجة مروان[١].

كما يقال للمرأة (يا رَطاب) تعبيراً لها على اعتبار انها بغيٌّ زانية[٢].

و لم يكن هذا شتماً في عصر السومريين لأن الزواني كنّ مقدسات عند الناس. وكانت عشتار (إنانا) تفخر بذلك وتقول:

انا الاول وانا الآخر

انا البغيّ وانا القديسة"

وفي نصٍّ آخر تقول عشتار عن نفسها:

انا العاهرة الحنون"[٣].

و لما كان الثور هو الحيوان الذي تقوم على كاهله عملية حراثة الارض، فقد دخل اسمه في قصائد الغزل والحبّ. فوصف به الحبيب ووصف به الزوج ووصف به الملك وكذلك الألاه.

و كانوا لا يمتعضون من هذا الوصف الذي تترفع قصائدنا اليوم عنه. فمن السماجة عندنا وعدم اللياقة أن تصف المحبوبة به حبيبها أو تشبه الحاكم أو الملك به. ولكن الثور كان معبوداً في المستوطنات الزراعية الاولى. وقد بُنيت له المعابد في طِيبة ودلفي ومكدونيا وتراقيا[٤]. وعُبِدَ عجله في مصر وعبدته بنو اسرائيل.

---

١. النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم/ المقريزي/ تحقق علي عاشور/ ٥٤.

٢. تاج العروس/ الزبيدي/ مادة رطب.

٣. لغز عشتار/ فراس السواح/ ٧، ١٨.

٤. م. ن./ ٧٢.

و على هذا كان الملك يُجَلُّ عندما ينعتُ بالثور، فهذا يعني انه (الالاه الثور) ومن واجب الرعية ان تعْبُدَه كالاه للأخصاب . ولذلك لم يغضب (دموزي) عندما اطلقت عليه (انانا) اسم (الثور البري) ونادته قائلة:

ايها الثور البري ياعين البلاد سوف آتي بالحياة إلى اهلها".

و كان الثور الحقلي يحظى بأفضليةٍ لدى شعراء سومر فخواره يذّكرهم بصيحات الحكام وصخب الحياة في المعبد والنطق بالوحي، ولا عجب بعد ذلك اذا وضعوا رأس ثورٍ على القيثارة السومرية.

ونقرأ في ملحمة جلجامش:

وقف فوق الأرض العظيمة كالثور"[1].

و في المقابل فإن الحبيب عندما يكون ثوراً فإن حبيبته لابدّ ان تكون من جنسه وعلى صفته، وهكذا كان، فأِن (انانا) إلاهة الخصب الجليلة وُصفت بالبقرة، وتغزّل حبيبها دموزي بالصوت الرخيم الصادر منها قائلاً:

فيا لَلْنغم العذب مثل (صوت) بقرة"[2].

و نقرأ في صلاة سومرية إلى إنانا:

"ايتها البقرة البرية الجموح انت اعظم من كبير الآلهة (آن)"[3].

و منذ ذلك الحين لا يزال ناسنا اليوم يكنون عن المرأة بالبقرة ولكن ليس بصفة المدح بل بصفة الذم.

ثم تعدّت نظرة اهل وادي الرافدين الزراعية إلى تفاصيل جسد المرأة فقارنوها مع تفاصيل جسد الارض ورأوا ان كلّ جزءٍ منها له نظيره من

١. طقوس الجنس المقدس عند السومرية/ كريمر/ ٧٠ ، ٧١.

٢. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/ ١/ ١٢٧.

٣. لغز عشتار/ المصدر السابق/ ٧١.

الارض. فصدرها هو بمثابة الحقل الذي يدرُّ الخصب ويملأ البلاد بالوفرة والخير. نقرأ هذا في احد النصوص المدّونة عن لسان دموزي وهو يخاطب حبيبته (إنانا):

إي مليكتي العظيمة، صدرك هو حقلك
اي انانا، صدرك هو حقلك
حقلك الفسيح الذي يدفق بالزرع
حقلك الفسيح الذي يدفق بالحَبِّ
الماء من الاعلى – ربّاه – الخيرُ من الأعلى
الماء يدفق من الأعلى – ربّاه – الخيرُ من الأعلى
صُبُّيه من أجل الرب، الذي أشيرُ إليه
سوف أشربه منك"[1].

هذا في الشعر أما في الفنّ فقد صوَّرَ فنانو بلاد الرافدين عشتار (الأم الكبرى) في نقوشهم ومجسماتهم عارية بملامح خصوبية بارزة ككبر الثديين وامتلاء البطن والفخذين.

و قد اعتبر السومريون العلاقة بين المطر والأرض علاقة جنسية مشابهة لما يحدثُ بين الرجل والمرأة في وظيفة التناسل. فالرجل عندما يقارن زوجته فإنه يسكبُ في رحمها مَنيه فيحدث الحمل فالولادة. ومثل هذا يحدث عندما ينهمر الودق على الأرض فإنه يجعلها تنبثق بالزرع، ولذلك اطلقوا على المطر اسم (مني السماء). والأرض في استقبالها تتهيّأ وتلبس زخرفَها وتتزين كما تتزين المرأة لاستقبال زوجها:

الأرض الفسيحة المسطّحة لَبِسَتْ تألُّقَها
حَملت ببهجة جسدها

---

١. طقوس الجنس المقدس/ المصدر السابق/ ١١٩.

الأرض الثمينة، بالمعدن الثمين واللازورد
زينت جسدها
تبرّجَت باليَنَع والعقيق الأحمر البراق زيّنت السماءَ رأسها بأوراق الشجر
وظهرت كأنها الأميرة
الأرض المقدسة العذراء تبرجت
من أجل السماء المقدسة
السماء، الإلاه الرائع الجمال، غرس
في الأرض العريضة ركبتيه
وسكب في رحمها بذرة الابطال
الأشجار والمقاصب.
الأرض الطريّة، البقرة الخصبة تشبّعت
بمني السماء الغنيّ
وبالفرح ولدت الأرض نباتات الحياة
وبغزارة حملت الأرض هذا التاج الرائع
وجعلت الخمر والعَسَل يسيلان".

ثم اعتبروا (مني الرجل) بمثابة البذرة التي تدسُّ في ثقب الأرض. ويبدو إنهم أول من اكتشف علاقة المني بالحمل. وقبل عصر الزراعة كان الناس يجهلون ذلك.

و قد جاء في أحد النصوص التي تعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد، إن الالاه (إنكي) مَزَّقَ بقضيبه الكساء الذي كان يَسْتُرُ حِضن الأرض وملأ بماءِ قضيبه المجاري جمعاء، ثم:

خصَّصَ (إنكي) منيَه

وسكبه في رحم (نينخورساج)[1]

ويتلقيها في رحمها المني، مني إنكي

عند ذلك ومن أجلها ، عُدَّ اليومُ الأول شهراً

واليومان عُدّا شهرين

والأيام الثلاثة، ثلاثة أشهر

والأربعة عُدَّت أربعة أشهر

والخمسة عُدَّت خمسة أشهر

والستّة، ستة أشهر

والأيام السبعة، سبعة أشهر

والثمانية ، ثمانية أشهر

والتسعة، عُدَّت تسعة أشهر

أشهر الحمل التسعة"[2].

و تتكرر نفس العملية مع (نينسار) الفتاة اليانعة الجميلة، حيث يقوم إنكي باحتوائها بين ذراعيه ويسكب منيه في حضنها ، والحضن في هذا النصً كناية عن الفَرج ويلاحظ أنه عندما لا ترغب النصوص السومرية باستعمال تسمية الفرج بصدد الجماع والاتصال الجنسي تعمد إلى التعبير عنه بالحضنِ أو الحِجر[3].

كما نجد في بعض النصوص كناية شاعرية عن المني وهي (ماء القلب) الذي يتدفق من حضن دموزي إلى حضن إنانا فيسقيه فتتدفق الزروع على جوانبه وينبت الَحبُّ وتزخر السهوبُ والمروج بالنباتات فيصبح هذا

---

١. نينخورساج: الاهة أمٌّ سومريّة.

٢. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/١/٢٩.

٣. م.ن.

الحضن بمثابة مزرعة للملك دموزي تنتج الخضار وتسكب الَحبّ[1]. ولهذا اطلقت إنانا على فرجها اسم (التلّة المنتفخة):

أما بالنسبة لي أنا، بالنسبة لفرجي أنا

التلّة المنتفخة

فرجي أنا الصبية من سيحرثه لي"

كما اطلقت على رحمها اسم (المخضّة) المقدسة:

املأ مخضتي المقدسة بـ(.....) بالجُبن"[2]

و المخضة وفصيحها (المِمْخضة) هي السقاء أو الوطَب الذي يجعل فيه اللبن فيُمْخضُ ليصرّحَ عن الزبد. وترمز إلى الامتلاء والخصوبة. وجاء في المجاز اللغوي: مخضت المرأة وكذلك الناقة وغيرها من البهائم: جاءها الطلق والولادة. والماخض من النساء والإبل والشاء، هي التي دنا ولادها واخذها الطَلَق[3].

و يطرب الراعي أو الفلاح إلى صوت الممخضة الذي هو صوت الربيع وعلامة الخصوبة. وهناك نشيد يدور حول موسيقى الممخضة يصور دموزي كعشيق تبهجه الحظيرة عندما زارتها إنانا فنقل هو البهجة إلى قلبها وتأوّه لذة على حضنها نذكر منها قوله:

إي إنانا، انت التي تطوفين في الحظيرة

ما إن تصلي إليها ايتها الصبية

حتى تسمع (المِخضّةُ) نغمها. إي إنانا

مِخضّة حبيبك سوف تُسمَعُ نغمها

---

١. المصدر السابق/ ص ٣٠.

٢. م. ن./ ١٢٣، ١٢٥.

٣. تاج العروس/ الزبيدي/ مادة: حَخَضَ.

مخضّةُ دموزي سوف تسمع نغمها

....

هذا النشيد الأكثر عذوبة، إي إنانا

سوف يجعل قلبَك فرحاً"[1].

هكذا كان الحبُّ عند اهل الرافدين، عبارة عن موضوعٍ واجب الوجود لاشباع حاجة اقتصادية هي اكثار النسل وإعمار الأرض ونشر الخير والرفاه. كما إنَّ له وظيفة اجتماعية تنبني عليها علاقات الافراد والجماعة. ولذلك اعتبرت تعابيره تعابير اخلاقية بعيدة عن الدنس ينطق بها الملك بوحيٍ من الالاه. فإذا ادركنا هذا المفهوم حلّت امامنا اشكالية وجود (نشيد الاناشيد) المُمتلئ يمثل تلك التعابير في (الكتاب المقدس).

القُبلة في خطوبة (إنليل) و (سُود)

جرت العادة عند اهل سومر ان تخطبَ الفتاةُ من أبيها لأنها تبقى تحتَ حمايته ورعايته حتى أوان نُضجها واستعدادها للزواج ولهذا يكون للأبِ مطلق الحريّة في ربطها بالزواج حسبما يراه مناسباً[2].

غير إن النصَّ الذي بأيدينا يفيد بأن الفتى قد يتقدم بنفسه لخطبة الفتاة من نفسها فيعرضُ عليها الزواج فإذا ارتضت به زوجاً قامت بتقبيله كعلامة على القبول. فأذا لم تفعل دلَّ ذلك على عدم الموافقة.

و هذا النصَّ يرقى إلى حدود (١٩٠٠ ق.م) وهو يدور حول الطريقة التي تزوج بها الالاه (إنليل) بعد عزوبته الطويلة من الفتاة الجميلة (سُود) سليلة الاسرة النبيلة والتي رَضِعَت دَرَّ أُمِها (نيسابا Nisaba) راعية الكتابة والولادة:

---

١. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/ ١/ ١٢٧.

٢. الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور/ المصدر السابق/ ٣٣.

ففي ذلك الزمان لم يكن لأنليل بعدُ
أية زوجة في (الايكور)[1].
فعندها راح إنليل سيّد مجمع الآلهة يبحثُ عن
زوجة تلائم منْزلته.
وبعد ان اجتاز بلاد سومر كلها
حتى طرف العالم
توقّف إنليل، الجبل الكبير، خلال سعيه
عند مدينة (إيريش Eresh)
هنا عندما ألقى نظرة حوله
اكتشف امرأةَ قلبه
اقترب منها بكل سعادة، توجّه اليها
مُتَشَهياً: سوف اغمرك بالرداء الملكي
وبعد (ممارستك الشارع) سوف تصبحين زوجتي
فُتِنتُ بجمالك دون تردّد حتى لو لم تكوني ذات مقام".

لقد حسبها من البغايا اللواتي (يمارسن عملهن في الشارع). ومع ذلك فإنه لم يبالِ بضعةِ مركزها الاجتماعي فصمَّمَ على الزواج منها. ونفهم من هذا إن ذا المركز العظيم (الإلاه) أو (الملك) قد يرضى بالزواج مِن إمرأة ذات أصل وضيع. وهو نفس ما فعله بطل نشيد الاناشيد الذي زُعِمَ انه (الملك سليمان) مع فتاة النشيد المدعوة (شولميت) فإنه لاحقها وهو ملك وأراد ان يتزوجها ولم تكن شولميت سوى راقصة شولمية من بني (شولم) وهم الغجر المعروفون بالسمعة السيئة.

أما (سود) فلم تكن في الحقيقة كذلك بل كانت من طبقة اجتماعية رفيعة

---

١. الايكور: معبد الإلاه إنليل.

المستوى فلذلك غضبت من قوله وردَّت عليه بعنف:

"لماذا تلوِّث سمعتي هكذا

ماذا تريد مني؟ لماذا تعرّضت لي؟

ايها الشاب لقد انتهى حديثنا

اغرب عني.

(كثيرون غيرك) حاولوا خداع أمي

لكنهم زادوها نفوراً.

فما كان من إنليل إلا أن يغيّر اسلوبَه معها ويتوجه إليها قائلاً:

حسنا، عليَّ أن أكلِّمك واتناقش معك

هل تريدين أن تكوني زوجة لي؟

قبليني يا حبيبتي ياذات العينين الفاتنتين

ثم قرّري"[1]

لكن سود رفضت تقبيله ، بل أوصدت الباب في وجهه ودخلت بيتها. وكان هو قد هام بها حُبّاً فقرر أَن يخطبها من أمِّها.

و قد يبدو لنا إن هذا التقليد يناقض العادة المألوفة في بابل وهي طلب يد الفتاة من أبيها، ولكن متى ما احتملنا كون هذا النصّ يحمل في تلافيفه بقايا من تقاليد عصر سيادة الأُم، فإن الغرابة ستزول. فقد كانت الأُم في ذلك العصر هي التي تمتلك حقَّ تربية اولادها وتصريف امور تزويجهم. فعلى هذا الاساس قرّر إنليل أن يبعث برسوله (نوسكا) إلى أمّ سود ليخبرها برغبة إنليل في الزواج من ابنتها. وبعث معه هدايا من أجل العروس، مع وعودٍ بإنه سيطلق عليها اسم (نِنليل) ويهديها كلُّ ثرواته. ويقدم لها (إنكي – أور) مسكنا، وخلاصة الوعود إنه سيجعل منها إلاهةً

---

١. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/ ١/ ٤٩.

تتحكّم بحياة (ذوي الرؤوس السود) وهم سكان سومر.

وعندما وصل الرسول إلى مقام نيسابا والدة سود، تلقّت طلبه بترحاب وقالت:

كيف يمكنني رَدَّ من يمنحني نعماً رائعةً كهذه
أن الرسالة قد ادخلت البهجة إلى قلوبنا
و إلى أرواحنا. ونحن نرى ايضاحات كافية قد قُدِّمت إلينا
كما إن الإهانة مَحَتها هدايا العرس
والهدايا الشخصية
قل له أذن: سأكون حماتك
فلتتحقق أُمنيتك".

ثم اجلست (نوسكا) الرسول على كرسيٍّ وأعدّت له مأدبة كبيرة.

و عندما عاد نوسكا إلى إنليل، (سَجَدَ وقبّل الأرض) وكرّر ما قالته سود حرفاً بحرف، فابتهج قلب إنليل وبعث إلى الأُم هدايا كثيرة فصلّتها أسطر الرقيم السومري ولا مجال لذكرها. وبعد ذلك توجّهت السيدة إلى ابنتها قائلة:

سوف تكونين زوجةَ إنليل المفضّلة
آمَلُ أن يعاملك بجدارة
أن يحتفظ بك بين ذراعيه أنت الأجمل بين الفتيات
وأن يقول لك: حبيبتي
دعيني آخذ جسدك
لا تنسي المداعبات الغرامية
دعي زمنها يطُل كثيراً
تجامعا على الرابية

انجبا اولاداً

ليسبقك الرخاءُ لدى دخولك إلى بيته

ولترافقكِ البهجة"[1].

و هكذا تم الزواج بموافقة الأُم وصارت (سود) زوجة للألاه إنليل فخلع عليها لقب (نينتو) اي (السيدة التي تلد) وسلّم بيدها وظائف الأمومة وكلّ ما يرتبط بعمليات قِبالة الأمهات وتوليد الزروع من الأرض.

القبلة في عُرس إنانا ودموزي

و كان أهل وادي الرافدين القدماء يعتقدون ان الالاهة (إنانا) هي مصدر خصب بلادهم فعندما تتخصَّب هي فإن الأرض تتخصب نتيجة لذلك فيعمَّ الخير والرفاه في جميع البلاد.

و كانوا يعتقدون أيضاً إن اخصاب الالاهة وحملها يتم بعملية تناسلية كالتي تحدث بين الرجل والمرأة البشريين، ولذلك أوجدوا لها قريناً ذكراً إلاهاً من جنسها يبادلها الحب هو الالاه (دموزي) (تموز). ثم رتّبوا لزاوجهما احتفالية كبرى في بداية فصل الربيع موعد تفتُّح الطبيعة وبزوغِ (الحبِّ) من الأرض وظهور النباتات، على اعتبار أن هذه الخصوبة حدثت نتيجة ذلك الزواج.

و لما كان الالاه والالاهة لا يمكن استحضارها على الحقيقة ليمارسا العملية المقدسة فقد جعلوا (الملك) يتقمّص شخصية الالاه بينما تقوم الكاهنة العظمى بدور الزوجة الالاهة. وهكذا ظهر طقس (الزواج المقدس) الذي يضمُّ (دموزي) وهو احد حكام (إيريك)[2] المرموقين والاهتها

---

١. المصدر السابق.

٢. إيريك (Erech) حسب نسخة (العهد القديم) هي (اورروك Uruk). مدينة سومرية قديمة اسمها الحالي (الوركاء) في جنوب العراق وهي موطن ملحمة جلجامش.

الشهوانية (إنانا) التي تحظى باحترام عميق[١].

لقد كانت هذه الفكرة مبنية على أساس مُعْتَنَقٍ آمن به أهل الرافدين هو امكانية التداخل بين الشخصية الالاهية والشخصية الملكية. وهي الفكرة التي تطورت في القرون اللاحقة فصار بمقدور (النبيّ) ان يكون بشراً وان يكون إلاهاً في نفس الوقت وهو ما يُعَبَّر عنه بتجسيد اللاهوت بالناسوت.

و قد انتشرت هذه الفكرة بين شعوب العالم فَعُبِدَ الملك كإلاه وصار بيده تعيين مصائر الناس واصبحت امور الطبيعة لا تنقاد إلا اليه وحسب رغبته ومشيئته[٢]. لذا كان أمر تزويجه من الضرورات الكبرى لخير البلاد وخصبها ومن دون ذلك لا يمكن أن ينتظر الناس الخير والرفاه.

و قد حَفِلت نصوص وادي الرافدين بأوصاف دقيقة لمجريات الاعراس الملكية وكان الظاهر على اغلبها وجوب ان يسبق الوصال مغازلة وتَودُّد يُمهِّد للزواج بين الزوجين المقدسين[٣]. وتتمثل هذه المغازلات بالضمِّ إلى الصدر والتقبيل:

إنانا، بناءً على طلب أمها
استحمت وتطيَّبت بفاخر الزيت
لَفَّت على جسمها طيلسان – بالا – النبيل
وحملت معها الـ ... بائنتها
صفَّفت حجر اللازورد حول عنقها
وامسكت الختم بيدها

---

١. طقوس الجنس المقدس/ المصدر السابق/ ٨٩.

٢. الغصن الذهبي/ فريزر/ ١/ ٣٤٩/ الترجمة العربية.

٣. طقوس الجنس المقدس عند السومريين/ المصدر السابق/ ١٠١.

الملكة الجليلة انتظرت على تـوقّع

دموزي اقتحم الـبـاب

طَلَعَ في البـيت مـثلَ نور القـمر

وحدَّق فيها يغمره الفرح

ضمّها إلى صدره وقبلها"[١].

و في نصٍّ سومري يعود إلى (٢٠٣٨ – ٢٠١٠ ق.م) نقرأ إنه ما إن يتمّ تقديم الملك دموزي إلى عروسه إنانا حتى تبدأ العروس تردّد اغنية عاطفية تقول فيها:

أيها العريس، دعـني اقبلك

فقبلتي العزيزة أحلى من الشهد

وفي غرفة النوم المملوءة شهداً

دعني اتمتع بجمالك اللطيف

ايها الاسد، دعـني أُقبلك

فقبلتي العزيزة أحلى من الشهد

أيها العريس، تعـال ونم في بيتـنا حـتى الفـجر

قلبكَ . . اني اعرف كيف ادخل السرور إلى قلبك

ايها الاسد . . تعال ونـم في بيتنا حـتى الفـجر

وانت مادمت تحبني . . اتوسل اليـك ان اقبلك

ياسيدي الإلاه، ياسيدي الحافظ

اتوسل اليك ان اقبلك".

ثم يجري استعراضٌ تتمثّل فيه كلُّ مظاهر الفرح. ويعد ذلك تَمرُّ حشود الناس امام المنصّة وهي تهتف وتصفّقُ على انغام الآلات الموسيقية

١. م. ن./ ١١٣.

المختلفة وعندئذ يقدم الطعام والشراب[1].

في احتفالية الزواج الملكي في مدينة (ايسين)

و في مدينة (إيسين)[2] كانت تجري استعراضات مشابهة خلال زواج الملك (آيدين داجان)[3] (١٩٧٤-١٩٥٤ ق.م) وهو الملك الثالث لمملكة إيسين التي تلت مملكة أور. فكانت تقام في هذه المدينة وليمة في قاعة استقبال القصر، جاء وصفها في الرقيم الذي يعود إلى زمان ذلك الملك، حيث ينصب الفراش من أجل الملكة تحيطُ به أغصان الأسل ونشارات الخشب، يتم بعد ذلك استحمام الملكة والملك جنباً إلى جنب وتنثر الطيوب على أرضية قاعة الاحتفال:

وعندما يتمُّ تكديس التقدمات وبمجرَّدِ انجاز
تطهير المكان
وحرق البخور ونثر زيت السَّرو
عندما كدّست التقدمات الغذائية
ومُلِئت الآنيةُ حتى الطفح
دخَل برفقتها إلى قصره الجليل
ثم (قبَّل) قرينته الحبيبة

---

١. عشتار ومأساة تموز/د. فاضل عبد الواحد علي/ ١٣٦ و ١٥١ وما بعدها و ١٥٥.

٢. إيسين (Isin) (إيشان) وتوجد آثارها حالياً قرب مدينة (عَفك) الحالية ويطلق الاسم كذلك على سلالة ملوك إيسين وعددها حوالي عشرة سلالات انظر/ معجم المصطلحات والاعلام في العراق/ حسن النجفي/ ١/ ١٠٢.

٣. الملك (آيدين – داجان) (Idin Dagan) ويترجم (إدين داغان) من عبارة سومرية تعني (ابن إلالاه داغان) حيث ان إلالاه هذا كان إلاهاً سومرياً وعُبدَ في مدينة ماري وطرقة في سوريا. (انظر المصدر السابق ص ٩٩).

(قبَّلَ) إنانا المقدّسة

ومثل ضوء النهار قادها قادها إلى العرش

على المنصّة السامية

وجلسَ بقربها وكأنه (الملك الشمس)

ثم جعل الكثرة والوفرة وفيض المآكل

تستعرَضُ أمامهما

وأقام من أجلها عِيداً رائعاً

وأمام إنانا رَدَّدَ (ذوو الرؤوس السوداء)"[١]

قائلين:

على وقع الطبل الذي يفوق الرعدَ هديره

والقيثارة ذات الموسيقى العذبة التي

تسحر القصر.

و(على نغم) الرباب المهدئ لقلب البشر

ايها المنشدون، اسمعونا انغام البهجة ثم مدّ الملك يده إلى المآكل والمشارب".[٢]

و بعد سقوط دولة السومريين – المجهولي الأصل – وظهور الدولة الساميّة المتمثلة بالاكديين البابليين انتقلت طقوس الخصب المقدسة إلى هؤلاء وتُرجمت الاناشيد السومرية المتعلقة بزواج ملوك سومر إلى اللغة البابلية مع بعض التغييرات حيث تحوّل اسم (دموزي) إلى (تموز) و (إنانا) إلى (عشتار) وصارا يقترنان كل سنة في الربيع باحتفاليات حاشدة مشابهة لما هي عند السومريين. وقد اختصت عشتار بالحبّ والحرب وأطلقوا اسمها على أشهر بوابة في بابل (بوابة عشتار).

---

١. شقب السومريين.

٢. ديوان الاساطير/ المصدر السابق/ ص ١٨١.

خلال الزواج الملكي في (أوغاريت)

و في مدينة (أوغاريت)[1] عاصمة الكنعانيين[2] عُثِرَ على نصوص تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. تتعلّق بالطقوس الدينية التي يبدو فيها الملك كألاه. ودلت هذه النصوص على أن الكنعانيين تأثروا بطقوس الخصب السومرية فكانوا يمارسون الاحتفاليات مثلهم. ويقيمون لـ(بَعل) زواجاً حافلاً.

و قد اعتبروا بَعلاً إلاهاً للأخصاب واطلقوا عليه اسم (مُمتَطي الغيوم) وكان مسؤولاً كذلك عن إخصاب القطعان، قطعان البقرات والعجلات، اذ تراه في أحد النصوص الاوغاريتية يضاجع قرينته الملقّبة بـ(العجلة). يقول النص:

تهيّجَ بعل فأخذها من [...]
تهيَّجتَ هي فأخذته من [...]
وسيطرت على بَعْل الشهوة
نحو قطيع البتولة (عناة)[3]

و يبتهج بعل عندما تعلمه (عناة) بأن عِجلاً سيولد له. وعناة هي زوجته واخته. وفي نصٍّ اوغاريتي آخر نجد بعلاً يقوم بإخصاب امرأتين تقومان بدور الاهتين كانتا تمتحان الماء وتصبانه في خزّان مرتفع. فيميل إليهما ويقبّل شفتيهما.

---

١. أوغاريت: مدينة في سورية على بعد (١٢٠٠)م من شاطىء البحر الابيض واثني عشر كيلومتراً شمال اللاذقية. وقد بدأ تأثير بلاد ما بين النهرين يظهر في أوغاريت اعتباراً من العام ٥٥٠٠ ق.م. واستمرت الحياة فيها حتى عام ٢٢٠ق.م. ثم دمرت وهجرت. وكان اهاليها يعبدون البعل.

٢. الكنعانيون قوم من الساميين سكنوا المنطقة التي تضمُّ فينيقيا وفلسطين.

هاهما شفتان عذبتان

عذبتان كالرمان

وبعد القبله الحمل

وبعد الاحتضان المتّقد

أتى أجلُ ولادتهما

فولدتا سَحَر وشالم"[1]

و هكذا يلوح لنا ان الاناشيد التي مررنا بها قائمةً على وحدة بنائية ثابتة تتسلسل ابتداءً من التقبيل ثم المضاجعة ثم الحمل فالولادة. وبذلك نستطيع ان نقول ان ابتداء العملية الزواجية بالتقبيل يكون الغرض منه استثارة شهية الزوجين لمواصلة واجبهما المقدس وبدون ذلك تفقد العملية أداءها الصحيح. فالقبلة بمثابة الغيث الذي يستفزُّ شبق الارض ويُحَفّزها لولادة النبات.

و لعلَّ الناس في ذلك الزمان كانوا يربطون الصوت المنبعث من تراشف الشفاه والتثام المباسم بأجراس رشق المطر شفاه الارض العذراء.

---

١. ديوان الاساطير/ ١/ ١٥٢.

الباب الخامس

القبلة في نشيد الملك امرئ القيس

- التعريف بالنشيد
- امرؤ القيس في غِمار الحُبّ المحرّم
- ماذا حدث في (دارة جُلجُل)
- أُمرؤ القيس في منازلات القُبل
- وقفةٌ عند (قصيدة القُبَّل)
- منازلات القبل في الفلوكلور
- أهل الغزل في معارك القبل

التعريف بالنشيد

نشيد الملك الشاعر امرئ القيس هو معلقته المطولة المعروفة بـ(قفا نبكِ) التي ضرب بها المثل في الشهرة فقيل (أشهر من قفا نبك).

و كانت أوّلَ القصائد التي علقت على أستار الكعبة. قال ابن الكلبي: أول شعرٍ علق في الجاهلية شعر امرئ القيس. علُّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى ينظرُ إليه ثمَّ أُحدِرَ فعلَّقت الشعراء ذلك وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية[1]. والظاهر إن وضعها في هذا المكان المقدّس يعود إلى كونها صادرةً عن (وحي). وهو الرأي الذي كان سائداً عند الشعوب حول مصدر الشعر ولا يزال[2]. وهو نفس السبب الذي وضع من اجله (نشيد الأناشيد) في الكتاب المقدس لإعتباره وحياً من الله ألقاه على لسان سليمان.

و كما كان نشيد سليمان يُتعَبَّد به في الكُنَسِ و الكنائس كان العرب في الجاهلية يتعبَّدون للمعلقات فيسجدون لها ويقوا على هذه الحالة مائة وخمسين عاماً حتى جاء الإسلام فأبطله[3].

و مثلما كان نشيد سليمان ينشد في احتفاليات الأعراس والأفراح لليهود والمسيحيين – وما زال – فان نشيد الملك امرئ القيس ظلَّ كذلك يُتغنّى به في مجالس الطرب و اللّهو حتى زمن العباسيين. وقد قسم مقاطع غنائية كما الحال في نشيد الأناشيد الذي قسّم إلى مقاطع وعددها ثمانية تسمّى (إصحاحات) ومنهم من قطّعه إلى خمس قصائد ومنهم من قطّعه إلى عشر

---

١. المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ د. جواد علي/ ٩/ ٥١٣.

٢. عند اليونان: ربّات الشعر توحي للشعراء. وعند العرب قبل الإسلام: الجنُّ والشياطين وفي الإسلام (جبريل) حسب قول النبي لحسّان (أهجوهم وجبريل معك).

٣. المفصّل/ المصدر السابق/ ٥١٥.

أناشيد[1].

بينما مقاطع النشيد (المرقسي) عددها اثنان وعشرون مقطعاً حسب إدائها في اللحن الغنائي. إذ كانت الألحان بمجموعها اثنان وعشرون لحناً تسمى (أصواتاً) منها في الثقيل الأول تسعة أصوات وفي الثقيل الثاني ثلاثة وفي الرَمَل أربعة وفي خفيف الرمل صوتان وفي الهزج صوت وفي خفيف الثقيل ثلاثة أصوات.

و قد بَرَع مغنَون مشهورون في إداء هذه المقاطع. نذكر منهم على سبيل المثال (مَعْبَد)، غنّى بلحن الثقيل الأول مقطع (قفا نبكِ) و (أفاطمُ مهلاً) و (أغرّكِ مني) و (ما ذرفت عيناكِ).

و غَنَّت (عُرِيب المأمونية) رَمَلاً في مقطع (أغرّك مني) وغنَّت (جميلة) لحناً من الثقيل الأول في مقطع (تسلَّت عَمايات الرجال) أما المغنية (حميدة) جارية ابن تفّاحة فغنَّت لحناً من الثقيل الأول بالوسطى مقطعي (وبيضةِ خدرٍ) و (وتجاوزتُ أحراساً) وهكذا[2].

و الظاهر إن هذا التقسيم جرى لان النشيد في الأساس نظمه صاحبه على شكل مقاطع منفصله، كلُّ مقطع يصوّر مشهداً من حياته التي تردّدت بين الأفراح والأتراح والملاهي والمآسي. فكان المغني يختار منه ما يناسب المقام، فإذا كان المقام يستدعي الحزنَ والبكاء وسكب العبرات، غنى مقطع:

كأني غداة البين يوم تحمّلوا   لدى سمرات الحيِّ ناقفُ حَنْظَلِ

أو غنى مقطع:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقط اللِّوى بين الدَّخولِ فحوملِ

---

1. نشيد الأناشيد/ آن ماري بلتبيه/ ترجمة: أنطوان الغزال/ ص١٤ وما بعدها.
2. الاغاني/٩/٧٥.

و إذا كان المقام يستدعي ذكرَ شأن الفروسية والفرسان غنى مقطع:

وقد اعتدي والطيرُ في وكناتها   بمنجردٍ قيدِ الاوابل هيكلِ

و إذا كان المقام يستدعي اللهو الخليع وإظهار المجون غنى:

وبيضةِ خِدرٍ لا يرامُ خباؤها   تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ معَجلِ

وهكذا دواليك.

و قد سارت في الدنيا معلّقة امرئ القيس وتناقلها الناس إعجاباً واستظهروها تولعا، وتوّجها النقادُ ومؤرخو الأدب كملكةٍ على النظم العربي فكانوا يبدأون الشعر بها. كما توّجوا صاحبها ملكاً على الشعراء "ويكفينا أن نستشهد على ذلك برأي مَلِك البلغاء والفصحاء وواحد دهرنا وسيّد كتاب عصرنا أبي الحسن عليه السلام. فقد جرى حديث الشعراء في حضرته فقال: لو أن الشعراء المتقدمين ضَمَّهُم زمانٌ واحد ونُصِبتْ لهم رايةٌ فجروا معا، علِمنا مَن السابقُ منهم، وإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبةٍ ولا رهبة. قالوا: ومن هو؟ فقال: الكِندي. قالوا: ولِمَ؟ قال: لأني رأيته أحسنَهم نادرةً واسبقهم بادرة"[1]. وقال لبيد بن ربيعة وهو من أصحاب المعلقات كذلك: أشعرُ الناس ذو القروح. يعني امرأ القيس[2].

أما الغربيون فقد اهتموا بالمعلقة لكونها تمثّل ثبتاً تاريخياً جغرافياً اجتماعياً أخلاقياً ثقافياً للعرب في الفترة التي سبقت الإسلام بقليل حيث كان صاحبها يعيش بحدود سنة (٤٩٧ – ٥٤٥ م). فنقلها إلى اللغة اللاتينية (فَرنر L. Warner) ونشرها (ليت Lette) في ليدن عام ١٧٤٨. ونقلها إلى الانكليزية (السير وليم جونز S. W. Jones) في لندن عام ١٧٨٢.

---

١. العُمدة/ ابن رشيق القيرواني/ ١/ ٤١.

٢. دائرة المعارف الاسلامية/ مادة: امرؤ القيس.

و أعاد طبعها (كلونستون Clonston) في (Arabian Poetry) كلاسكو عام ١٨٨١ (ص ١– ١٤) وطبعها (جونسون Johnson) في لندن عام ١٨٩٤. ونقلها إلى السويدية (بولمير B. M. Bolmer) عام ١٨٢٤. وإلى الفرنسية (دي ساسي De Sacy) و (كوسان ده برسفال Coussin de Perceval). ونقلها إلى اللغة الألمانية (هارتمان Hartman) عام ١٨٠٢ و (نولدكه و جانز Noldeke & Gands). ونقلها إلى الروسية (موركس Mourkes) وشرحها (فرسك) باللغة التركية عام ١٣١٦هـ[١].

و لابدّ لنا أن نذكر أن نظرية (التعليق) رفضها كثير من النقاد المحدثين وأهمهم)الرافعي) الذي ذهب إلى القول بأن قصة التعليق على الكعبة قصة أسطورية وإن (ابن الكلبي) هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة وإن مَن عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر لم يذكروا من ذلك شيئاً.

و قد جاراه كثير من المستشرقين في الرفض وأشهرهم (نولدكه) الذي قال بأنها لو كانت معلقةً فعلاً على أستار الكعبة لرآها النبي عندما فتح مكة ولكنه لم يرَ منها شيئاً وإنما رأى صور الملائكة والأنبياء فأمر بطمسها، والأوثان والأصنام فأمر بكسرها[٢].

إلا أن الدليل الذي جعلنا نميل إلى الإيمان بنظرية التعليق هو النظرة الدينية للشعر، حيث كانت لغته السامية – حسب الاعتقاد القديم – لغة الآلهة ينطق بها الشاعر الملهم معبّراً عن رغباتها، ولذلك تُصبح جديرة بالتقديس ويوضعها في بيوت العبادة وإنشادها فيها أثناء إجراء الطقوس. وقد ذكرنا فيما مرَّ شيئاً من قصائد السومريين والبابليين والكنعانيين التي كانت تتلى في المعابد. ولا يزال بأيدينا الدليل الحيٌّ على

١. انظر/ دائرة المعارف الإسلامية/ المصدر السابق. وانظر أيضاً للاستزادة/ تاريخ الأدب العربي/ بروكلمان/ ١/ ١٠٠.

٢. المفصّل/ المصدر السابق/ ٥١٤.

ذلك وهو نشيد الاناشيد الذي يعتبر عند اليهود والمسيحيين (قدس الأقداس) حيث وضع – رغم إباحيَّتِه وجنسانيته المكشوفة – في الكتاب المقدس.

و على ذلك لا يكون من المحال أن تكتب قصيدة امرئ القيس بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة، أو أنها كانت تعَبُد كما قيل. رغم الإباحية الجنسية المكشوفة في بعض مقاطعها.

امرؤ القيس في غِمار الحبّ المحرّم

و ضع المؤرخون امرأ القيس في عِداد العشاقِ الزناة حيث كان يتعَهَّرُ بشعره ويعلن هذا العُهر تبجُّحاً دون مراعاة لمشاعر قومه الذين ضجّوا من سلوكه فشكوه إلى ابيه الملك حْجر بن عدي فأمر بطرده ففارقه امرؤ القيس واتخذ مسلكاً شبيهاً بمسلك شعراء التروبادور الاوربيين الذين كانوا يجولون الاصقاع والمدن باحثين عن الحب المحرّم متغزلين بالعذارى والنساء المتزوجات المشهورات فاضحين بشعرهم مواقفهم الغرامية معهنّ.

و يمكننا أن نجعل مغامرته الغرامية مع ابنة قيصر الروم جوستنيانس أو يوستنيانوس من هذا الباب. فقد ذكر أنه لما رحل إلى القيصر يستعديه على قبائل أسد التي قتلت أباه استضافه القيصر زمناً في قصره قبل أن يعينه والياً على بلاد الشام بلقب (فيلارق). فنظرت إليه ابنة القيصر – وكان في غاية الجمال – فعشقته وجرت بينهما مكاتبات وقال فيها اشعاراً. فعلم القيصر بالعلاقة وقرّر التخلص منه وجهّزَ له جيشاً للأخذ بثأر أبيه واهداه حُلَّةً مسمومة فلما لبسها تقرَّح جسمه وتناثر لحمه فلقب لذلك بـ(ذي القروح) وقبل أن يموت على سفح تلٍّ من تلال (انقره) نظر إلى قبرٍ دفنت فيه امرأةٌ من بنات ملوك الروم فأحب أن يدفن بقربها وقال

مخاطباً إياها:

أجارتنا إنَّ المزارَ قريبُ   وإني مقيمٌ ما أقام عَسيبُ

أجارتنا إنّا غريبان ها هنا   وكلُّ غريبٍ للغريب نَسيبُ

ثم مات على تلك الرابية ودفن بقرب تلك المرأة فكأنما أريد له أن يكون حتى في الموت راقداً بين احضان النساء[1].

و لكي يتم تخليد الملك كبطل من الابطال التاريخيين ذكر بعض الأخباريين أن ملك القسطنطينية أمر أن ينحت له تمثال ينصب على ضريحه[2].

و تمضي حكايات البطولة الاسطورية تحيط بحياة الملك ابتداءً منذ صِباه فذكر أن والده لما بلغه أنه ينظم الشعر ويعرض به بنساء بني أسد، امر مولىً له يسمى (ربيعة) أن يذهب به فيذبحَه ويأتِيَهُ بعينيه. فأخذه ربيعة وتركه في جبلٍ ثم ذبح جزوراً وجاء بعينيه إلى ابيه فندم حجر على ذلك وأظهر الحزن والأسى فقال له ربيعة: أبيت اللعن إني لم أقتله. فقال له: جئني به الآن. فلمّا جاء به نهاه عن قول الشعر والتعرض للنساء. ولكنه لم ينته فطرده ابوه. وهذه رواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء.

و يلاحظ القارئ أن اسطورة الذبح عبارة عن توليفٍ غير متقن مأخوذ

---

١. انظر/ الأغاني/ ٩/ ١٠١.

٢. حسبما جاء في كتابِ (شعراء النصرانية) عن مخطوط قديم. وظلَّ التمثال قائماً هناك إلى أيام المأمون وقد شاهده الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم يغزو الصائفة. يقول (السندوبي): وقد رأيتُ في معجم المخطوطات لسركيس أن أحد اصدقائه ممن أقامَ زمناً طويلاً بانقره أخبره بأنه رأى بقيّة التمثال لا تزال قائمة بانقره قرب دار السراي وهذه البقية عبارة عن هامةِ التمثال. (انظر/ شرح ديوان امرىء القيس للسندوني٢٧) وقد شكَّكَ (هيوار) باسطورة غرام امرىء القيس بابنة القيصر. (انظر/ دائرة المعارف الإسلامية/ ٢/ ٦٢٢)

من حكايات مشابهه كانت معروفة في زمان ابن قتيبه نخصُ منها بالذكر حكاية موسى في طفولته مع الفرعون.

و لما ارتحل امرؤ القيس عن ابيه صار يجمع اليه طائفة من ذؤبان العرب وصعاليكهم وشذّاذهم فيجنح بهم إلى الدارات المنعزلة يصطادون ويأكلون ويعاقرون الخمر ومعهم قيان يغنين ويلعبون معهن (النرد) ولا يزالون كذلك حتى ينتهي ماء الغدير فينتقلون إلى غيره.

و ذكر الرواة أنه كان ينتهك حرمات النساء المتزوجات ولم يبال حتى بحرمة زوجة ابيه (هِرّ) فتغزّل بها وعشقها. ومن اللواتي تغزّل بهن (أم جُندب) وكانت نقّادة للشعر تحكم بين الشعراء. وقيل أنها كانت زوجته فلما حكمت لعلقمة بن عبدة عليه، طلقها فتزوجها علقمة.

و من اللواتي تغزّل بهن كذلك (أم هاشم) ابنة عَفزر والبَسباسة ابنة يشكر ووصفهن بأنهن من (القاصرات الطرف).

و منهن (ماويَّةُ) وفاطمة وأم الحويرث وأم الرباب وسلمى التي يقول فيها:

يُضيءُ الفِراشَ وجهُها لضجيعها	كمصباحِ زيتٍ في قناديلِ ذُبّالِ
إذا ما الضجيجُ ابتزَّها من ثيابها	تَميلُ عليه هونةً غيرَ مَجبالِ

ثم يمضي الشاعر بالقصيدة فاضحاً بصراحة كيف قضى ليلةً حمراء مع سلمى هذه ويقول:

سَمَوتُ إليها بعدما نامَ أهلها	سموَّ حبابِ الماء حالاً على حالِ
فقالت: سباك الله إنك فاضِحي	ألستَ ترى السمَّارَ والناس أحوال
فقلتُ: يمينَ الله أبرحُ قاعداً	ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

ثم كان ما كان مما هو مذكور في القصيدة التي يظهر فيها أن سلمى كانت متزوجة فلما علم الزوج بالعلاقة عزم على أن يثأر لشرفه ويقتل امرأ

القيس فسَخِرَ منه امرؤ القيس وقال:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وليس بذي رمحٍ ليطعنني به وليس بذي سيفٍ وليس بنبّالِ

و قد علمت سلمى – وإن كان بعلها – بأن الفتى يهذي وليس بِفَعَّالِ [1]

إلا أن ما حَدَثَ في (دار جُلجل) من عملية اغتصابٍ لشَرف ابنة عمه (عنيزة) يمكن أن يُعتبرَ أسوأ جريمة من جرائم انتهاك المحرمات التي ارتكبها امرؤ القيس.

ماذا حدث في دارة جُلجل؟

دارة جُلجل احدى متنَزهات العشاق المنبثّة في جزيرة العرب. وعدد هذه الدارات كثير ينيف على الستّين[2]. وهي عبارة عن واحات بين جبال أو حَزَن أو سهول وفيها مسايل مياه وعيون. وينمو النخل والشجر البريّ فيها وكذلك العشب والشقائق والزهور. وترودها الحيوانات البرية كالظباء والمها والطيور ويسبح الأوز والبط البري في مياهها.

و من هذه الدارات نذكر على سبيل المثال دارة الأرآم سُميت بذلك لكثرة الظباء والغزلان فيها ووصفت بأنها (ذات الشقائق) لكثرة هذا النوع من الزهور فيها.

و كانت هذه الدارات منعزلة عن العمران لذلك كان العشاق يجنحون نحوها فيقضون بها وطراً من الزمن متحرراً من الملامات والأنظار. فيصطادون ويشتوون ويأكلون ويشربون ويغنّون لا يضايقهم رقيب ولا حسيب.

إلا أن (دارة جلجل) فاقت تلك الدارات شهرةً وذلك لورودها في معلقة

---

١. ديوانه/ ١٥٩.

٢. معجم البلدان/ ٢/ ٤٢٥.

امرئ القيس في قوله:

ألا رُبَّ يومٍ لي من البيض صالحٍ ولا سيّما يومٍ بدارة جلجل[1]

و تقع هذه الدارة في اليمن حسب قول أبن السِكّيت في تفسير البيت.

قال: أنها بغَمر ذي كندة. وقال الاصمعي: دارة جلجل من منازل حجر الكندي والد امرئ القيس ومنازله (مخلاف كنده) واليمن[2]. وعلى هذا تكون القصيدة المعلقة يمانيةَ البيئة. وإذا كانت هكذا فإنها تستجمع في مضامينها موارد واقعية من حياة أهل اليمن.

و بالفعل فقد حفلت بصور شتى من الحياة الاجتماعية لليمانيين ولا سيّما ما كان يفعله الشباب وأهل الفتوة في تمضية الوقت من استعراضات للفروسية على صهوات الجياد وكيف كان الفارس يتعامل مع جواده الأثير. ثم كيف كان الفتيان يتبادلون الحبّ مع فتياتهم حيث كانت الحرية في بعض الاحيان تسمح لهم بالخلوات.

و كان لأبناء البيوتات الملكية فسحة من الوقت يقضونها باللهو والمجون مع من يحبّون تحميهم حصانة المنْزلة فيتسوّرون المحرّمات فلا يمنعهم أحد وكان الناس يسكتون على مضض.

و قد ذكرنا في الصفحات الماضيات أشتاتاً من هذا اللّهو المحرّم مارسه امرؤ القيس مع حشدً من الفتيات العذارى والمتزوجات، ولكننا نشهد في هذا اليوم الذي اطلق عليه امرؤ القيس اسم (يوم دارة جلجل) شيئاً آخر. نشهد عملية استدراج لإبنة عمه (عنيزة) واغتصابها على طريقة (زواج الخطف) المعروف في الجزيرة. ذلك لأنه طلبها من أهلها للزواجِ فلم يحصل عليها وطلبها زماناً فلم يصل إليها، فانتهز فرصةَ وجودها مع أهلها

1. هذه رواية (الجمهرة) للبيت. ورواه النحّاس في شرح القصائد التسع: ألاربَّ يومٍ صالحٍ منهما. ورواه الزوزني: ألارب يومٍ لك منهنَّ صالحٍ.

2. معجم البلدان ٢/ ١٢٥ و ٤/ ٤٨٢.

يتنَزهون في (دارة جلجل). فبعد أن قضوا لُبانتهم من الأُنس والنُزهة، احتَملَوا راجعين فتقدّم الرجال وتخلّفت النساءُ والخدم.

فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلَّف بعدما سار مع رَجَّالةِ قومه مسافة فكمن في غيابةٍ من الشجر خلف غدير حتى مرّت به النساء وفيهن عنيزة. فلما وردن الغدير قلن: لو نزلنا فاغتسلنا في هذا الغدير يذهب عنا الكلال، فنَزلن في الغدير وتحيَّرَ العبيد جانباً ثم تجردن من ثيابهن فوقعن فيه، وأتاهن امرؤ القيس وهنّ غوافِل فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها وقال: "والله لا أعطي جاريةً منكنّ ثوبها ولو ظلّت في الغدير يومها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها.

فأبَين عليه ذلك حتى تعالى النهار وخشين أن يقصرن عن المنْزل الذي يَردنَه. فخرجن جميعاً غير عنيزة فناشدته الله أن يطرح إليها ثَوبها فأبى. فخرجت فنظر إليها مقبلةً مُدبرة وأقبلن عليه فقلَن له: إنك عذّبتنا وحبستنا وأجعتنا. قال: فإن نحرتُ لكنّ ناقتي تأكلن منها؟ قلن: نعم.

فخرط سيفه فعرقبَها ونحرها ثم كشطها. وجمع الخدم حطباً كثيراً فأجّجوا ناراً عظيمة فجعل يقطع لهنّ من أطايبها ويلقيه على الجمر ويأكلن ويأكل معهن ويشرب من فَضلَةِ خمر كانت معه ويغنيهن وينبذ إلى العبيد (الكباب). وفي ذلك يقول:

ويوم عقرتُ للعذارى مطيّتي	فيا عجباً من كورها المُتحمَّل
فظلَّ العذارى يرتمين بلحمها	وشحمٍ كهُدّاب الدمقس المفتَّل

و ينتهي المشهد الاول على هذه الصورة وهو في تفاصيلهِ يذكرنا بمشهد (وليمة العرس) التقليدية المتعارف عليها اجتماعياً في تقاليد الزواج .

و عندما يهلُّ المشهد الثاني الذي هو مشهد إعداد (مخدع العروسين) تقوم العذارى رفيقات عنيزة بترتيبه حيثُ يقتسمن متاع راحلة (العريس) التي أُكلت فتتبرع واحدة بحمل رحلَه وامشاجه وتتبرع الاخرى بحمل

طنفسته ثم يركبن رواحلهن ليدعن الجوّ يخلو لامرئ القيس وعنيزة التي تضطر إلى أن تحمله على غارب بعيرها وتدخله خدرها ، وفي ذلك يقول:

ويوم دخلتُ الخِدر خدرَ عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مُرجلي

تقولُ وقد مال الغبيط بنا معاً   عقرتَ بعيري ياأمرأ القيس فانزلِ [1]

يقول الشراح[2]:

فكان يجنح إليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها فلما تمتنع يجذبها إليه فيميلُ خِدجُها من شدّة الجذب فتخاف فتصيح به:

عقرت بعيري ياامرأ القيس فانزل

فيقول لها:

... سيري وأرخي زمامه   ولا تبعديني عن جَناكِ المعلَّل

دعي البكر لا ترثي له من ردافنا   وهاتي أذيقيني جناةَ القَرنفلُ

بثغرٍ كمثل الاقحوان منوَّرٍ   نقيِّ الثنايا أشنبٍ غير أثعَل

أنه تقبيل بالأكراه قَصد به الشاعر تخدير الفتاة وإلانة نفارها وذلك ما يفعله المغتصبون في مثلِ هذه الحالة ولمّا لم تستجب له عمد إلى تهدئتها وتهوين المسألة عليها بقوله:

فمثلكِ (بِكراً) قد طرقتُ وثيِّباً   فألهيتُها عن ذي تمائم مُحولِ

اذا ما بكى من تحتها انصرفت له   بشقٍّ وتحتي شُقُّها لم يحوّلِ [3]

ثم كان بعد ذلك ما يكون بين العروسين.

---

١. الخِدر: الهودج. مُرجلي: تجعلني أمشي على رجلي. الغبيط: نوع من الهوادج.

٢. اعتمدنا في هذا الاستعراض على شروح المعلقة الواردة في المصادر المعتمدة كشرح الزوزني للمعلقات السبع وشرح القصائد التسع المشهورات للنحاس وكذلك شرح ديوان امرىء القيس والمراقسة للسندوبي.

٣. اراد ان هذه الثيِّب كانت ذات طفل ذي تمائم.

إنّ قولنا هذا إنما أقمناه افتراضاً اعتماداً على الرواية القائلة أن امرأ القيس طلب ابنة عمه للزواج فرفض اهلوها، لذلك عمد إلى الزواج منها بهذا الأسلوب.

و لو صحت هذه الرواية فأن ما أقمناه يصبح واقعياً. ولكن اغلب النقّاد يرون ان ما حدث بدارة جلجل كان مغامرة غرامية محرمة شأنها شأن المغامرات الغرامية العديدة التي حفلت بها المعلقة وهم محقون في رأيهم إذ أن الشاعر الهائم الباحث عن اللذة ما خطر بذهنه الزواج اطلاقاً واننا لو بحثنا في ثنايا شعره لما وجدنا ذكراً لزواجٍ وانما كل الذي نجده هو صور لاستعراضات جنسية تدلّل على القوّة الذكورية التي يتمتّع بها الشاعر ويستطيع بواسطتها أن يخضع الانثى بشتى الوسائل والحيل. وكان تكوينه الجسماني يساعده على ذلك فهو جميلٌ غاية الجمال وفارس موفور الشجاعة وصيّاد مُتمّرس بالاضافة إلى سلطته الملوكية فأية فتاة تستطيع مقاومة هذه المغريات.

و خلاصة القول ان نشيد امرئ القيس في واقعه هو مجموعة متنوعه من المشاهد العاطفية العنيفة يؤلف بينها طابع واحد هو مؤداها الجنسيّ المكشوف.

امرؤ القيس في منازلات القُبَل

نقرأ في ديوان امرئ القيس قصيدة عجيبة تحدَّثَ فيها الشاعر عن أحدى مغامراته الغرامية مع فتاة خلاسية لاعبها الشطرنج وجعل غرض الرهان (قبلة) ينالها الفائز من ثغر المغلوب[1].

و جرت المعركة رِدافاً بين المتغالبين استعمل فيها الشاعر كل فنون معارك القتال التي حذقها وطبقها على رقعة الشطرنج، فكان النصرُ في

١. أنظر القصيدة كاملة في شرح ديوان أمرىء القيس للسندوبي ص ١٨٦.

كل (دَست) ينعقد له فينثني على المغلوبة فيقبّلُ (ثغراً كالهلال إذا أفل).

و يبدو إن الجوَّ خلا للأثنين فلم يطرأ ما ينغّص عليهما مجرى اللعبة فتنازلا تسعاً وتسعين (دستاً) نال الشاعر من ثغر غريمته تسعاً وتسعين قبلةً ثم طرأَ لهُ بعد القبلة التاسعة والتسعين طارئ أستوجب عليه أن ينفّذه وقد بقيت القبلة المائة فاختطفها الشاعر وهو من أمره على عَجَل.

ويصف الشاعر هذه اللاعبة الجميلة بقوله:

حجازيةُ العينين مكيّةُ الحشَا عراقية الأطراف روميّة الكفل

تهاميةُ الابدان عبسيةُ اللّمى خزاعيةُ الاسنان دريّةُ القُبَل

و هذا - كما ترى - وصف شبقي نَسَجَه لها من جزئيات جمالية مستعارة من نساء شعوب وقبائل وبلدان يبدو أنه أراد به أن يدلّل على خبرته بنساء العالم !!

ثم أراد أن يعرف من تكون هذه الفتاة الخلاسيَّة وإلى أي القبائل تنتمي؟ فَسَألها عن نسبها فقالت: (أنا كندية عربيةٌ) تريد بذلك أن تنتسب إلى قبيلته ولكنّه شكَّ بقولها وقال: (حاشا وكلاّ وَهَل وبل) وعندها صارحته بحقيقة نسبها فقالت: (أنا روميةٌ عجميّةٌ) فكلّمها بلغةِ قومها التي كان يعرفها بحكم علاقته بالروم. اسمعه يقول:

وقلتُ لها أي القبائل تنتمي لعلّي بين الناس في الشّعر كي أُسلْ

فقالت: أنا روميّة عجميَّةٌ فقلتُ لها: ورخز بباخوش من قُزَل[1]

ولاعبتها الشطرنج (خيلي) ترادفت و(رُخّي) عليها دار بـ(الشاه) بالعجل

فقالت:وماهذا شطارة لاعبٍ ولكنَّ قتل (الشاه) بـ(الفيل) هو الأجل

إلى أن يقول:

---

١. لم يعرف الشرّاح معنى هذه العبارة.

وقد كان لعبي كلٌ (دستٍ) بقبلةٍ أُقبلُ ثغراً كالهلال إذا أفل

فقبلتها تسعاً وتسعين قبلةً وواحدةً ايضاً وكنت على عَجَل

وعانقتها حتى تقطَّع عِقدها وحتى فصوصُ الطوقِ من جيدها انفصل

كأنّ فصوص الطوق لما تناثرت ضياءُ مصابيح تطايرنَ عن شُعل

وآخر قولي مثلُ ما قلتُ أولاً لِمَنْ طللٌ بين الجديَّةِ والجبَل

و تنتهي القصيدة عند هذا المشهد، مشهد العناق والتلاحم الجسدي الشديد الذي ادى إلى انفراط عقد الفتاة وانتثاره على الأرض وهنا يستهوينا أن نسأل عمن تكون الفتاة؟

حسب تصريحه في القصيدة يظهر لنا أنها رومية كما يظهر أيضاً أنها لم تكن من عامة الشعب الروماني بدليل معرفتها بأسرار لعبة الشطرنج التي كانت في ذلك الزمان لعبة الملوك ولذلك يصحُّ القول بأن لاعبة الشطرنج هذه كانت أميرة من أميرات بلاطات الروم الرفيعات اللواتي تَرَبَّين تربيةخاصة فمن هي بالذات؟

هنا ينصرف الذهن متعلقاً بالحكاية المروية عن امرئ القيس التي تدور حول علاقته العاطفية بإبنة القيصر (يوستنيانس) وقد سماها الروائي (معروف الارناؤوط) باسم (سيلفيا).

و كان امرؤ القيس قد رَحَل إلى القيصر – حسب المصادر العربية – يطلبُ معونتَه في تجميع جيشٍ من جند الرومان ليثأر به من بني أسد قاتلي ابيه فمرَّ ببلاد الشام وكان له ابنة اسمها (هند) أودعها ابن عمه يزيد بن الحارث بن معاوية. ومن هناك اتخذ طريقاً إلى بلاد الروم مع صاحبٍ له فقال في ذلك:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وايقنَ إنّا لاحقان بقيصرا

فقلتُ له لا تبك عينك إنما نحاولُ مُلكاً أو نموت فنعذرا

و عندما وصل إلى القيصر – حوالي عام ٥٣٠م – رحَّب به وانزله منْزلة متميزة واسكنه القصر المعروف بقصر (تيودوس) حسب رواية معروف الارناؤوط واصبح نديماً له وفي ذلك يقول:

ونادمتُ قيصر في ملكه فأرحَبني وركبتُ البريدا

يقصد أنه تعلّم الالعاب الاولمبية ومنها لعبة (البريد) المعروفة عند الرياضيين وكنّا في المدرسة نتعلمها في درس الرياضة.

كما تذكر المصادر العربية أنه لشدّة علاقته بالقيصر كان يدخل معه الحمّام. والمعروف عن الحمّامات الرومانية أنها كانت مكاناً يستَحمُّ ويستَجمُّ فيه الفلاسفة والشعراء والادباء وعليةُ القوم فكانت تعقدُ في أجوائها الدافئة المنادمات والمطارحات الفكرية والفلسفية والشعرية.

و زعمت هذه المصادر أنه لما دخل الحمّام مع القيصر وجد القيصر (أقلف) أي لم يختتِنْ وقال في ذلك بيتين[١]. وطبيعيٌ أن يكون القيصر أقلف لأنه كان على دين النصرانية. ويبدو أن الشاعر كان مختوناً لأنه ربما كان على ديانة اليهودية المنتشرة في اليمن وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية أنه كان على دين بين اليهودية والنصرانية[٢].

و كانت (سيلفيا) ابنة القيصر من زوجته (تيودورا) قد التقت الشاعر اثناء مجالس المنادمة مع أبيها فبهرها جماله فعلقت به ومضى عالقاً بها وهامت به حُبّاً مثلما بادلها الهيام والحب، فكانت تلقاه في قصره سرّا، تفِدُ إليه في جوف الليل سارية من قصرها قصر (الشاليسية) المشهور.

و كانا يجتمعان بين بواسق الشجر في خميلة (اكاديموس) ملعب سقراط في طفولته. وهناك تحت الأفياء وبين ظلمات الغصون المتشابكة للشجر

١. انظرهما في/ شرح ديوان امرىء القيس/ ص ١١١.

٢. ج ٢/ ص ٦٢٢.

الوارف كانا يتساقيان رحيق القبل.

و قد يبدو لهما أحياناً أن القبلةَ تكون أعذب مذاقاً وأشدَّ نشوةً إذا مارساها بعد فراسٍ وغِلاب لذلك اتخذا رقعَةَ الشطرنج ساحة يتنازلان على حلبتها الضيّقة اشواطاً منهكةً للوصول إلى رشفةٍ كأنها (سفرجَلٌ أو تفاح بالقند والعسل).

و كان أن أثمرت هذه اللقاءات وليدةً جميلة اسمياها (مارية) واخفياها في قصر (تيودوس) بعيداً عن جدها الامبراطور الذي ظلَّ خبر هذه العلاقة مستوراً عنه طوال تلك المدة حتى جاء (الطّماح الاسدي) إلى القسطنطينية مبعوثاً من قبيلة أسد لإفشال خطّة امرئ القيس، فراح يتجسَّس عليه. وعندما وقف على علاقته بابنة القيصر سعى بها إلى القيصر فصمّم هذا على التخلص من الشاعر غسلاً للعار. فأصدر أمراً بتعيينه حاكماً على بلاد الشام بلقب (فيلارق) وأعدَّ له حفلةً صاخبةً لهذه المناسبة.

و في تلك الحفلة سقته (تيودورا) زوجة القيصر كأسَ خمر مشابٍ بالسمٌ وقلَّده القيصر سيفاً مسموماً وتوَّجَه بتاجٍ مسموم وخلّع عليه حلَّةً ملوكية مسمومة كذلك فأخذته السموم من كلِّ صوبٍ.

و قبل أن يصل في طريقه إلى (انقرة) أخذ جسمه يتقرّح واحشاؤه تتمزَّق والدماء تنزُّ من قروحه ولهذا سمي الملك ذي القروح. ثم لم يستطع المضيَّ لوجهته فخيَّم على سفح جبلٍ مطلٌّ على انقرة يقال له (عَسيب). وبينما هو يجود بروحه رأى قبراً لإمرأةٍ غريبة دفنت هناك فقال مخاطباً إياها:

أجارتنا إنَّ الخطوبَ تنوبُ — وإني مقيمٌ ما أقام عَسيبُ
أجارتنا إنّا غريبان ها هنا · — وكلُّ غريبٍ للغريب نَسيبُ
فإن تصلينا فالقرابةُ بيننا — وإن تَصرمينا فالقريبُ غريبُ
أجارتنا ما فاتَ ليس يَؤوبُ — وما هو آتٍ في الزمانِ قريبُ

وليس غريباً من تناءت دياره ولكنّ من وارى التراب غريبُ[1]

ثم فاضت روحه فدفن في سفح الجبل في مستوىً تظلّله اشجار البلوط.

و عندما وصل خبر موته إلى سيلفيا وعلمت من هو قاتل حبيبها كفكفت دموعها وانطوت على جراحها واستقرت في قصر الشاليسية لتقضيَ فيه بقية عمرها[2].

وقفةٌ عند (قصيدة القُبَل)

قال عنها شارح ديوان امرئ القيس حسن السندوبي: "لا رعى الله واضع هذه القصيدة فقد اتعبني فيها على غير طائل ولولا الأمانة لأغفلتها واهملتها ولم اثبتها في هذا الديوان" ثم قال ايضاً: "واكثر ابياتها من الخزعبلات لا تستحق الشرح ولا البيان"[3].

و هي فعلاً كذلك، فإن الباحث الناقد إذا قارنها مع شعر امرئ القيس وجدها بعيدة كل البعد عن اسلوبه حيث انها مسرفة في الرداءة الفنية ومليئة بالسخف اللفظي مما يدل على أنها من وضع راوٍ ضعيف أراد أن يثبت بها صحة العلاقة بين الشاعر وبين ابنة قيصر الروم فجعلها تلاعبه الشطرنج ويقول في وصفها بإنها:

غموضٌ عضوض الحِجل لو أنها مشَت به عند بابِ السبسبين لأنفصل

فهي هي وهي هي ثم هي هي وهي وهي منىً لي من الدنيا من الناس بالجُمل

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم قطعتُ الفيافي والمهامه لم أمَل

---

١. ديوانه/ المصدر السابق/ ٧١ ومعجم البلدان/ مادة عسيب.

٢. تفصيل الحكاية/ انظرها في/ رواية سيد قريش/ معروف الارناؤوط ج٢/ امرؤ القيس وتيودورا.

٣. شرح ديوان امرىء القيس والمرافسة/ ١٩٢/ الهامش.

فلَو لَو ولو لو ثم لو لو ولو ولو دنا دار سلمى كُنت أول من نَزَل

وعَن عَن عَن ثم عنعن وعن وعن أُسائل عنها كل من سار وارتحل

و هكذا على هذا الديدن المضحك يمضي امرؤ القيس في وصف المحبوبة الرومية إلى أن يقول:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت ... ألخ

هذا فيما يخص القصيدة أما فيما يخص العلاقة بين ابنة القيصر وامرئ القيس فلم تثبت عند المستشرق (هيوار Huart) الذي قال: "والحق أنه لم يكن ببلاط (يوستنيانوس) أو ببلاط خلفِه (يوستينوس) اميرة لها نفس الاوصاف التي ذكرها امرؤ القيس"[1].

و لكن العلاقة صحت عند الروائي (معروف الارناؤوط)[2] فبنى جزءً من روايته (سيد قريش) عليها وذلك اعتماداً على المواءَمة بين المصادر الرومانية والمصادر العربية.

لقد وجد هذا الروائي أن امرأ القيس كان معروفاً لدى المؤرخين الرومان. وأول من تحدَّثَ عنه من مؤرخيهم هو (بروكوب) ثم (نونوزو) واسمه عندهما (Amar Kese) ويسميه المؤرخ تيوفان (Cays).

يقول (بروكوب) – والعهدة على مؤلف الرواية – أن امرأ القيس بعد أن أحاط به اعداؤه لم يجد بُداً من الإحتماء تحت راية الامبراطور، (جوستنيان) (يوستنيانوس) فبعثَ إليه برسول يذكّره بمعاهدةٍ للصداقة كانت ابرمت بين جدّه الحارث بن عمرو المقصور وبين الامبراطور (إينستاس).

---

١. دائرة المعارف الاسلامية / ٢/ ٦٢٣.

٢. معروف بن احمد الارناؤوط: كاتب صحفي من اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد ببيروت سنة ١٨٩٣ وتوفي بدمشق سنة ١٩٤٨. الباني الاصل كتب روايات منها: فاطمة البتول. سيد قريش بجزئين.

و يقول بروكوب ونونوزو إن الامبراطور جوستنيان الأول بعثَ في سنة (٥٢١ م) سفارةً إلى امبراطور الحبشة وكان يسيطر على اليمن. فمرّ السفراء في طريقهم بأراضي كندة وطلبوا من امرئ القيس باسم مولاهم ان يظلَّ على ولائه للامبراطور وأن يضع جيوشَه تحت إمرة قواده لقتال عرب العراق المناذرة فرضي امرؤ القيس وارسل ولده معاوية إلى القسطنطينية ليكون رهينة عند القيصر مقابل ولائه. غير أن جيوش العراق لم تلبث أن هزمته ثم تَوَغّلت في اراضيه فهام على وجهه في البراري.

و لكن هل إن امرأ القيس هذا الذي ذكره المؤرخان الرومانيان بروكوب و نونوزو هو نفس امرئ القيس ملك كنده وصاحب المعلقة؟

يقول معروف الارناؤوط: إن التفاصيل التي يرويها المؤرخان يستحيل علينا أن نصدِّق أن امرأ القيس هذا هو غير امرئ القيس الذي جاء ذكره في كتب العرب.

و من خلال جمع الروايات العربية وموائمتها مع الرويات الرومانية اصبحت القناعة لدى الروائي معروف الارناؤوط تامّةً بأن صاحب القيصر هو امرؤ القيس الشاعر صاحب المعلقة فبنى على أساسها حكاية العلاقة بين الشاعر وابنة القيصر (سيلفيا) وهي قصةٌ فعَلَ الخيال فيها دوراً كبيراً.[١]

منازلات القُبَل في الفلوكلور

و نبقى في مدار (قصيدة القبل) المنسوبة إلى امرئ القيس التي قال عنها شارح ديوانه: (ألا لا رعى الله واضعها) فنسأل من أين جاء بها الواضع وحشرها في الديوان؟

مما لاشك فيه أن كثيراً من الحكايات الشعبية التي كان يتداولها

١. انظر/ سيد قريش/ ٢/ ٢٧٠ وما بعدها.

القصّاص والحكواتيون – في العصر العباسي بخاصة – قد الصقت بسيرة الشاعر. وكانت هذه الحكايات معروفة لدى أولئك القصاص من تراثٍ اسطوري قديم نخصُّ منها بالذكر اسطورة قتل البطل ثم نجاته وقد ذكرنا ذلك.

أما المنازلة على القبل التي قيل أن الشاعر مارسها مع الفتاة الرومية في لعبة الشطرنج فكانت معروفة في تراثيات الشعوب. وكانت تتخذ اشكالاً غير الشطرنج واغلبها في ميادين الفروسية والسباقات إذ توضع فتاة جميلة امام مجموعة من الفرسان فيحق لم يغلب في المضمار أن يقوم بتقبيلها. وقد يستبدل السباق بالمبارزة بالسيوف أو الرماح.

و كثيراً ما كانت الفتاة تشترط على من يطلب يدها للزواج أن يغلبها بأحد ذينك السلاحين – وتكون هي عادةً فارسةً ايضاً – فإن غلبها قبلّها أمام الناس أو قبلّته كعلامةٍ على رضاها به زوجاً. وإن غلبته فإنها تطرده أو تقتله.

و قد وُجِدت هذه الطريقة في بلاد اليونان حيث ذُكر إنّ (أتلانتا) ابنة الملك (أياسيوس) ملك اركاديا اشترطت الاّ تتزوّج إلاّ من يغلبها في مضمار الجري – وكانت عَدَّاءة ماهرة – فإن فَشِل فصلت رأسه عن جسده. فتقدّم إليها الكثير من شباب أركاديا وكان مصيرهم القتل على يدها حتى جاء الشاب (هيبومينوس) الذي استطاع شأوها في نهاية الشوط العشرين فقامت إليه واحتضنته وقبّلت جبينه الذي كان يتصّببُ عرقاً وقالت: مرحباً بكَ زوجاً كريماً وأخاً حميما، هلمّ اقدمك إلى ابي.

و تقدمت به إلى ابيها فنهض (إياسيوس) ليعانق صهره الذي لم يكن يعرفه وليهبَهُ يد ابنته التي هي اعزّ ما يملك واعلنت الخطبة للشعب[1].

و لقد كانت هذه النِزالات واشباهها من سمات عصور الفروسية الاولى

١. اساطير الحب والجمال عند اليونان/ دريني خَشَبه/ ٢/ ٢٠٣.

ثم دخلت إليها نزالات لعبة الشطرنج التي هي من مبتدعات نظام الفروسية الصينية.

و لما ابتدعت لعبة الورق (Cards) صارت نزالات القبل تجري بين المحبين وفقها فيجعل جذر الفائز قبلة أو قبلات حسب الاتفاق.

و قد ذكرت الاساطير اليونانية إن إلاه الحب (كيوبيد) مارس هذه اللعبة مع الحسناء (كمباسبي) على القبل فقمرته ثم استدرجته إلى طرح كل ما يملك على مائدة القمار فاستحوذت عليها ولم يبق له سوى منصب الوهيته فألقاه أخيراً على المائدة ففازت به الحسناء كمباسبي فصارت إلاهة للحبّ.

و الاسطورة هذه من الاساطير التي الصقت بسيرة الاسكندر الكبير[1]. وقد جاء فيها أنه عندما كان يغزو البلدان كان يترك قلبَه مشرعاً لغزو الحِسان، فغزته فتاة جميلة اسمها (كمباسبي Campaspe) أسرها في أحدى حروبه فهام بها وجداً وعهد إلى الرسام (أبلليس Apelles) أن يرسم صورتها فوقع الرسام في غرامها وجعل يتباطأ في الرسم ليفوز بأطول مدّة يبقى فيها معها. فعلم الاسكندر بذلك، وبدلاً من أن يعاقب العاشق أو يقتله قام بتزويجه اياها.

و قد حوّل الشاعر الانكليزي (جون لِلي ١٦٠٦ – ١٥٥٨) (John Lily) هذه الاسطورة إلى تمثيلية شعرية بعنوان (الاسكندر وكمباسي) وجعل أحد

١. الاسكندر الكبير المعروف بذي القرنين ولد في مقدونية سنة (٣٥٦ ق.م) وتوفي في بابل سنة (٣٢٤ ق.م) بعمرٍ قصير قضاه بالفتوح فكان اعظم فاتح عرفه العالم القديم. امتازه عهده بالهدم والبناء، فمِمّا هدمه مدينة (بريسيوليس) عاصمة الفرس الشهيرة ومما بناه (الاسكندرية) التي لمعت في التاريخ كمنارة للعلم والفلسفة. تعلم الاسكندر على يد الفيلسوف (أرسطو) وخلف اباه (فيلبس) ووصلت جيوشه إلى ضفاف نهر السند وعندما رجع إلى بلده بعد علمه بحدوث الاضطراب فيه، عرج الى (بابل) فحُمَّ فيها ومات.

مقاطعها يجري على لسان الرسام فصوّر حبيبته تمارس (لعبة الورق) مع كيوبيد فقال:

كيوبيد وحبيبتي كمباسبي
لعبا الورق للفوز بالقبل
فخسر كيوبيد
فراهن بجعبة سهامه وقوسه
ويحمائم أُمه (فينوس) وقطيع عصافيرها (التي تجر عربتها)
فخسر كذلك
ثم طرَحَ مرجان شفتيه
والورد الذي يزهر على خدّيه
ومعهما طرح بلّور جبينه
والغمّازة التي ترصّع حنكه
ففازت بهن حبيبتي كمباسبي
واخيراً راهن على عينيه فربحتهما
آه أيها الاله .. هل فعلت كمباسبي بك كل هذا
فيا حسرتي مما ستفعله بي أنا[١].

و هكذا خرج الاه الحب من اللعبة خاسراً الوهيته وعينيه فأصبح الحبُّ لذلك أعمى.

و يَبدو أن فكرة (عمى الحب) تسلَّلت إلى الشعر العربي من تلك الاسطورة اليونانية القديمة فقال محمد بن مناذر (المتوفى سنة ١٩٨هـ):

يا أخي دائي جوى الـ... حبِّ وداءُ الناسِ جمًّا
لا تَلُم مفتضحاً في الـ... حبِّ إنّ الحبّ أعمى

١. المنتخب من الشعر الانكليزي/ عبد الرحمن بشناق/ ص ١٢.

أهلُ الغزل في معارك القبل

تفيد الدراسات الاجتماعية أن لُعب التغالب التي مررنا بها كلعبة الشطرنج والورق وغيرهما مفيدة للمحبين وبخاصةِ المرتبطين بعلاقة دائمية سائرة على نمطٍ واحد، إذ إنها تغيّر من رتابةِ حياتهم وتُنشّط عواطفهم بما تُحدثه من مناخٍ ساخن ينشأ عنه تصعيد اشواقهم الخابية وإلهابها. فإن لم يفعلوا ذلك بَرَد حبهم وخَمَد.

و قد عرف عن المحبين الاوائل أنهم كانوا يكرهون حبّهم إذا سار على وتيرةٍ واحدةٍ من الصفاء والوئام ويعشقون حبهم إذا قام على العراقيل وعقبات الصدود والجفاء. يقول أحدهم وهو جميل بُثينة:

ولستُ على بذل الصفاء هويتُها ولكن سبتني بالدلال وبالبخلِ

و على هذا يكون الحبُّ متقداً إذا تعرضَ لعقبات الصدود والمَنع والتحريم. فإذا كانت لوازمه مُيَسَّرةً مبذولة كما هو بين الزوج والزوجة فإنه يفقد نكهتَهُ ولا يحدثُ في نفوسهم نشوةً تصعد بهم إلى عوالم الانفعالات اللذيذة. يقول نصٌّ أوربي يعود إلى عام (١١٧٤م):

إننا نعلن حقيقةً ثابتةً نؤمنُ بها وهي أنه
لا يمكن للحبِّ أن ينشأ بين المتزوجين أو
أن تؤثر قوته فيهم"[١].

و ذلك حسبما يبدو لكون حياة الزوجين تسير على اضطراد متشابه ممل. ولكننا في الواقع نلاحظُ أن كثيراً من الازواج الذين يعيشون برودة الحياة يندفعون بلا وعي منهم إلى استحداث حالات توتّرٍ حياتهم الرتيبة وتقلقها فيستجرحون أزمة حتى ولو كانت سخيفةً فيثيروها ويعقّدوها ليَقدَحوا بها

---

١. في الحبِّ والحب العذري/ د. صادق جلال العظم/ ١٩.

عن طريق الخصام والعراك بصيص النار الساكن تحت رماد حبهم، حتى إذا اضطرم البصيص انداحوا بعد ذلك في التراضي بموجةٍ من العِناقِ والقُبل وتمتعوا فترةً بلذاذة العتاب والدلال والغزل يقول الاخطل الصغير:

هكذا أهل الغَزَل كلّما خافوا الملَلَ

انعشوه بالقبل[1]

إن ظاهرة الملَل تحصل دائماً بين العشاق وكذلك بين المتزوجين ويمكن أن نسميها بظاهرة (موت الهوى) استناداً إلى قول جميل بثينة:

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود

حيث إن الفراق عنده يُحيي هواه لما فيه من توتر يعذب النفس وقد جربه العشاق كما جربوا كذلك تلك الالعاب التي ذكرناها لإحداث التوتر عندهم ومن ضمنها لعبة (اخفاء الخاتم) وهي معروفة شعبياً عندنا حتى اليوم. وقيل إن المتنبي مارسها مع إنسانةٍ فقال:

لاعبتُ بالخاتمِ إنسانةً كمثلِ بدرٍ في الدُّجى الناجمِ

وكلما حاولتُ أخذي له من البنانِ المترفِ الناعمِ

ألقَتهُ في فيها فقلتُ انظروا قد أخفت الخاتمَ في الخاتمِ

و قد حدثني صديقٌ لي من الذين يعيشون كهولة الحبّ الزوجي إنه اعتاد أن يسترجعَ ربيع زواجه بقدحه بواسطة لعبة (الدومينو) (الدومنه) فكان هو ورفيقة صباه يقضيان ليلاً طويلاً يتجاريان على الفوز بقصبة السبق التي لم تكن سوى القبلة. وكلما مضيا في الجري اشواطاً زادت القبلةُ دفئاً وحماوة حتى إذا رَنَّقَ الكرى اعينهما اخذا القبلة الاخيرة على عجل واستسلما للرقاد اللذيذ.

---

١. من قصيدة (جفنه علم الغزل). انظرها في ديوانه/ الهوى والشباب أو اسمعها بلحن عبد الوهاب.

هذا وليس من البعيد أن يكون التقبيل الذي جرى بين امرئ القيس والفتاة الرومية – إذا احتملنا قسراً صحة الحادثة – إنما كان من هذا القبيل.

و لكن تبقى مسألة العَدِّ تسعاً وتسعين قبلةً مثيرةً للشك، إذ كيف يستطيع المرءُ أن يُسَجِّلَ الحسابَ في ذهنه وسط احتدام العواطف الملتهبة في هذا الجحيم من القبل؟ لابدّ للحساب أن يضيع. وقد جَرَّبَ أحد العشاق أن يَعدَّ عشراً فلم يستطع فقد ضاع الحساب لديه حالما تعانقا فقال:

سألتُهُ التقبيل في خدّه   عشراً ومازاد يكون احتسابْ

فمذ تعانقنا وقبّلته   غلطتُ بالعدِّ وضاع الحسابْ[1]

و مهما تكن الحال فإن قصيدة امرئ القيس الغريبة قد لا تخلو من احتمال الحدوث حيث نجد لها مُشابهاً في المأثورات الشعبية العالمية.

---

١. الكشكول/ بهاء الدين العاملي/ تحقيق طاهر احمد/ ص ١٧٨.

الباب السادس

القبلة بين الأباحة والتحريم

- في طريق التحريم
- العابدُ أمام الحبِّ المحرّم
- قمعُ الحبِّ المحرّم بالسيف
- السيف في قصّة تريستان و إيزولدة
- في طريق الإباحة
- تخريج إباحتها في القرآن الكريم
- إباحتها في حديث (الشهادة بالعشق)
- الترخيصُ بها في الفتاوى الشعرية
- القبلة في مقالات الفلاسفة

في طريق التحريم

فرقنا فيما مضى من فصول بين قبلة الحبيبين المحرمة وقبلة العروسين المباحة، وفي واقع الأمر هما قبلةٌ واحدة من حيث الدافع والهدف. فكل منهما يصدر تلبية لنداءٍ طبيعي بين الذكر و الأنثى لتحقيق ديمومة الوجود واستمرار النوع. والقبلة بهذا تُعتَبرُ مفتاحاً يفتح به باب العملية التزاوجية التي تؤدي إلى الإخصاب فالحمل فالولادة.

و كانت تمارسُ بصورة حُرَّةٍ عندما كان الإنسان رعوياً حرّاً في الطبيعة، شأنه شأن المخلوقات الاخرى التي تعيشُ معه في نفس المحيط. فهي تفعل كفعله إذا تَحفّزت إلى السِّفاد في مطلع الربيع ورحيل الشتاء. وما أصوات الغناء الذي تصدح به الطيور إلا دعوات جنسية من الذكور لاجتذاب الاناث لبناء الاعشاش وتكوين العائلة. فتأتي الانثى وقد اصطباها التغريد فتقترب مِن إلفها المختار وتلتصق به وتكلؤه بجناحها ثم (تزقّه قُبلاً ويزقها وإذا تَزد يَزد).

و في نفس الاوان تتفتح للحبّ شهيّة القرينين الإنسيين محاكاةً للطبيعة السادرة في مباهج الاعراس فيقوم القرين يبحث عن قرينته بين مرابض الرعاة حتى إذا التقاها خاطبها قائلاً (حسب نصّ نشيد الاناشيد):

انهضي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالَي معي
فإنّ الشتاء قد انقضى
وكفّ المطرُ وزال
وأزهرت الأرض وحلّ موسم التغريد
وسُمِعَ صوتُ اليمامةِ في أرضنا
التينةُ أخرجت بكائرها

ونشَرَت الكروم المزهرةُ أريجها – فانهضي ياحبيبتي ياجميلتي وتعالَي

ياحمامتي اللائذة بشقوقِ الصخر

ومخابئ المعاقل

أريني محيّاكِ واسميعني صوتك

فإنّ صوتكِ عذبٌ ومحيّاك رائع"[1].

فلا تملك الفتاة نفسها بعد سماعها هذا الانشاد المثير حتى تهرع إلى فتاها ويكون التلاقي عندئذ بالعِناقِ والتثام المباسم فيقول الفتى بعد أن يتذوّق حلاوة الشفاه:

شفتاك تقطران شهداً ايتها العروس

وتحت لسانك عَسَلٌ ولبَن

وأريج ثيابك كشذى لبنان

أنتِ جَنَّةٌ مغلقةٌ ياأختي العروس"[2].

ثم يبادر – بعد فتح الجنة بمفتاح القبلة – إلى ولوجها فيجدها بكراً عذراء.

هكذا كان أسلوب الأقتران في البئيات الرعويّة إلا أنه عندما انتقل إلى المدينة تحدَّدَ بقوانينها ونظمها وشرائعها فصار الفصل بين الجنسين وأُقيمت الحواجزُ بين الحبيبين واصبح ما كان مطلقاً مقيداً بفقهيات شرعية لايجوز تحديها والخروج عليها حتى النظرة إلى المرأة اعتبرت من الزنى. في بعض الفقهيات الاسلامية. فلذلك ليس من الغرابة إذا رأينا بعض المتورعين لا ينظرون إلى المرأة إطلاقاً حتى لا يعتبروا في عداد

---

١. نَش/ ٢/ ١٠ وما بعدها.

٢. م. ن./ ٤/ ١١ وما بعدها.

الزناة فتنالهم عقوبة الله. وكان بعضهم يغُضُّ طرفه نحو الأرض إذا مشى فكان حسّان بن أبي سنان يسير في الطريق وعينه على أبهامه خوفاً من أن تقع على أنثى وقد حدا هذا الخوف ببعضهم أن يَسدِلَ على وجهه حجاباً فكان ابو الحَسَن بن جحشويه الحرمي لا يمشي إلا وعلى رأسه طرحةٌ يرخيها على وجهه ليمنع بَصَره من الانفلات فيقع على امرأة[1].

و اعتبرت المرأةُ فتنةً في احاديث مروية عن النبي (ص) وروي أنه (ص) كان لا يصافح النساء[2]، فصار قسم من المتشددين يتوضأ أو يغسل يديه إذا صافحهن اضطراراً.

و نعتت النساء بأنهن سهام الشيطان أو حبائله و إنهن صويحبات (يوسف) حيث حُمِّلنَ جريرة (زليخا) التي أغرت النبيّ ثم اتهمته بنفسها فأدخل السجن.

و كان الآباء يوصون ابناءهم بإجتناب النساء فهذا ابن الوردي يوصي ولده قائلاً:

أجتنب ذكر الأغاني والغزَل   وقُلِ الفصلَ وجانِب مَن هزَل

أترك (الغادة) لا تحفل بها   تُمسِ في عِزٍّ رفيعٍ وتُجَل

أما الحبُّ فلا تَسَل عنه كيف يكون في مثل هذا المناخ المعادي فقد اعتبر مفسداً للعقل وتضييعاً للشباب.

و اعتبر العشاق في درجةٍ أوطأ من البهائم حسب مقياس ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مؤلف كتاب (ذم الهوى) يقول فيه:

إعلم إن العشاق قد جاوزوا حدّ البهائم

في عدَم ملكة النفس في الانقياد إلى الشهوات

---

١. ذم الهوى/ ابن الجوزي/ تحقيق مصطفى عبد الواحد/ ٨٨ و ٨٩.

٢. م. ن./ ١٥٤.

لأنـهم لم يرضَوا أن يصـيبوا شهـوة الوطء
وهـي أقبح الشهوات عند النفس النـاطقة من أيٍّ
موضـع كـان حتى أرادوهـا من شـخص ٍبعينه،
فضَمّوا شـهوة إلى شـهوة وذلـّوا للهـوى
ذلاً على ذل، والبـهيمةُ إنمـا تقصد دفـع الاذى
عنهـا فـحسب وهؤلاء استـخدمـوا عقولـهم
في تدبير نَيل شهواتهم"[1].

أمـا القُبلة فقد حُدِّدت في مجال ِبين الزوج والزوجة وحتى في هذا المجال جعلوا الزوج عليه أن يتوضـأ إذا قبَّل زوجته وذلك حسب تفسير لحديث منسوب للنبيِّ (ص) واعتبر من الشواهد النـحوية وهو قوله (ص): "مِن قبلة الرجل امرأَتَه الوضوء"[2].

ثم منعت القبلة بين الرجل والمرأة الاجنبيين وحرّمت إطلاقـاً سواءَ أكانت عن شهوةٍ أم لم تكن كذلك.

العابد أمام الحبّ المحرّم

لقد رأينـا في الفصل السابق كيف كان العبّاد الزهّـاد يتعاملون مع المرأة فذكرنـا إن بعضهم كان يغضُّ بصره نـحو الأرض إذا مشى أو يضع حجابـاً على وجهه ويرخيه على عينيه لئلا تقعان على امرأةٍ فتفتنه فيقع في حبّها المحرّم.

و قد تكون هذه الوسيلة نافعةً إذا أتى الحبُّ من جهةِ العين. ولكن كيف كانوا يصنعون إذا تسلّل الحبُّ إليهم من جانب الأُذن والأُذن قد تعشقُ قبل العين كما قيل:

---

١. ذم الهوى/ المصدر السابق/ ٣١٣.

٢. شرح ابن عقيل/ ابن عقيل الهمداني/ ١/ ٤٦٣.

ياقوم اذني لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ والاذن تعشَقُ قبل العين أحياناً

يذكر التاريخ أن حُبّاً من هذا القبيل جرى بين عابدٍ زاهد وجارية مغنيّة. والزاهد هذا هو عبد الرحمن بن أبي عمار المعروف بـ(القسّ) لشدة عبادته وورعه والمغنيةُ هي (سلاّمة) المتوفاة سنة ١٣٠ للهجرة إحدى أشهر مغنيات مكّة وكانت لرجلٍ مكّي من قريش هو سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري. وكان يتكسَّبُ بغنائها وربما بغير غنائها. فكان الشبابُ يجتمعون في بيته للسماع فيعطونه أُجوراً على ذلك.

و حدثَ أنها كانت تغنّي في يومٍ من الأيام وصوت غنائها الخالب ينسابُ إلى الطريق فمرّ (القسُّ) مستطرقاً من هناك فسمع شيئاً عجيباً لم يسمع بمثله فتوقف يُمتِّع أُذنه به فعلقت نفسه بصاحبة الصوت فعشقها من دون أن يراها.

و في هذه الأثناء خرج ربُّ الدار فتفاجأ بالقسِّ واقفاً يتسمَّع فهابه ودعاه للدخول لينظر فتمنّع. وكان يُعرف عنه إنه لا ينظر إلى امرأةَ حسب طبيعة الزهاد فقال له: أنا أُقعدها بمكانٍ لا تراها وتسمع غناءها فقط. فرضيَ القس ودخل فغنته فطرب ثم اخرجها سيدّها إليه فإذا هي في الحسن آية فشغف بها وشغفت به وكان فتىً جميلاً وسيماً. وكثر تردّده على بيت مولاها[١].

ثم ذاع في مكّة نبأ تعلّق سلامة بالقس فنسبها الناس إليه وسمّوها (سلامة القس) وهي أول عاشقة تنسب إلى حبيبها وكان العرف أن ينسب المحبّون إلى محبوباتهم.

و في أحدى اللقاءات وقد اشتدّ بسلاّمة الجوى وبلَغَ الهُيام بها مبلغاً عظيماً قالت له:

---

١. الدرُّ المنثور في طبقاتِ ربّات الخدور/ زينب العاملية/ ٢٥٠.

- أنا والله أُحبُّكَ

فقال – أنا والله أُحبّكِ

فقالت – أنا والله أحبُّ أَن أضع فمي على فمك.

قال – أنا والله أحبُّ ذلك.

قالت – فما يمنعك؟ فو الله إن الموضع لَخالٍ.

قال – ويحكِ إني سمعتُ الله يقول "الأَخلاءُ بعضهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين"[١].

وأنا والله أكره أن تكون خَلَّةٌ ما بيني وبينك في الدنيا تؤول إلى عداوةٍ يوم القيامة.

قالت – ياهذا اتحسبُ إن ربّي وربك لا يقبَلنا إن نحنُ تُبنا إليه؟

قال – بلى ولكن لا آمن أن أُفاجَأ[٢].

و تمضي الأيام بالزاهد العاشق وهو على هذه الحالة: حبٌّ محرّم بلا أمل يشتدُّ يوماً على يوم فكان يمرُّ بين الأيام ببابها فيرسل السلام إليها فيقال له: أدخل فيأبى.

ثم بيعت سلاّمةُ إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان وانتقلت إلى قصره بدمشق وبقيَ القسُّ على حبّها ينظم الاشعار ويداري هواه على أَلمٍ مُمِضّ.

و هنا يحقُّ لنا أن نسأل: ألم يكن القسُّ يعلَمُ إن حُبَّهُ المحرّم هذا يتعارضُ مع مبادئه الاسلامية؟

في الواقع أنه كان يعلَمُ ذلك ولكنه نظر إلى المسألة من جانبٍ آخر لا يتقاطع مع الاسلام بل يحبِّذهُ الاسلام ويدعو إليه وذلك إنه جعل إيمانه في

---

١. الزُّخرف/ ٦٧.

٢. ذم الهوى/ المصدر السابق/ ٢٥٨.

مَحَكٌّ الاختبار. فهذا الحبُّ الذي يعيشُه هو حبٌّ محرّم لا شك فيه. ولكن إذا غالَبَهُ فإنه يغالب بذلك هواه ويجاهد نفسه. وقد عانى النبي يوسف نفس هذا الجهاد في علاقته مع (زليخا) إمرأة العزيز عندما أغرته بنفسها وهيأت له الخلوةَ وغَلَّقت الابواب وقالت: هيت لك حسب نصٌّ القرآن الكريم. أو قالت له: إضطجع معي حسب عبارة التوراة[1]. وكاد أن يهم بها لولا أن رأى برهان ربه[2]. وبذلك غالب هواه وجاهد نفسه.

و قد أطلق رسول الله (ص) على جهاد النفس اسم (الجهاد الاكبر) وجعل لجهاد الحرب اسم (الجهاد الاصغر) كإشارة إلى أنه دون ذلك الجهاد في المنْزلة. جاء هذا في حديثٍ له (ص) عندما بعثَ احدى السرايا إلى الحرب، فلما رجعوا قال: مرحباً بقومٍ قضوا (الجهاد الاصغر) وبقي عليهم (الجهاد الاكبر) فقيل يارسول الله وما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس[3].

يفلسف ابن الجوزي جهاد النفس فيقول:
إعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الاعداء لأن النفس محبوبةٌ وما تدعو إليه محبوب، لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي، وموافقةُ المحبوبُ في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب؟ فإذا عكست الحال وخولف المحبوبُ فيما يدعو إليه من المحبوب

---

١. نصُّ التوراة: وحدثَ يوماً إنه (يوسف) دخل البيت لقوم بعمله ولم يكن في المنزل أحد فأمسكته من ردائه وقالت: إضطجع معي فترك رداءه بيدها وهرَب خارجاً تاركاً رداءه بيدها (سِفر التكوين/ ٣٩/ ١١ و ١٢)

٢. سورة يوسف/ ٢٤.

٣. تاريخ الخطيب البغدادي/٣/٤٩٨ ومفردات غريب القرآن/ الراغب الاصبهاني/ ٥٣٧ ووسائل الشيعة/ الحرّ العاملي/ ١٥/ ١٦١.

اشتدَّ الجهاد وصعب الأمر بخلاف جهاد

الكفار فإن الطباع تحمل على خصومه الاعداء"[1]

و هذا مما دعا المتصوفة إلى أن يأخذوا بالحبِّ الأنسي طريقاً لمجاهدة النفس للوصول إلى حبِّ الله. يقول مُحيِّ الدين بن عربي:

أدينُ بدين الحبِّ أنّى توجَّهت　　　ركائبه فالحبُّ ديني وايماني

و عرف إن الصوفيَّ عندما كان يعجزُ عن التوصّل إلى حبِّ الله كان يجرب معاناة حب المخلوق ليسموَ عن طريقه إلى حبّه العلوي. ويحكى أن بعض تلامذة الصوفية قال لإستاذه: لقد طولعتُ بشيءٍ من المحبة (يقصد محبة الله) فقال له: يابُني هل ابتلاك بمحبوبٍ سواه فآثرت عليه إياه؟ فقال: لا قال: فلا تطمع في المحبّة فإنه لا يعطيها عبداً حتى يَبلُوَه[2].

و على هذا يصحُّ أن نقول: إن القسَّ لم يسقط في امتحان معاناة الحب المحرّم وانما خرج منه متين العبادة ناصع الإيمان.

و قد عالج مثلَ هذه الحالة الروائي الفرنسي المشهور (أناتول فرانس) (١٨٤٤ - ١٩٢٤ في روايته (تاييس) وهي غانيةٌ لعوب عشقت قَساً بتولاً زاهداً وعشقها هو في نفس الوقت فأراد كلٌّ منهما أن يجذب صاحبه لحياته. تاييس تريد اسقاط القس ليعيش معها في الحبِّ المحرّم والقسَّ يريد أن يرفع تاييس إلى حياته التعبّدية الزاهدة.

و تمضي الايام وهما في صراع من الحوار الجدلي. كلٌّ منهما يعزّزُ دينه ويستميل إليه صاحبه بالإغراءات. وفي نهاية الأمر ينجذب كلٌّ منهما إلى دين صاحبه فتصبح الغانية راهبةً متبتلة ويصير القس المتبتل فاسقاً غارقاً بالأثم.

---

١. ذم الهوى/ ٤٠.

٢. الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية/ د. محمد غنيمي هلال/ ٢٠٧ عن/ لابي طالب المكي/ ٣/ ٢٨.

و يلاحظ من خلال الرواية أن فكرتها قائمة على موقف من الرهبانية الكنسيّة التي كانت – بفعل قدسيتها – تسيطر على توجيه الافكار في المجتمع الاوربي. وكانت تتهم كلاً من يعارضها بالهرطقة (الإلحاد) فيكون مصيرهم الموت حرقاً أو بقطع الرؤوس.

و قد كان مقصود الكاتب من الرواية أن يُجوِّفَ هيكل البناء المقدس للكنيسة عن طريق مسخِ ركائزها المتمثلة بالرهبان، فأثبت أن الراهب ليس قدّيساً بل هو شخص يرتدي قشراً مسوحياً على نفس فارغة من الإيمان الديني سرعان ما تنفصل عنه.

و بمقارنة هذا القس مع نظيره (القسّ) المسلم نجد الأخير بالمثل يرتدي نفس المسوح ولكنه يختلف عن الأول بثبات نفسه على مبدئه ولم تزده تجربة الحبّ المحرم إلا عمقاً وترسيخاً للثوابت التي انتهجها.

أمّا (تاييس) فإنها حسب القصة جاهدت بالانتقال من مرحلة رخيّةٍ كانت تهواها إلى مرحلة أقسى وأصعب فهي بذلك قد خالفت هواها وبذلك عانت جهاد النفس فماتت مجاهدة شهيدة.

قمعُ الحبّ المحرّم بالسيف

و لكن ليس كل العشّاقِ يستطيعون قمع حبهم المحرّم بممارسة (جهاد النفس) كالذين اسلفنا ذكرهم، فإن بعضهم اتخذ طريقاً آخر هو قمع الحب بالسيف حيث وَرَد ذلك في الحكايات التي رويت عن حب جميل و بثينة، وكانا مضطهدين بسببه فكانا يختليان مع بعضهما سراً.

ففي احدى خلواتهما وقد وصل الخبر إلى أبيها وأخيها فأخذا سيفيهما واختبئا يرقبان فرأياه جالساً بعيداً عنها يحدِّثها ويبثّها وجده. ثم قال لها: يابثينة أرأيتِ من ودّي إياك وشغفي بك ألا تُجزينهُ؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. فقالت له: ياجميل أهذا تبغي؟ والله لقد كنت

عندي بعيداً عنه، وإن عاودت تعريضاً بريبةٍ لا رأيت وجهي أبداً. فقال: والله ما قلتُ هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ولو علمتُ أنك تجيبينني إليه لضربتك بسيفي هذا.

فقال أبوها لأخيها: قُم بنا فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنَع هذا الرجل من لقائها. فانصرفا وتركاهما[1].

و تدور حول هذا الشأن حكايات شعبية كنا نتلقّاها من جداتنا وامهاتنا وهي من حكايات التربية الاخلاقية نسمعُ فيها أن فتىً وفتاة جمعهما حبٌ محرّم دون رضى الأهل فهربا إلى مكانٍ ناءٍ. ثم قادهما الوجدُ لأن يناما سويّة في فراش واحد، فعمد الفتى إلى سيفه ووضعه بينه وبين محبوبته لكي يمنع جسديهما عن التماسّ وهما في غيبوبة الكرى، وعندما يعثر الأهل عليهما ويرونهما في هذه الحالة الدالة على عفتهما يباركون حبّهما ويزوجان.

إن مثل هذه الحكايات لها تاريخ قديم في مأثورات الحب العذري ويلوح لنا أنها كانت داخلةً في معرفة السيّد الشريف الرضي (٩٧٠ – ١٠١٥ م) المشهور بِعفةِ غزله فنراه يتخذ لنفسه من مُجرياتها مشهداً قد يكون اصطنعه للوصول إلى الحالة الجهادية في الحب، فذكر عن نفسه أنه عندما تضاجعه الحسناء يعمد إلى سيفه فيضجعه بينهما بحيث يكون أقرب إليه منها، فإذا غفا (جَفنه) بَقيَتْ عين السيف ساهرة في (جفنه) ترقب الضجيعين وتمنعهما إذا امتدّا لبعضهما لريبةٍ. يقول:

تضاجعني الحسناء والسيفُ دونها ضجيعانِ لي والسيفُ أدناهما منيّ
إذا دَنَت البيضاء مِنّي لحاجةٍ أبى الأبيضُ الماضي فأبعدها عنّي
وإن نام لي في (الجفنِ) انسانٌ ناظر تيقَّظ عنّي ناظراً لي في (الجفنِ)[2]

١. الأغاني/ ٨/ ١٠٥/ طبعة دار الكتب.

٢. ديوان الحبّ العربي/ د. داود سلوم/٤٧. والابيات فيها جناس بلاغي في: البيضاء يقصد فتاته والابيض يقصدُ سيفه والجفن الاولى يقصد جفن عينيه والجفن والثانيه يقصد جفن سيفه أي غمده.

السيف في قصة تريستان وإيزولده

و عندما ننتقل إلى الغرب نجد السيف يلعب دوراً كدوره في الشرق في قمع الحب المحرم وذلك في قصة تريستان وإيزولد الشهيرة.

و قصة تريستان وإيزولد (أو إيزولده) ظهرت في بدايتها كحكاية في أوربا خلال القرن الثاني عشر ثم تناولها الكُتاب وأضافوا إليها فصارت ملحمة ثم مسرحية غنائية (أوبرا)[١].

و تدور فكرتها الرئيسية حول الحبّ المحرّم والخيانة الزوجية ولذلك سمّاها احد شُرّاحها بـ(ملحمة الزنى)[٢]. وهي تكادُ تشبه قصة الحبّ المحرّم والخيانة الزوجية بين جميل بن معمر العذري وبين بثينة (في نهاية القرن السابع الميلادي)، حيث نجد بثينة تخون زوجها مع جميل وتواعده سِرّاً كلما غاب الزوج وتضطجعُ معه في فراش واحد[٣].

((وتواعدا يوماً بمكان (ذي ضال) فتحادثا طويلاً. ثم قال لها: هل لكِ أن ترقدي؟ قالت: ماشئت وإنما أخاف أن نكون أصبحنا. ثم اضطجعا ونامت

١. (Tristan et Isolda) حسب الترجمة الفرنسية حكاية يُعتقد أنها سلتيّة الأصل. ظهرت في سكوتلاند ثم أعيدت كتابتها باللغة الانكليزية من قبل (ماثيور) و (أرنولد) ووصلت إلى ألمانيا فصاغ منها الشاعر الالماني (جوتفريد فون ستراسبورغ) رواية شعرية بنفس الاسم ثم اخذها الموسيقار المشهور (فاغنر Wagner) سنة ١٨٦٥ وحوّلها إلى مسرحية غنائية (أوبرا) وذاعت في أوروبا بعد هذا التاريخ ثم تناولها كتاب آخرون أقمحوا فيها ما لم يكن من أصلها. كلُّ كاتبٍ يبرزُ فيها الحدث الذي يستهويه ويطابق افكاره فتأتي القصة حاملة لرأيه وهكذا فقدت صورتها الأصلية. (ينظر/ New Webster's Dictionary and Thesaurus Tristan item).

٢. الحبُّ والغرب/ ديني دي رجمون/ ٢٥.

٣. الأغاني/ ٨/ ١١٦ ط. دار الكتب.

معه فلما أصبح انسلّ من الفراش وتركها نائمة))[١].

و تصل أخبار هذه اللقاءات السّرية إلى الزوج فيأخذ معه أباها وأخاها إلى الموضع فلا يجدون جميلاً لأن بثينة قد علمت بالأمر فاحتالت وسرًّبت حبيبها وأنامت احدى جواريها معها وتغطّيا. وعندما يرفع الزوج الغطاء لا يجد غير الجارية نائمة مع بثينة فيحرج أمام الأب والأخ.

كل هذه الأمور نجدها في (ملحمة) تريستان وإيزولده وخلاصتها: إن بطلَ القصة (تريستان) كان فارساً في بلاط الملك (مارك) ملك (كورن وول Corn Wall) في بريتاني وقد تحتّم عليه أن يرافق إيزولدة إلى كورنوول لتتزوج من الملك. وفي الطريق تعاطيا بالخطأ شراب (الحبّ السحري) الذي صنعته أم إيزولدة من (عشبة الحبّ) لتشربه ابنتها مع زوجها حتى يدوم حبهما إلى الموت. فلما شربته مع تريستان ارتبطت به فتواجدا وهامت به وهام بها. ثم تزوجت من الملك ولكنها بقت على علاقة مع حبيبها تريستان.

و في احد الأيام هربت إيزولدة مع حبيبها إلى الغابات فذهب الملك مع حاشيته يبحثُ عنها ليقتلها غسلاً للعار فعثر عليها في الغابة وقد نامت مع حبيبها في فراش واحد فرفع سيفه ليقتلهما ولكنه توقف عند رؤيته سيفاً مجرّداً بين جسديهما كان تريستان قد وضعه ليفصل بينهما.ففرح الملك لما أظهره السيف من دلالّةِ على عِفّةِ زوجته الحبيبة فلم يوقظهما وإنما أخذ سيف تريستان ووضع مكانه سيفه الملكي ثم رحل وتركهما نائمين. وقد اطلق على هذا السيف اسم (سيف العفة)[٢].

---

١. المصدر السابق/ ١٣٧.

٢. يمكننا أن نقارن رمز سيف العفة في مجتمعاتنا واشهرها (منديلُ البكارة) الذي يرفعه أهل العروس أمام الناس وهو ملطخٌ بدماء عذريّة ابنتهم كدليل على عفتها. وقد رأينا في بعض أرياف مصر أن الوالد هو الذي يرفع المنديل أمام أهل القرية بين الرقص والأهازيج والزغاريد. وفي مجتمعنا العراقي أن أم العروس هي التي =

و هنا يتسائل الباحث (دي رجمون) عن هذا السيف ويقول: "لماذا سيف العفة بين الجسدين في الغابة؟ لقد ارتكب العاشقان الأثم وهما يرفضان في ذلك الوقت الندم عليه وهما بعدئذ لا يتوقعان ابداً أن يفاجئهما الملك. ولا نجد بيتاً من الشعر أو كلمة واحدة في مختلف الروايات تعلل هذا العمل"[1].

في الواقع إننا نستطيع أن نَتَولّى التعليل ونقول: إنه يكمن في طبيعة الحبّ الذي نشأ بين العشيقين. فهو حبٌ محرّم قائم على الخيانة والخداع فكثيراً ما كانت إيزولدة تخدع زوجها بعفافها بمختلف الوسائل والحيل مثلما كانت بثينة تفعل مع زوجها. فمن ذلك ما أُشيع عن إيزولدة أنها شوهدت بين أحضان تريستان فلما جوبهت بالشائعة نَفَتها فكان عليها أن تثبت براءتها بامتحان النار. تمسك بقضيب مَحميٌ حتى الاحمرار فتقسم على نفي التهمة فإن كانت كاذبةً أحرق يديها وإن كانت صادقةً لم يؤذها. فتقدّمت إلى الامتحان بَتَحدٍّ واقسمت بأنها لم تكن بين ذراعي رجلٍ آخر غير زوجها، ثم اضافت ضاحكةً: إلا ذلك الملاّح الذي ساعدها على عبور النهر. ولم يكن ذلك الملاح سوى تريستان متنكراً بثياب ملاح. ثم امسكت القضيب فلم يؤذها وخرجت من الامتحان بريئة[2].

= ترفع المنديل أمام النساء ثم تز غرد معها النساء فيعرف الرجال من أهل العروس المنتظرون في الغرفة المجاورة أن فتاتهم عذراء. وتحتفظ العروس بهذا الرمز بين طّيات مكنوزاتها مدةً طويلة. ويبدو أنه لما لم يكن للبكارة اهمية في المجتمعات الاوروبية صار السيف الفاصل بين الحبيبين رمزاً للعفة.

١. الحبُ والغرب/ المصدر السابق/ ص ٣٣.

٢. يسمّى هذا الامتحان بـ(الامتحان الألاهي) أو (الأورداليا). مارسته الشعوب القديمة بطرقٍ مختلفة منها (الامتحان بالنار) لمعرفة المتهم إذا كان صادقاً أو كاذباً. وهي عند بدو الصحراء يطلق عليها اسم (البشعه) وتكون بإحماءِ حديدة حتى الاحمر ويقسم المتهم على براءته ثم يلعَقُ الحديدة بلسانه فإذا كان صادقاً لم تضره وإذا كان كاذباً احرقته. (للتفصيل ينظر/ علم الاجتماع البدوي/ صلاح مصطفى الفوّال/ ص ٢٧٨).

أما (سيف العفّة) الذي وضعهُ تريستان بينه وبين حبيبته فقد كانت (ثيمَتُهُ) ضرورية الوجود في القصة لإتمام حبكة الخداع الذي كان يمارسه الفارس لإيهام مليكه بعفّةِ علاقته. وعلى هذا يصِحُّ أن نسميه (سيف الخداع) ولا يمكن تشبيهه بسيف الشريف الرضي الآنف الذكر فذلك السيف هو (سيف العفّة) حقاً.

و يبدو لنا أن حكاية سيف الشريف الرضي كانت معروفة لدى شعراء أوربا، انتقلت إليهم عن طريق الإتصال بالعرب فأخذوها واقحموها في حكاية تريستان وإيزولدة اقحاماً بغير تعليل.

يقول الدكتور محمد غنيمي هلال: إن قصص الحبّ العفيف كانت غريبةً على معرفة الآداب الأوربية حتى القرن الحادي عشر. وعندما ألف (اندريه لوشابلان) كتاب (فن الحب العفيف) لم يكن لهذا النوع من الحب إدراك في الأدب الاوربي حتى ذلك العهد . . ثم يقول: "ومن المقطوع به أن هذا الإدراك الجديد للحبّ – في القصة والشعر معاً – قد شاع على أثر اتصال الغرب بالشرق إما في الحروب الصليبية أو عن طريق العرب في الاندلس"

و حسب هذا الرأي ليس من الخطأ أن نقول: إن جزئية (سيف العفة) قد انتقلت عن هذا الطريق إلى الادب الاوربي من مأثورات الآداب العربية فأُقحمت في سياق قصة تريستان وإيزولدة إقحاماً فبدت ناشزة عن سياق القصة المفعم بمشاهد الخداع والخيانة الزوجية.

في طريق الإباحة

جاء في كتبِ الحبّ إنّ اعرابياً سُئَل: أيسُرك أن تظفرَ بمحبوبتك؟ قال: نعم. قيل: فما تصنع بها؟ قال: أطيعُ الحبّ في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها.

إننا هنا أمام فلسفة أخرى لمفهوم القبلة. والمفهوم هذا ينطلق من مناخ البداوة الذي هو عالم الطبيعة الحرّة. ويبدو أن هذا الاعرابي عرف شيئاً من

الدين فاستجاب لنواهيه على أقل تقدير فسار متوسطاً بين غِراس طبيعته وبين محرّمات دينه دون أن يقطع الصلة بين الاثنين فأباح لنفسه القبلة إرضاءً لنازع الطبيعة المتغلب عليه ثم جعل ما يعقبُ ذلك من ممارسات حراماً ترضية لدينه.

و ثمَّةَ مدرسة توفيقية أخرى انبثقت من رحاب العالمِ ذاته فُصِل فيها بين القبلة وما شاكلها من التعاطفات وبين الممارسة الجنسية فجُعِلت القبلة لإغذاء الحبِّ وجعلت الحاجة الجنسية لطلب الولد. يظهر هذا في قول أعرابي آخر سُئل ما ينالُ احدكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال: القُبَلُ وما شاكلها. قيل: فهل يتطاولان إلى الجماع؟ قال: بأبي وأمي . . هذا ليس بعاشقٍ . . هذا طالبُ ولد.

ثم ما لبث هذا المبدأ أن انبث بين سائر العشاق في سائر المجتمعات، فسار الكثير منهم على نهجه معتبرين القبلة وما شاكلها من الحلال الطيب. يقول احدهم:

إذا كانَ حَظُّ المرءِ مِمَّن يُحبه ... حراماً فحظّي ما يحلُّ ويجملُ

حديثُ كماءِ المُزنِ بين فضولِهِ ... عِتابٌ به حُسنَ الحديث يفصَّلُ

ولثمُ فمٍ عذبِ اللِّثاتِ كأنّما ... جَناهنّ شَهدٌ فُتَّ فيه قرنفُلُ

وما العِشقُ إلا عِفَّةٌ ونزاهةٌ ... وأُنسُ قلوبٍ أُنسهنَّ التغزُّلُ

لقد لاح لنا أن نبتدئ بحبِّ البداوةِ لإعتبارنا إياه هو الأصل بحكم تدرّج المجتمعات البشرية في النشوء والارتقاء ثم لنحتجَّ به على مقالة الفيلسوف الاسلامي (صدر الدين الشيرازي)[1] المعروف بـ(الملاّ صدرا) التي يقول فيها:

---

١. الصدر الشيرازي محمد بن ابراهيم المتوفي سنة (١٠٥٩هـ = ١٦٤٩م) فيلسوف من القائلين بوحدة الوجود. فارسي الاصل، اسلامي الثقافة. كان يُعرف بـ(الآخوند) أي (الاستاذ). من كتبه: اسرار الآيات والأسفار الاربعة في الحكمة اربعة اجزاء =

ز إن اكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم
والصنائع اللطيفة والآداب والرياضيات
مثل أهل فارس والعراق وأهل الشام والروم
غير خالية من هذا العشق اللطيف . . ولكن
وجدنا سائر النفوس الغليظة والقلوب
القاسية والطبائع الجافية من الاكراد
والأعراب والترك والزنج خالية من هذا
النوع من المحبّة وإنما اقتصر اكثرهم على محبّةِ
الرجال للنساء ومحبة النساء للرجال طلباً
للنكاح والسِّفاد كما في طباع سائر الحيوانات
المرتكزة فيها حبٌّ الازدواج والسفاد
والغرض منّها في الطبيعة ابقاءُ النسل"[١]

ويتبين لنا من كلامه أنه قَصَرَ العشقَ اللطيف على اهل الحضارة وجرّد أهل البداوة منه بسبب غلظ طباعهم حسب قوله.

في واقع الحال أن كلامه يناقض حقائق التاريخ الاجتماعي فإن كتب الآداب تشهد على إن مصدر الحبّ اللطيف والغزل الرقيق لم ينبع إلا من بيئة البداوة. ويستطيع من يَتَنَخَّل شعرهم أن يعثر على افكار ونظريات خاصة بهم ابتدعوها في هذا المجال تُدَلِّل على تمرّسهم بالحبّ اللطيف

= والشواهد الربوبية والمشاعر في الفلسفة واكسير العارفين وله ابحاثٌ في اتصاف الماهية بالوجود. وللمحروم الاستاذ هادي العلوي دراسة في فلسفته بعنوان: نظرية الحركة الجوهرية لدى الصدر الشيرازي (ينظر/ الاعلام للزركلي/ ٥/ ٣٠٢).

١. الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية/ الجزء الثاني من السِّفر الثالث ص ١٧٢٥. ولابد أن نذكر أن هذه الفكرة قال بها اخوان الصفاء قبله فاستعار هامنهم وغير فيها لتتلائم مع افكاره (ينظر/ الحب/ عمر رضا كحالة/ ١٢١).

وإدراك قِيمه الروحية الاصيلة. فهل نَسيَ الرجل أن الصوفيّين استمدّوا فلسفة حبهم الإلاهي من حب العذريين وأن مثلهم الاعلى في الحبّ الصوفي هو قيس بن الملّوح العامري وما قيسٌ سوى عاشق بدوي أحبَّ بأسلوبٍ نابع من بيئته مترعٍ بالاستبطانات الروحية.

يذكر التاريخ إن الكثير من علماء المدينة هاجروا إلى البوادي وساكنوا اهلها يأخذون منهم أصول اللغة واصول الحب. فهذا الاصمعي يروي أنه سأل اعرابيةً: ما تعدّون العشقَ فيكم؟ قالت: العناق والضمّةُ والغمزة.

و سُئل اعرابيٌ عن الحبِّ قال: مصُّ الريق ولثم الشفةِ والأخذ من أطايب الحديث[1].

و وصفَ اعرابيٌ الحبَّ فقال: إن لم يكن جنساً من الجنون فإنه لعصارةٌ من السّحر[2]. وهذا التعريف هو نفس ما قاله افلاطون عنه: ما أدري ما الهوى غير أنه جنون[3]. فهل يمكن أن يقال أن هذا الاعرابي عرف فلسفة افلاطون؟

و ذكر اعرابيٌ الهوى فقال: هو أعظم ملكاً في القلب من الروح في الجسم وأملكُ من النفس بالنفس، يظهر ويبطن ويكشف ويلطف.

و قال اعرابي: من لا يعشق فهو رديء التركيب جافي الطبع وقد ردّدَ شعراء المدينة قوله هذا في اشعارهم فقال أحدهم:

إذا أنت لم تعشَق ولم تدرِ ما الهوى   فكن حجراً من يابسِ الصخرِ جلمدا

و قال الرّبَعي: سمعتُ اعرابيةً تقول: "مسكينٌ العاشق، كل شيء عدوّه. هبوب الريح يقلقه، ولمعان البرق يؤرّقُه، ورسوم الديار تحرقه، والعَذلُ يؤلمه، والتذكرّ يسقمه، والبعد والقُرب يهيجُه، والليلُ يُضاعِفُ بلاءه،

---

١. الواضح المبين في ذكر من استشهد من العاشقين/ الحافظ مغلطاي/ ٨٥.

٢. ذم الهوى/ ٢٩٢.

٣. الحب/ عمر رضا كحالة/ ٨.

والرقاد يهرَبُ منه. ولقد تداويت بـالقرب والبعدِ فلم ينجح فيه دواء ولا عَزَّ به عزاء"[1]. وليس يقول هذا إلا من عانى وجرّب.

يقول علماء اللغة أن العربَ أشتقّوا مصدر (العشق) من طبيعةِ نبتةٍ تنمو في بواديهم هي (العَشَقَة) نبتةٌ نحيلةُ الساق تشبه نحول المحبّ. ومن طبيعتها أنها تتعشّقُ الشجرةَ بقربها فتلتفُ عليها كالتفاف المحبَّين مع بعضهما. قال ابن دريد: زَعَم ناسٌ إن العشقةَ هي (اللبلابة) وزعم الزجّاج أن اشتقاق العاشق منها[2].

و اللبلابةُ نبتةٌ معرشةٌ يعرفها بستانيو الحدائق، يزرعونها قرب الأعمدة فتلتفُّ عليها وتعطي في الصباح زهرة بوقيةً جميلة مختلفة الالوان وفي الليل تنغلق فتنام وبهذا فقط خالفت صفةَ العاشق لأن العاشق لا ينام. وفي الشتاء يعتريها الذبول فتصفرُّ اصفرار العاشق ثم تموتُ كما تموتُ إلهة الخصب شتاءً لتعود في الربيع دافقةً بالحياة.

و يطول بنا المقال لو نحنُ مضينا في حدائق العشق البدوي ونكتفي بما قدمناه وأحسب أن فيه غنىً ومقنعاً لنقضِ مقالة الصدر الشيرازي.

تخريج إباحتها في القرآن الكريم

تتعدّد آراء مفسري القرآن الكريم الذين اختصّوا بهذا العلم لدى تصدّيهم لشرح الكثير من آياته المغلقة بسبب تعدّد الروايات الأصلية الواردة عن المفسرين الأوائل وتقاطعها احياناً وبسبب امتلاء المفردة العربية بالمعاني المختلفة مما يجعل أمر الاحتمال في تفسير الآية مفروضا، ووجهة النظر فيها مقبولة.

و لذلك قيل أن القرآن حمال أوجُه وذلك في وصيّةِ الإمام عليٍّ عليه

---

١. الحبّ/ المصدر السابق/ ١٥١.

٢. معجم اسماء الديانات الواردة تاج العروس/ ١٠٣.

السلام لابن عباس – وهو من المفسرين الاوائل – عندما بعثه للأحتجاج على الخوارج فقال له: لا تحاجّهم القرآن فإن القرآن حمّالٌ ذو وجوه تقولون ويقولون ولكن حاجَّهم بالسنّة[1].

و يستطيع صاحب كل مذهب ومقالة أن يجد في القرآن ما يدعم به مذهبه ومقالته. لذا تعدّدت المذاهب وتفرعت وانقسمت وتضاربت وتعادت وكفّرت بعضها وحلَّلت قتلهم وقتل اطفالهم واللائذين بهم مع أن الجميع اصحاب قبلة واحدة وشهادة واحدة وهو ما يحدثُ في العراق اليوم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

و على أيّة حال فإننا نُعَدّي عن هذه الصورة المحزنة ونَكلُ امرها إلى الله ليحكم فيها ونعودُ إلى لطافة موضوعنا فنقول: إن العشاق وجدوا عِند المفسرين حلاً لإشكالية حبهم – الذي هو محرّم في المبدأ العام للإسلام – فتعلّقوا بتفسير بعض الآيات ومنها الآيات الخاصة بالقضاء والقدر وحُريّة الإرادة ويوم الميثاق الذي أخذه الله على الخلق قبل أن يوجدوا فحللوا عن طريقها حبهم على أساس أنه لا مفرّ منه ومقدّر عليهم قبل خلقهم وهم مجبرون فيه لا مخيّرون.

يقول قيس:

تعلَّقَ روحي روحها قبل خلقنا ومن بعد أن كنا نِطافاً وفي المهد

و يقول جميل مبرراً حبَّه المحرّم لبثينة:

لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه في ملامتِه رشدي

فقلتُ له فيما قضى الله ما ترى عليَّ وهل فيما قضى الله من ردٍّ؟

ثم وجدوا في آية (اللَّمَم) مخرجاً لتحليل القُبلة والضمَّة واللثمة.

و آيةُ (اللَّمَم) هي قوله تعالى من سورة (النجم/ ٣٢) "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ

١. بحار الأنوار/ المجلس/ ٢/ ٢٤٦ الطبعة الثانية.

كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى".

قال المفسرون: اللَّممُ صغائر الذنوب والتحرّر منها غير ممكن وجاء أنه (ص) تمثَّل بقول أُمية بن أبي الصلت:

إن تغفر اللَّهم تغفرِ جَمّا   وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا

أي: لم يلَمَ فإن (لا) مع الماضي بمنزلةٍ له مع المستقبل.

وقيل (اللَّمم) أن يلم بالذنب ثم لا يعود فيه[1].

واللَّمم مغفورٌ جملةً كما في (المحلّى) لابن حزم[2].

و في تفسير اللمم هو الرجل يصيب الفاحشة يلمُّ بها ثم يتوبُ عنها واللَّممُ يمسح بالاستغفار.

ذلك بالنسبة للمعنى أما الماهيّة فاللممُ هو – حسبَ تفسير الجمهور – ما كان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة. وعن ابن مسعود: أن اللَّمم زنا العينين بالنظر وزنا الشفتين بالتقبيل[3].

و هكذا سهَّل المفسِّرون للعشاق اقتطاف القبل دون أن ينالهم عقاب الله إذا استغفروا وتابوا.

أما الفقهاء فقد أوجبوها لمن وصل به الحبُّ إلى حدٍّ يخافُ عليه الموت ففرضوا على المحبوب بذلها لما في منعها من سببٍ يؤدي إلى قتل نفس.

و يفهم من بعض شعر العشاق أنهم اتخذوا تلك المعاني في اللَّمم وسيلة لأقناع المحبوبة إذا امتنعت من بذل القبلة وتذرعت بالحرام. قال يوسف

---

١. المُغني/ ابن قدامة/ ١٢/ ٣٢.

٢. ابن حزم الاندلس ج١ ص ٤١.

٣. المستدرك/ الحاكم النيسابوري/ ٢/ ٤٧٠.

بن الماجشون: أنشدتُ محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن:

إذا قلتُ هاتي نوِّليني تبسَّمَت وقالت: معاذَ الله من فعلِ ما حرَمَ

فما نوَّلَتْ حتى تَضرّعتُ حولها وعرّفتُها ما رخَّص الله في اللّمم

فضحك وقال: إن كان وضاحُ اليمن لفقيهاً في نفسه[1].

و قد احتج بآية اللمم (صاحب القِيان) الذي يطلق عليه اسمُ (المُقَيِّن) وهو الذي يُسَهِّل لعاشقي قيانه المغنيات مكالمتهن ومفاكهتهن ومغازلتهن وتجميشهن ومصافحتهن ووضع اليد عليهن للتقبيل والنظر، فإن ذلك حلالٌ عنده ما لم يَشُبهُ ما يحرم[2].

و نخلص من هذا إلى القول بإن الرغبات والأهواء قد استثمرت تفسيرات القرآن الفضفاضة لصالحها. ولا نستبعدُ أن يكون للتطور الاجتماعي والاختلاط الإثني يدٌ فيها حيث انتشر بعد الفتوحات الواسعة عشقُ القيان والجواري والغلمان بالإضافة إلى عشق الحرائر فأصبحت لا تَجد احداً إلا وهو عاشقٌ أو معشوق أو يحبذ العشق أو يفتي به إذا كان من أصحاب الفتيا.

إباحتها في حديث (الشهادة بالعِشق)

و جاء حديثُ (من عشق فمات دَخَل الجنّة) أو (من عشق فمات فهو شهيد) أو (من عشق فعفَّ فمات فهو شهيد) المنسوب إلى النبي ففتح أمام الناس باب الإنحباس العاطفي والرؤية المتجهّمةَ تجاه الحب، فخرج العشاق من عُزلتهم وأغرقوا انفسهم بالحبّ العفيف العنيف حتى الموت طلباً للشهادة.

و قد فَضَّل احدهم بسببه وهو جميل بثينة أن يكون مقتولاً بالحبّ على

---

١. شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد/ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم/ ٢/ ٢٣٨.

٢. كتاب القيان/ الجاحظ/ مطبوع في رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ج٢ ص ١٦٤.

أن يكون مقتولاً بالحرب ما دام أجرُ الاثنين واحداً هو الجنّة. فلما طلبوا منه أن يجاهد بغزوةٍ قال:

يقولون جاهد ياجميلُ بغزوةٍ وأيَّ جهادٍ غيرهن أُريد
لكلٍّ حديثٍ بينهنَّ بشاشةٌ وكلُّ قتيلٍ عندهن شهيدُ[1]

و ذلك الحديث مرويٌّ بأسانيد كثيرة ومتون مختلفة. قال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجَهُ ابو بكر الخطيب في التاريخ عن حديث ابن عباس. ورواه الخرائطي من غير طريق. والحديث مقبولٌ عند الظاهرية والحنبلية ويذكر له ابن الجوزي إثني عشر إسناداً. وقَبِلهُ ابن العربي في (محاضرات الابرار).

و لكن طعن بعضهم بالحديث وشكّكَ فيه. قال ابن المرزبان: حدّثني ابو بكر ابن الازرق هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي (ص) فعاتبتُهُ على ذلك فأسقط ذكر النبي، فعاتبته على ذلك فكان يُسألُ بعد ذلك عن الحديث فلا يرفعه[2].

و قد ظهرت للحديث حواشٍ وشروح وخُرِّجت له تشريعات فقهية تُحلّل هذا الجانب من الحب وتحرِّم ذاك الجانب. فمنها ما روي عن الحافظ قوله: سُئِلَ شريك بن عبد الله عن العشاق فقال: اشدّهم حُبّاً اعظمهم أجراً. وشريك هذا عالم بالحديث فقيه، استفتاه المنصور على الكوفة سنة (١٥٣ هـ).

و فسَّرَ بعض الفقهاء (العِفَّةَ) بأنها عدم التجاوز إلى ما سوى التقبيل والالتزام بالجوارح فإذا اقتنع العاشق بهذا كان عفيفاً وإن تمادى اعتبر مخالفاً للشرع.

و احتجَ فقهاء آخرون بحديث الرجل الذي قال لرسول الله (ص): يارسول

---

١. الأغاني/ ٨/ ١٠٤.

٢. ذم الهوى/ ٣٢٩. وانظر: الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية/ محمد غنيمي هلال ص ٣٢.

الله، إنّي لقيتُ امرأةً أجنبيّةً فأصبتُ منها كلَّ شيءٍ عدا النكاح. فقال له: أصلَّيت معنا؟ قال: نعم قال: أن الله قد غفرَ لك[1].

و على هامش الحديث المذكور قسَّم ابن تيمية مقامات العاشق إلى ثلاث: ابتداء وتوسط ونهاية. أما ابتداؤه فواجبٌ عليه الكتمان. فإن زاد به الحال إلى المقام الثاني وهو الاوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بحبّه اياه فيخفّف باعلامه وشكواه إليه ما يجدُ منه. فإن زاد به الأمر حتى خرجَ عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوَسين، فانقسم العشاق إلى قسمين: قسم تَمتَّع بالنظرة بعد النظرة فمنهم من يموتُ وهو هكذا ولا يظهر سرّه لأحدٍ حتى محبوبه لا يدري به وهذا هو المقصود بقوله (ص): "من عشقَ فعَفَّ فكَتَمَ فمات فهو شهيد".

و القسم الثاني: أباحوا لمن وَصَلَ إلى حدّ التلَف، القُبلةَ في ذلك الحين. قالوا: لأن تركها قد يؤدي إلى هلاك النفس والقبلةُ صغيرة وهلاك النفس كبيرة وإذا وقع الانسان في مَرَضين، داوى الأخطر ولا خطر أعظم من قتل النفس حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا عَلِمَ أن ذلك يؤدي إلى هلاكه واحتجّوا بقوله تعالى: ((إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً)) (النساء: آية/ ٣١)[2]

ثم يخلص ابن تيميّة إلى القول: بان هذا العاشق كان - كما يزعم - مِمّن لا يدنّس عشقه بزنى ولا يصحبُهُ بِخَنى فينظَرُ إلى حاله فإن كان من الطبقة الاولى فالنظر كافٍ لهم إن صدقت دعواهم. وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كي يَرقَّ عليه ويرحمه وان غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة ابيح له ما ذكرنا شرط ألا يكون أنموذجاً لفعل

---

١. روضة المحبين/ ابن القيّم ص ١١٩ وفي الهامش: اخرجه الترمذي ايضاً عن طريق آخر وضعَّه وكيع وابن المديني.

٢. روضة المحبين/ المصدر السابق/ ١١٨.

القبيح المحرّم.

و يعلّقُ ابن القيّم على ابن تيمية فيقول: ولا ريب ان الشريعة جاءت بالتزام الدخول في أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما فإين مفسدةُ النظر والقبلةُ والضمُّ من مفسدةِ الجنون والمرض أو الهلاك جملةً؟[1]

الترخيصُ بها في الفتاوى الشعرية

و بالإضافة إلى احتجاج الناس بالقرآن والحديث النبوي في إجازة قبلة الحبيبين وتسهيل شأنها للعاشقين، ظهر ما يمكن أن نسميَهُ بـ(الفتوى الشعرية) وهي فتوى منظومة يصوغها شاعرٌ يزعم إنه استفتى بها إماماً مشهوراً من أئمة المسلمين فأباحها له.

و أغلب هذه الفتاوى مكذوبةٌ على اولئك الائمة مما نستدل من خلالها على وجود حريّة في القول مطلقة في ذلك العصر حتى أنها يمكن أن تصل إلى حدّ الاستخفاف بالفقهاء والسخرية من رجال الدين والخروج على مُحرّمات الشرع.

و لايستطيع المفتي المفترى عليه أن يفعل شيئاً سوى أن يقوم بلعن الشاعر وشتمه. وربما يبلغ به التأثر حدّاً يجعله يجهشُ بالبكاء تألماً من جرّاء الافتراء.

فمن ذلك ما رواه (ابو نواس)[2] عن المحدّث اسحاق بن يوسف الازرق[3] في أبيات قالها متغزلاً – فيما يبدو – بغلام:

يا ساحر المقلتين والجيدِ وقاتلي منه بالمواعيدِ

---

١. م. ن./ ص ١٢٠.

٢. ابو نواس، الحسن بن هانيء الشاعر العباسي المشهور توفي سنة ١٩٨ هـ

٣. اسحاق بن يوسف الازرق بن مرداس المخزومي محدّث من واسط توفي سنة ١٩٥هـ

توعدني الوصلَ ثم تخلفني ويلاه من مخلفٍ لموعودِ

حدّثني الازرق المحدّثُ عن شمرٍ وعوفٍ عن ابن مسعودِ

لا يخلف الوعدَ غيرُ كافرةٍ أو كافرٍ في الجحيم مصفودِ

فلما وصلت الابيات إلى الازرق بكى وقال: كذِبَ والله عليّ وعلى التابعين وعلى الصحابة[1].

و من تلك الفتاوى قول الشاعر الحجازي (جامع بن مُرخية):

سألتُ سعيدَ بن المسيب مفتي الـ.. مدينة هل في حبٍّ ظمياء من وزرِ

فقال سعيد بن المسيب إنما تلامُ على ما تستطيع من الأمر

فَبَلَغَ قولهُ سعيداً فقال: كذب والله ما سألني ولا أفتيته بما قال.

و لكن أنّى للمفتي ان يوصل صوته إلى الناس ويعلن براءته من الفتوى والأبيات تسري بينهم مسرى النار في الهشيم؟

و لا شكَّ أن البعض كان يؤمن بهذه الفتاوى ويصدقها من دون تفكّر وتحقيق ويعتبرها كفتوى شرعية سليمة يجوز السير عليها بل قد يتحتّم الوجوب ما دامت تحمل اسم المفتي الكبير.

و من تلك الفتاوى ما نسب إلى (الامام مالك) والليّث حيث جاء في (رستاق الإتفاق) لأبي الرقعمق[2] إن عمرو بن سفيان قال:

إنا سألنا مالكاً وقرينَه ليثَ بن سعدٍ عن لثام الوامق

أيجوز؟ قالا والذي خلَقَ الورى ما حرّم الرحمن قبلة عاشق[3]

---

١. روضة المحبين/ ابن قيم الجوزية/ ١٢٦.

٢. هو أحمد بن محمد الانطاكي الشاعر المشهور بمصر له شعر كثير وهو للشاميين كابن الحجّاج للعراقيين. شاعر فكه تصرّف بالشعر جداً وهزلاً ومجوناً وهو احد شعراء اليتيمة ومن المدّاح المجيدين اقام بمصر طويلاً وفيها مات سنة ٣٩٩هـ.

٣. الواضح المبين في ذكر من استشهد من العاشقين/ مغلطاي/ ٩١.

و يعلّق ابن القيّم على هذا الخبر بقوله: وأما صاحب (رستاق الأتفاق) وهو شاعر المصريين فلعمر الله لقد أفسدَ إذ أسند فإنه الفاسق الماجن المسمّى ابا الرقعمق ولكن لا ينكر هذا المتن بهذا الاسناد فإنه لايليق إلا به[1].

و قد سار كثيرٌ من الشعراء على هذا النحو ولم تمنعهم عنه احتجاجات الفقهاء ولعناتهم وشتائمهم لأن روحيّةَ ذلك العصر كانت توّاقةً للإنفتاح تكره التحجّر والانغلاق مما جعل صوت العاطفة يعلو على صوت الزواجر الدينية فأُخذت اقوال الشعراء الوجدانية مأخذ القبول والاقتناع واهملت اقوال الفقهاء رغم دلالاتها العقلية والنقلية.

و بالاضافة إلى ذلك فقد تمكن بعض الشعراء بأساليبهم الفنية من حرف فتوى المسألة الشرعية عن غايتها الأساسية وجعلها تنصبُّ في إطار غاياتهم. فمن ذلك ما صنعه شاعر مصر اسحاق بن معاذ بن زهير بفتوى عبد الله بن احمد بن حنبل بخصوص تقبيل المُعزّى ومعانقته عند التعزية فأوجبه. فأخذ الشاعر الفتوى وموّه بها جاعلاً معناها ينصرف إلى تقبيل المحبوب وضَمّه. اسمعه يقول:

إنا سألنا إمامَ الناس نجل بن حنبلٍ ... عن الضمِّ والتقبيل هل فيه من باسِ
فقال: إذا جَلَّ العزاءُ فواجبٌ ... لأنك قد احييتَ عبداً من الناس

و روى ابو العباس المبرَّد في الكامل بيتين أنشدهما له أبو العالية هما:

سألتُ الفتى المكيّ ذا العلم ما الذي ... يحلُّ من التقبيل في رمضانِ؟
فقال لي المكي: أما لزوجةٍ ... فسَبّعٌ وأما خُلَّةٌ فثمانِ

أي أنه احل له في رمضان تقبيل الزوجة سبعاً وتقبيل الخليلة ثمانٍ. ويعلق ابن القيم على هذا الخبر.

---

١. روضة المحبين/ ١٢٨.

فيقول: "أن هذا المستفتي والمفتي لا يُعرَفُ واحدٌ منهما حتى يقبل خبرُه"[١] ولكن يبدو أنه قبل حسب شرع الهوى.

و عمد بعض الشعراء إلى صياغة الفتوى بشكل ساخر وكأنما أرادوا بذلك انتقاص هيبة رجل الدين واسقاط سلطته المقدسة بين المسلمين. فهذا احدهم قال:

أقول لِمُفتٍ بين مكة والصفا ... لك الخير هل في وصلهنّ حرامُ

وهل في صَموت الحِجل مهضومة الحشا ... عِذابِ الثنايا إن لَثِمتُ أثامُ

فقال لي المفتي وسالت دموعه ... على الخدِّ من عينيه فهي تؤامُ

ألا ليتني قبّلتُ تلك عشيةً ... ببطن مِنىً والمحرمون نيامُ[٢]

و لَكَ ان تتصور شعور الناس عندما يستمعون إلى فتوى رجل الدين هذا كيف ينظرون إليه وهو بهذه الخفّةِ والصباوة.

ثم اتخذت هذه الفتاوى منحىً آخر حيث دخلت في الصراع بين المذاهب. فكان الشاعر يقولها وينسبها إلى زعيم المذهب الذي يبغضه بقصد تسفيه دعاواه ومقالاته توصلاً إلى اسقاطه في أعين الناس. فمن ذلك ما نسبه احد الشعراء إلى زعيمي المعتزلة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء بإنهما سُئلا عن ضمّ المحبوب وتقبيل خدّه وجيده فأجازاه. قال:

سألنا ابا عثمان عمراً وواصلاً ... عن الضمِّ والتقبيل للخدّ والجيدِ

فقالا جميعاً: والذي خلق الورى ... يجوز بلا إثم فدَع قول تفنيدِ

فأخذ ابن القيم هذه الفتوى المزعومة مأخذ الجدّ واتهم الرجلين بالابتداع قائلاً: سفأما ابو عثمان المذكور وهو عمرو بن عبيد وواصل بن

---

١. الخبر في روضة المحبين وفي الكامل ص ٣٧٤.

٢. صموت الحجل: كناية عن اكتناز الساق وامتلائها. مهضومة الحاشا: كناية عن نحول الخِصر. والخبر في (روضة المحببن) ص ١١٤.

عطاء وهما شيخا القوم ولو أفتيا بذلك لكانت فتيا من مبتدعَين مذمومين عند السلف والخَلَف فكيف والمخبر بذلك رجلٌ مجهول من المعتزلة كذب على من يعظمهما المعتزلة لينفق فِسقهُ"[1].

و تمسَّك العشاق المثليون الشواذ بفتاوى مكذوبة نُسِبت إلى بعض أئمة المسلمين تحللّ عشقهم للذكور. نذكر منها هذه الفتوى التي نسبت إلى التابعي المشهور سعيد بن المسيب حيث ذكر الاسترابادي في (مناقب الشافعي) إن رجلاً كتب إلى سعيد بن المسيب قائلاً:

يا سيِّد التابعين والبَرَرة | نسيتُ في العشق سورةَ البقره
فكن بفتواك مشفقاً رَفِقاً | باهى بكَ الله اكرمَ البَرَره
هل حرّمَ الله لثمَ خدٍّ فتىً | اوصافه بالجمال مشتهره؟

فأجابه سعيد بن المسيب:

يا سائلي عن خَفيٍّ لوعته | عليكَ بالصبرِ تحمَدَن أثره
ولا تكن طالباً لفاحشةٍ | أو كالذي ساق سيلَهُ مَطَره
وراقب الله واخشَ سطوته | وخالف العاشقين والفَجَره
وقبّل الخدَّ من حبيبك ذا | في كلِّ يومٍ وليلةٍ عَشَره[2]

و قد يكون هذا الشاعر يهدفُ من وراء هذه الفتوى المختلقة دعم موقف بعض الصوفيين الذين تمبدأوا بعشق الغلمان الحسان للوصول إلى عشق (الجميل الأعلى) على اساس أنه جميلٌ يحبُّ الجمال... وقد انغمر اولئك الصوفيون بهذا النوع من الحب إلى درجة إتيان المنكر معهم. فذكر أن صوفياً مرَّ به شابٌ جميل فجعل يتبعه ببصره فأنكر عليه أحد جلسائه وقال له: هذا لايصلح لمثلك. فقال الصوفي: إني أرى فيه صفات معبودي

١. روضة المحبين/ ١٣٠.

٢. الواضح المبين/ المصدر السابق/ ٨٩. وروضة المحبين ١١٤.

وهو مظهرٌ من مظاهر جماله. فقال: له الجليس: لقد فعلَتَ به وَصَنَعت!!
فقال: وإن[1].

وهكذا انفتحت أمام العشق ابواب الفجور والفسق.

و من تلك الأبواب باب التكفير عن إثم القبلة المحرّمة ببعض وسائل التكفير السهلة الميسورة كالصيام وإطعام المساكين حسب ما أورده الفقهاء في مسائلهم فقال أحد الشعراء:

لعَمري إني ما صبوتُ وما صَبَت   وإني إليها من صباً لَحليمُ
سوى قبلةٍ استغفرُ اللهَ ذنبها   وأُطعمُ مسكيناً بها وأصومُ[2]

و لو كان أثم التكفير صعباً قاسياً لما تحمّلته أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك عن قبلة كثيرّ لعزة[3] عندما قالت لها: أخبريني عن قول كثير:

قضى كلُّ ذي دَينٍ فوفّى غريمَهُ   وعزَّةُ مَمطولٌ مُعَنّى غريمها

أخبريني ما ذلك الدين؟

قالت: وعدتُهُ قبلةً فَحَرجْتُ منها. فقالت أمُّ البنين: أنجزيها وعليَّ إثمها[4].

القبلة في مقالات الفلاسفة

أما الفلسفة فإنها عندما تتعرّض للقبلة تجعلها داخل إطار (الوجود) الذي يقومُ اساساً على مبدأ (التعاشق).

---

١. روضة المحبين/ ١٢٣.
٢. عيون الاخبار/ ابن قتيبة/ ٤/ ٩٤.
٣. كثيرٌ بن عبد الرحمن بن الاسود بن عامر الخزاعي. شاعرٌ متيمٌ مِن شعراء المدينة اشتهر بعفة حبّه لعزة فقيل (كثير عزة). وسُئل يوماً: هلْ نِلتَ من عزّةَ شيئاً طول مُدّتك معها؟ فقال: لا واللّه إنما كنتُ إذا اشتد بي الوجد أخذتُ يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدتُ لذلك راحة. توفي في المدينة سنة ١٠٥ للهجرة.
٤. عيون الاخبار/ المصدر السابق/ ٩٢.

يــقــول الــفــيــلسوف الـصدر الشرازي: "فــالـعشقُ والشوق سببُ وجـود الموجودات على كمالاتها الممكنة لها وسبب دوامها ولولا العشق والشوق ما أمكن حدوث حادث للعالم الجسماني"[1].

وهذا قول متصلٌ بفلسفة إخوان الصفاء الذين نقلوا عن الحكماء قولهم: إن المعشوق الاول هو الله والفلك إنما يدور شوقاً إليه وبحبّه[2].

و يقول ابن قيم الجوزية: "إن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبّة ولأجلها وإن حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كلٍّ متحرك إنما وجدت بسبب الحب"[3].

و خلاصة هذه الاقوال إن الانسجام الكوني هو تحصيل حاصل للروابط العشقية التي تشدّ اجزاء وعناصر الكون ولولاها لأنفرط عقده المنتظم البديع.

و بفضل تلك الروابط التأمت البنية الاجتماعية القائمة على علاقة الذكر بالانثى. فلولا العشق الذي يربط بين الاثنين لما استمر خلود النوع.

و يسري هذا القانون على بقية الموجودات الأخرى كالنبات والحيوان. فالنبات يعشق ومثله يعشق الحيوان ويورد المتكلمون بالعشق امثلة على ذلك فكثير من الحيوان يتعلق بانثاه حتى الموت وهذا معروف لدى الناس. وتكلم بعض البستانيين عن عشق النخيل فقالوا: إن النخلة تعشق من جنسها فتمرض ثم تذبل فإذا لم يسعفها صاحبها فيربطها مع معشوقها بحبلٍ ماتت.

و يعتقد أن هذا الحبل هو واسطة يتمُّ خلاله تبادل غير منظور للعواطف. واحسب أن هذه الممارسة جاءت نتيجة ترسيم عملي لمصطلح (حبل المودّة).

---

١. الحكمة المتعالية/ الكتاب السابق/ ١٤٥.

٢. الحب/ عمر رضا كحالة/ ١٢٤.

٣. روضة المحبين/٥٥ – ٥٩.

و لسنا نجد ناساً اكثر حاجة للارتباط فيما بينهم مثل العاشقَين. فهما أولى بأن ينشدّا إلى بعضهما بحبال المودة الأثيرية. وقد جاء في المجازات اللغوية: احتبلته الفتاة وحَبَلته: أي شغفَته فهو مُحْتَبَلٌ ومحبول[1] بمعنى ربطته بنفسها ربطاً بحبلٍ ظنّي. ولا شك أن الرابط العيني لا يكون إلا بالمعانقة والتقبيل. وقد نظر الفلاسفة والحكماء إلى هذا النوع من الربط نظرةً أنيسة غير مستوحشة ولا مستنكرة ومن هؤلاء الفيلسوف شيخ الأطباء أبو عليٍّ ابن سينا[2]. فنراه يقول في (رسالة العشق):

أما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرضُ منهما التقارب والاتحاد – وذلك لأن النفس تودّ أن تنال من معشوقها بحسّها اللَّمسِي كنيلها بحسِّها البصري – فليسا بمنكرين في ذاتهما، ولكن استتباعهما اموراً شهوانية فاحشة توجب التوقي منهما إلا إذا تيقَّن من متولّيهما خمود الشهوة والبراءة من التهمة لا الهمّ بالفحش والفساد. فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتىً ظريف وهذا العشق تظرّف ومروءة"[3].

والملاحظ في هذا الرأي أنه لا يخرج عن كونه تنظيراً فلسفياً لممارسات الأعراب العشقية التي بسطناها فيما مضى وتثميناً لها.

و يبدو أن هذا المبدأ انتقل إلى الكتاب الاوربيين الذين كتبوا عن الحب واشهرهم رجل كنسي فرنسي يدعى (اندرياس). وقد تُرجم كتابه الذي كتبه

---

١. اساس البلاغة/ الزمخشري/ مادة: حَبَلَ.

٢. الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب ويلقب بالشيخ الرئيس ولد في (افشنه) قرب بخارى ودرس العلوم الشرعية والعقلية واصبح حجّة في الطب والفلك والرياضة والفلسفة توفي ودفن في همذان. تجاوزت مصنفاته المائتين واشهرها (القانون) في الطب وكتاب (الشفاء) و(النجاة) عن الموسوعة العربية الميسرة.

٣. الحب/ المصدر السابق/ ١١٧.

باللغة اللاتينية إلى اللغة الانكليزية بعنوان (The Art of Courtly Love) ويرجح تأليفه خلال القرن الثالث عشر للميلاد ويعتبره النقاد أنه كان محاولة لاستنباط قوانين الحب من المفاهيم العربية. وقد قارنت الباحثة (ناجية المرّاني) بين كتاب اندرياس هذا وبين رسالة ابن سينا في العشق فأثبتت وجود تشابه بينهما وخاصة فيما يتعلق بالحب العفيف الذي لا يقود إلى الشهوة الحيوانية حيث يقول (اندرياس):

إنه الحبُّ الطاهر الذي يوثِّق قلوب المحبين
ويملؤها غبطةً. هذا الحبُّ الذي قوامه التأمّل
الفكري والميل القلبي ويسمح بالقبلة والعناق
ويستغني عما هو أبعد"[١].

---

١. كتابها/ الحب بين تراثين/ ٢٩.

الباب السابع

بنو عُذرة وبنو عامر.. سمُو الحب وسقوطه

- تناقضٌ ودفاع
- أمام تهمة الزنى
- إبطال التهمة بشريعة (المُخادنَة)
- المرأةُ بين الزوج والعشيق

تناقضٌ ودفاع

بنو عُذرة و بنو عامر قبيلتان بدويتان اشتهرتا بالحبّ العفيف واختلفتا في النتيجة التي ينتهي إليها ذلك الحب، فمعظم عشاق بني عذرة أوصلهم عشقهم إلى الموت فعرفوا بأنهم (القوم الذين إذا أحبوا ماتوا). أما عشاق بني عامر فانتهت حياتهم بالجنون واشهرهم مجنون ليلى قيس بن الملوّح العامري ومزاحم بن الحارث المجنون ومعاذ بن كليب المجنون وغيرهم كثير حسب رواية الاصمعي[1].

إلا أن كلّ الحبّ العفيف نُسِبَ إلى بني عذرة بالخصوص فسمي (الحب العذري).

و يبدو لنا أن السبب في ذلك يعودُ إلى ما تحمله كلمة (العذرية) من معانٍ تتعلّق بـ(التطهير). منها القول: أَعذَرَ الغلامَ أي خَتَنه فالغلام معذور بمعنى (مختون). والختان عملية تطهير وغير المختون نجس قال الشاعر:

في فتيةٍ جعلوا الصليب إلاههم   حاشاي اني مسلمٌ معذور

بمعنى (مختون) (متطهّر) أو (مطهّر) ولا تزال هذه الكلمة مستعملة عندنا يطلقها الناس على المختون واصلها قديمٌ في لغة العرب حيث كانوا يقولون: طهّرَ ولده بمعنى: ختَنَهُ[2].

فكأنّ هؤلاء القوم – أعني بني عذرةَ – قد أعذروا انفسهم (ختنوها) (طهّروها) من الشهوات التي تنشأ بفعل الحبّ والوجد الشديد.

ومن المشتّقات الأخرى نجد (العِذار) ومعناه (الحياء) فيقال في المجاز (خلَع العِذار) أي الحياء. يقال للشاب المنهمك في غَيّه.

---

١. الاغاني ٢/ ٦ وما بعدها.

٢. تاج العروس/ مادة (عَذَر).

ثم نجد من الكلمات التي تتعلقُ بالعِفّةِ (العُذرة) وهي حجاب البكارة للفتاة التي لم تُفَضّ. و(العذراء) البِكر ويقال جارية عذراء: بكر لم يمسّها رجل. وفي المجاز: أرضُ عذراء: لم تُحرث ورَملةٌ عذراء لم يركبها أحد لإرتفاعها.

فها أنت تجد ان كلَّ هذه المعاني التي تفيد الطُهر والعفاف قد اجتمعت في (الحبّ العذري) الذي نستطيع أن نطلق عليه صفة (الحبّ المتطهّر أو الطاهر). والعذريون هم المتطهرون حسب هذه المعاني أو (الطاهرون) واشهرهم جميل بن عبد الله بن معمر صاحب بثينة وعروة بن حِزام صاحب عفراء وهي بنت عمّه وقد مات من حبها وغيرهم كثير.

و يظهر من خلال الروايات التي وردت عن هؤلاء المحبين أنهم حبسوا نفوسهم عن كلّ تطلّع جنسي عدا عاطفة الحبّ فإذا حدثت اثناء المواجدة انفلاتةٌ متحرقةٌ للمتعة الجسدية قمعوها بعنفٍ وقسوة حتى لو أدى ذلك إلى استخدام السيف كما ذكرنا في فصل : قمع الحب المحرم بالسيف.

هذا هو المبدأ المعروف عن الحبّ العذري: تعالقٌ عاطفي شديد بين حبيبين لايخرج عند التلاقي عن الحديث والنظر يتمثلُ بقول جميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرَّت بلابله

بلا، وبـألاّ أستطيع، و بالمنى ... و بالأَملِ المرجوِّ قد خابَ آمله

وبالنظرة العَجلى وبالحول تنقضي ... اواخره لا نلتقي وأوائله[1]

أما عند التباعد والفراق فإنّهما يكتفيان بتبادل الوصال والأحاديث عبر النسائم الهابة بين جهتيهما. فكان جميل إذا ابتعدت عنه بثينة وضاقت به الدنيا، صَعِدَ تَلَّةَ رَمل وطفق يتنسّم الريح من جهة حَيِّها ويقول:

أيا ريح الشّمال أما تريني ... أهيمُ وإنني بادي النحولِ

---

١. الاغاني/ ٨/ ١٠٥.

هِبي لي نسمةً من ريح (بثن) ومُنّي بالهبوب إلى جميلِ

وقولي يا بثينةُ حسب نفسي قليلك أو أقلُّ من القليلِ [1]

فإذا لبَّته ريحُ الشمال ونفَحتهُ هبَّةً من رائحة بثينة انتعشت روحه وعاش عليها زمناً.

إلا أننا نقف في بعض الروايات على حدوث خلوات مُريبه بين اولئك العشاق تفاقم اثناءها وجدهم فامتدت ايديهم إلى بعضهم وتعانقت اجسادهم وتلاثمت شفاههم وبذلك انتهكوا العذار وخرجوا عن الصفات البتولية. يصف جميل احدى تلك الخلوات فيقول:

فدنوت مختفياً أمرُّ ببيتها حتى ولجتُ على خفيٍّ المولج

قالت وعيشِ أخي ونعمة والدي لأُنبّهنَ الحيَّ إن لم تخرجِ

فخرجتُ خيفةَ أهلها فتبسمت فعلِمتُ أن يمينها لم تلججِ

فلثمتُ فاها آخذاً بقرونها فِعلَ النزيف ببرد ماء الحشرجِ [2]

و نسمع المجنون بليلى يكشفُ لنا عن ذلك بصراحة قائلاً:

أعانقها والنفسُ بعد مشوقةٌ إليها وهل بعد العناق تداني؟

والثُمُ فاها كي تزول صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهَيَمانِ

و ورد عن جميل أنه كان يتوسل بشتى الوسائل للدخول مع بثينة في خبائها. فجاءها ذات يومٍ متنكراً بثيابِ راعٍ لبعض الحي، فوجد عندها ضيوفاً وهم يصطلون بنارٍ أوقدتها لهم. فانتبذَ ناحية، فسألته: من أنت؟ قال: مسكين. فجلس وحده. فعشَّت ضيفانها وعشَّتهُ وحده. ثم جلست هي وجاريةٌ لها على صلائهما (نارهما) واضطجع القوم منتحين. فصاح جميل:

---

١. م. ن./ ١٠٩.

٢. الواضح المبين/ ١٦٣.

هل البائس المقرور دانٍ فمصطلي   من النار أو مُعطى لحافاً فلابِسُ

فقالت لجاريتها: صوتُ جميل والله! اذهبي وانظري. فرجعت اليها فقالت: هو والله جميل. فشَهقت بثينة شهقةً سمعها القوم فأقبلوا يجرون وقالوا: ما لكِ؟ فطرحت ثوباً لها في النار وقالت: احترق ثوبي. فرجع القوم وارسلت جاريتها إلى جميل فجاءتها به، فحبسته عندها ثلاث ليالٍ[1].

فماذا تظنُّ قد حدث بينهما في تلك الليالي؟

بعض الباحثين ظنّ خيراً وبعض الباحثين ظنَّ شراً. فأما الباحثون الذين حَسُنَ ظنهم بأبطال الحب العذري فلم يلتفتوا إلى هذه القصص التي وردت عنهم واعتبروها محكيّات صنعها الرواة لمجرّد الإثارة ليس إلا. فلم يقفوا إزاءها ولم يأخذوها بعين الاعتبار. أما إذا وقف أمامهم بيت فيه صراحة واضحة لا يستطاعُ نكرانها كهذا البيت المروي عن جميل.

ألم تعلمي يا عذبة الريق إنني   أظلُّ إذا لم أُسقَ ريقكِ صاديا

فإنهم يقومون باستخراج المبررات الوضعية له. ويلوون معناه باتجاه تلك المبررات ويبعدونه عن المعنى الحقيقي الذي صيغ من أجله، وهم يعتقدون أنهم يحافظون بذلك على الأيقونة المقدسة التي رسمت للحب العذري. يقول الباحث شكري فيصل عن بيت جميل السابق:

فحديثُ جميل عن ظمئه إلى ريقها ليس إلا بقية باقيةٌ من التراث النفسي المختزن في الشعر الجاهلي، تسرَّب إلى الشاعر عن طريق هذا الشعر فانطلق به لسان الجاهليين وإنما أراد به جميل معناه المطلق الذي يتَّصل بالودِّ واللّقاء والبث"[2].

و بالأضافة إلى هذا الدفاع الذي قد لا يكون مقنعاً نواجه دفاعاً آخر عن

---

١. الاغاني/ ٨/ ١١٣ وما بعدها.

٢. كتابه/ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام/ ٣١٩ عن/ الحب في التراث العربي/ د. محمد حسن عبد الله/ ٣٤١.

تلك الصيغ التعبيرية المخالفة لمبادئ البتولية والعذرية قيل فيه:

إن تلك التعبيرات تمثّل تنفيساً عن العواطف والرغبات المقموعة في اللاشعور حيث تتحوّل هذه العواطف في حالة اليقظةِ إلى عملٍ فنيّ يُعوّض عن الكبت والحرمان الذي أَقَرّه العاشق على نفسه، وهو ما يطلق عليه (فرويد) اسم (التطهير الفني) فلذلك ليس من الضروري أن يكون القول معبّراً عن وضعية صادقة لصاحبه بل يمثل حالةً كاذبة وقد قيل قديماً (أعذب الشعر أكذبه)"[1].

و نجد لهذه الآراء ما يدعمها في اقوال المحبين واعترافاتهم فإنهم قد يصفون القبلة ويصفون ريق المحبوبة كما لو ذاقوه واستطعموه وتلذّذوا به ولكنهم في ذات الوقت ينفون عن أنفسهم تورطهم بهذا الاثم ويجعلون قولهم من باب التخييل لا من باب التجريب ومن باب الظن لا من باب العِلم. فهذا قيس يصرّح بانه لم يذق فَمَ ليلى حقيقةً وانما ذاقه بعينه تفرّساً. اسمعه يقول:

كأنّ على أنيابها الخمرُ شَجَّها ... بماءِ الندى في آخر الليلِ عاتقُ

وما ذقتُهُ إلا بعيني تفرُّساً ... كما شيمَ في اعلى السحابةِ بارقُ[2]

و هذا أبلغُ تخريجٍ لعِفَّةِ الفم. وقد تعلّل به بعض العشاق المدنيين فقال عبد المحسن الصوري من مدينة صور (٣٣٩ – ٤١٩ هـ):

بأبي فمٌ شهِدَ الضميرُ له ... قبل المذاق بأنه عذبُ

كشهادتي لله خالصةً ... قبل العيان بأنه ربٌّ

و قد تُدُووِل هذا المعنى في (التقبيل النظري) بين الشعراء واتخذ صوراً جميلة كهذه الصورة في قول احدهم:

---

١. الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية/ المصدر السابق/ ٤٨.

٢. الاغاني/ ٢/ ٣٢.

أهُمُّ إلى العذبِ من ريقهِ كما هَيَّم العاشقين العُذيب
شهدتُ عليه وما ذقتهُ يقيناً ولكن من الغيب غيب[1]

فإذا اقتنعنا بتلك التبريرات وجعلنا حسن الظَنَّ أمام عيوننا، فإننا نكون قد وضعنا أولئك العشاق في صميم مبادئ الحب العذري الذي وصفه الدكتور يوسف خليف بإنه:

زمأساة تدور احداثها بين عاشقين يسيطر على حبهما العّفةُ والإخلاص والتوحيد والحرمان والشهادة. وهو انتصار الروح على الجسد وهزيمة النفس الأمّارة بالسوء أمام المثالية الخلقية التي يؤمنُ بها العاشقُ العذري وامنيته القصوى هي الحصول على الرباط المقدس بينه وبين حبيبته"[2].

أمامَ تُهمةِ الزّنى

و لكن احد الباحثين وهو الناقد الاجتماعي المعروف الدكتور صادق جلال العظم ندَّد بتلك التبريرات الواهية التي دافع بها أولئك الكتاب عن الحبّ العذري وإبطاله، وذلك في كتابه (في الحبّ والحبّ العذري) حيث قال أنها أوهام نسجوها حول الطهارة والبراءة وفيها الكثير من المبالغة[3].

ثم يأخذ بعد استعراض روايات الخيانة الزوجية الواردة عن أولئك العشاق فيحلّلها على أساس صدق حدوثها ويقذفهم بعدها بجريمة الخروج على المؤسسة الزوجية. ثم يقول عن حبّهم بأنه قائم على الزنى[4] وعلى خرق فاضح لمؤسسة الزواج من حيث أنهم ينأَون بكلّ وسيلةٍ عن الارتباط بمحبوباتهم عن طريق الرباط الشرعي. إسمعه يقول:

---

١. ديوان الصبابة/ ابن ابي حجلة/ ٦٦. والعذيب هو الماء الطيب.

٢. في الحب والحب العذري/ صادق جلال العظم/ ٨٠.

٣. ص ٨٥.

٤. ص ٨٢.

يبدو إذن أن الحبَّ العذري ضد مؤسسة الزواج وهو يبقي على نفسه بالرغم عنها وبتحديها تحدّياً مباشراً ومستمراً. ومع أن الجِبْرَ سأل في الكلام عن عفّةِ هذا الحب وطهارته ومثاليته، كان العاشق العذري يزور عشيقته المتزوجة في عقر دارها ويقضي الليالي مختبئاً عندها بالرغم من أنف زوجها وأهلها. ومن طرائف قصص هذا الحب أن الزوج كان يخرَّجُ دوماً وكأنه الشخصية الشرّيرة في القصة وتتمّ الاحداث دوماً على حساب شخصيته وكرامته. فهو دميمٌ أو أعور أو فظٌ أو قاسي القلب يقفُ حائلاً بين لقاء العاشقين. وحين نقرأ قصص الحبّ العذري لا نشعرُ بالعطف على الزوج المخدوع الذي لا ذنب له في الحقيقة سوى التقيّد باعراف مجتمع البادية وعاداته. ولا نشعر بالتجاوب مع ذوي الفتاة الذين يمنعونها عن حبيبها تمسكاً منهم بأخلاقهم وقيمهم وشرائعهم لا حبّاً بالقسوة ذاتها أو رغبةً بإنزال الشرّ ببناتهم. كما أننا – انسجاماً مع الرواية – لا ننظر إلى العاشقين نظرة الزانيين الذين ارتكبا خطيئة شنيعة عقابها صارمٌ جداً في الشرائع السائدة والمعمول بها. ولا يزعجنا أنهما لا يندمان قطّ على ما ارتكبا من معصية، كلٌّ ذلك باسم الحب الطاهر العفيف وفي سبيله".

ثم يتساءل الباحث ويقول: أين حقيقة العشاق العذريين من الأوهام التي ينسجها الكتّاب والمعلقون حول الطهارة والبراءة والعفة؟

و لايكتفي الباحث بتوجيه تهمة الزنى إليهم بل يقوم – كطبيب نفسي – يحلّلَ مواقفهم العشقية موقفاً موقفاً حسب نظريات علم النفس ليخلص بالنتيجة إلى القول بإن هؤلاء المحبين مرضى بمرض نفسي مركب هو (السادومازوخية) أو (السادوماسوكية) حسب تعبيره بمعنى أن حبهم قائم على التلذذ بالألم التبادلي فكلٌّ عاشقٍ منهم نراه دائماً ينأى بكلّ وسيلةٍ عن الارتباط بحبيبته برابطة الزواج فيميل إلى البقاء هكذا نائياً منفصلاً عنها.

و النأيُ – كما هو معروف – يسبب الألم والعذاب الشديد لكلٍّ من العاشق والمعشوقة لذلك يكون كلٌّ واحدٍ منهما (مُعَذَّباً ومُعذِّباً) في نفس الوقت. الأمر الذي ينتج لكلٍّ منهما لذتين: لذة رؤية الآخر وهو تحت العذاب وهي (الحالة الساديّة) واللذة الثانية لذة تلقي العذاب من الآخر وهي (الحالة المازوخية) أو الماسوكية على حدّ تعبيره. يقول:

ولا تخلو ظاهرة الحب العذري من خصائص (السادوماسوكية) من حيث أنه يميل ميلاً شديداً إلى

تعذيب النفس والغير (أي الحبيب) بدون مبرّر واضح أو غاية محدّدة وإنما لمجرّد الاستمتاع والتلذّذ بالألم والعذاب باعتبارهما جزءً لا يتجزأ من عنف التجربة الغرامية العذرية وشدّة انفعالاتها"[1].

و لسنا نريد أن نناقشه في هذه المسألة لأنها معروفة في حياة العشاق وقد بحثها الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وقد قيل قديماً (الحب عذبٌ ولكن فيه تعذيب) وإنما نريد أن نحاوره في التهمة الكبيرة التي طعن بها أولئك العشاق وهي تهمة الزنى فننفيها عنهم.

إبطالُ التهمة بشريعة (المخادنة)

عندما يُراد اتخاذ موقف سليم من مسألة معينة كهذه المسألة، من المفروض أن تدرس كافة الجوانب المتعلقة بها سواءً أكانت اجتماعية أو نفسية أو كانت إرثيّة أفرزتها الأنساق والعادات والتقاليد المتوارثة من الأسلاف.

إن مثل هذه الدراسة المتسعة مفيدة للحاكم من حيث أنها تجعله موضوعياً في أرائه، منصفاً بقراراته مجانباً للتعسف في أحكامه فلا يتهم بكونه متسرعاً في إصدار الحكم دون استيفاء جميع الشهادات.

---

١. كتابه/ ١٠٤.

و في الواقع إن الناقد الفاضل صادق جلال العظم أقام محكمة غير عادلة لجميل و بثينة ذات البعل وغيرهما من العشاق فوضع مُسبقاً أمامه سيفاً دون أن يضع قِسطاساً، وأقام حدّ الزنى عليهما حسب ظاهر الفقهيات المتشددة دون أن ينظر إلى فقهيات أخرى يمكن أن تدرأ عنهما الحدّ حسبما قال الرسول الأعظم (ص): "إدرأوا الحدود بالشبهات"[1].

و أعظم شُبهة لدينا نستطيع استخدامها لندرأ حدًّ الزنى عنهم هي أن أولئك العشاق كانوا يتبعون شريعة كانت شائعة في عصرهم توارثوها عن أجدادهم في العصور السالفة وكانت تسمح لهم بممارسة تلك العلاقات الخارجية التي اعتبرها الباحث غير شريفة.

و قد استمرت هذه الشريعة سائرة حتى تعدّت عصرهم إلى العصور التالية رغم محاربة الدين لها.

و يطلق على هذه الشريعة اسم (المخادنة) ومعناها (المصادقة) ومؤدّاها أن يتخذ الرجل المتزوج صديقةً له والمرأة المتزوجة صديقاً لها ويكون ذلك باتفاق وتراضٍ بين الأطراف.

و يطلق على المرأة في تلك الحالة أسم (ذات الخِدن) – بكسر الخاء – وهي التي اتخذت صديقاً واحداً عندما تكون مرتبطة بزوج. وكان الرجل يتخذ لجواريه (خِدناً) يحدّث الجارية ويصاحبها ويؤانسها لكي لا تستوحش. ومن المفروض على هذا (الخدن) (الصديق) أو الـ(Boy Friend) حسب المصطلح الغربي أن يكون شريفاً في علاقته مع صديقته محافظاً على الحدود المسموحةِ له فيها فلا يتجاوزها ويعتدي على حق زوجها فيها. ولكن قد يحدث في كثير من الحالات تجاوز منه على حق الزوج. إلا إنه لم يكن ذلك ليضير الزوج أو يخدش كرامته إذا حدث التجاوز بالسترِ وبغير إشهار حيث كان العرب في الجاهلية – كما يذكر علماء التفسير – يكرهون

---

١. النهاية في فريب الحديث والأثر/ ابن الأثير/ ٢/ ١٠٨.

ما ظهر من (الزنى) فقط ويستحلون ما خفي. فإذا جرى خلال المخادنة شيءٌ منه فلا يُعتبَر حراماً بل حلالاً ما بقي سراً وما دام جارياً برضى الأطراف[1].

و أجمع المؤرخون على أن نظام المخادنة كان واسع الذيوع في المجتمع العربي القديم وسار حتى مجيء الإسلام وقد ذكره القرآن الكريم ونهى عنه في قوله تعالى: وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ"[2].

قال ابن عباس: المسافحات: المعلنات الزنى. والمتخذات أخدان: ذوات الخليل الواحد.

و قال النووي: ولقد كان الزنى في الجاهلية على قسمين: سراً وعلانية وعاماً وخاصاً فالخاص السري هو أن يكون للمرأة خِدنٌ يزني بها سراً فلا تبذل نفسها لكلّ أحد. والعام الجهري هو المراد بالسفاح كما قال ابن عباس وهو البغاء وكانت البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن وهذان النوعان معروفان الآن وفاشيان في بلاد الإفرنج والبلاد التي تقلد الإفرنج في شرور مدنيتهم كمصر والأستانة حسبما يقول النووي[3].

و كانت المخادنة عندنا في العراق يطلق عليها شعبياً اسم (الگوزلي) من (الگوز) أي الزوج ويبدو أن هذه اللفظة مستعارة من اللهجة المصرية تستعملها الزوجة لزوجها فتقول: (هوّه گوزي). والگوزلي هو الذي يخادن المتزوجات.

و كان اتخاذ الخِدن متداولاً عند العرب حتى عند الأحرار والحرائر لا

---

١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ جواد علي/ ٥/ ٥٤٥.

٢. النساء/ ٢٥.

٣. المجموع في شرح التهذيب/ محيي الدين بن النووي/ ٢/ ٤.

يعابُ به مع ذمّهم زنى العَلَن بغير الإماء.

و قال تعالى في سورة المائدة[1]: "مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ" والأخدان: ذو الخِدن. قال رؤبة بن العجّاج:

وانصعنَ أخداناً لذاك الأخدنِ"[2].

و إذا أردنا أن نستقصيَ جذور المخادنة تاريخياً فسنجد أنها جاءت من أنظمة قديمة كان يباحُ فيها للزوجة أن تتزوج من رجلين في آن واحد. ففي العصر السومري (٣٥٠٠ ق.م) كان يسمح للزوجة أن تتزوج من آخر وبقي هذا النظام حتى عصر الحاكم المصلح (أروكاجينا ٢٣٧٨ – ٢٣٧١ ق.م) صاحب الشريعة المعروفة باسمه. فأصدر قانوناً بتحريم ذلك النظام ووضع عقوبة (الرجم) على المرأة التي يثبت زواجها من رجلين. وقد جاء في نصّها:

كانت المرأة في العصور السابقة

تتزوج

زوجين

وأما المرأة في هذه الأيام

فإنها ترمى بالحجارة (لو فعلت ذلك)".

و هناك من الباحثين من يرى أن زواج المرأة من رجلين كان من بقايا العصر (المتريركي) (Matriarchy) وهو العصر الذي كانت فيه المرأة مسيطرة على العائلة.

أما الباحث (خروشكا Hruska) فيعتقد أن سبب زواج المرأة من رجلين يعود إلى زيادة الضرائب التي وضعها حكام (لجش) على كل من يطلّق

---

١. آية/ ٥.

٢. تاج العروس/ مادة (خَدَن).

زوجته ولذلك أخذ الرجل يترك زوجته دون طلاق رسمي. فكانت المرأة المهجورة في هذه الحالة تتزوج من رجل آخر فتصبح عُرفاً زوجةً لرجلين في آن واحد[1].

و مما لا جدال فيه أن المجتمعات الإنسانية تتشابه في النشأة والتطور لذا يمكن أن يعزى نظام المخادنة إلى سبب من تلك الأسباب وقد يكون الدافع الاقتصادي أهمها حيث نرى إن أغلب العلاقات الثنائية يكون العاشق فيها تَرِباً ليس بذي مالٍ فيميل أهل المعشوقة إلى تزويجها من ذي مالٍ فيتزوجها وهو على علمٍ بعلاقتها السابقة ولا ينظر إليها بكبير اهتمام وقد تبقى هذه العلاقة تحت رعاية الزوج ويعتبر الزوج في هذه الحالة حليماً كريماً لأنه لم يفصل بين الحبيبين.

و نذكر في هذا المجال علاقة الثنائيين عروة وعفراء الذين نشئا أليفين في بيتٍ واحد فهي ابنة عمّه وتربّيا معاً على وعد الزواج بمباركة الوالدين. إلا أنّ رجلاً ذا مالٍ عظيم ظهر في أفقهما استطاع أن يغريَ الوالدين فزوّجا عفراء منه دون علم عروة الذي كان غائباً في رحلةٍ لجمع المال للزواج. فلما رجع وعلم بزواج حبيبته ورحيلها إلى الشام فارقته روحه وتبعها ونَزَل في ضيافة الزوج الذي ما إن عرفه حتى رعاه وقال له: يا أخي، اتق الله في نفسك فقد عرفت خبرك وأنك إن رحلت تلفت و والله لا أمنعك من الاجتماع بها وإن شئت لا فارقتها[2]. وهكذا أصبحت عفراء (زوجة) لرجلين في آنٍ واحد.

و في الواقع أن ما ينْزرع في المجتمعات من عادات وأعراف وتقاليد من الأزمان السحيقة لا يمكن محوها أو تغييرها بين عشيّة وضحاها. لذلك لا غرابة إذا بقيت هذه الشرعة العنيدة ممتدة حتى في الإسلام الذي حاول

---

١. المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين/ ثيلما عقراوي/ ٣٠.

٢. الأغاني/ ٢٤/ ١٥٠ وما بعدها.

القضاء عليها فلم يستطع حيث دخلت عليه من باب آخر كالإخطبوط.

و تخبرنا النصوص الشعرية الواردة من عصر صدر الإسلام بإن ثمّة دعوة صريحة إلى ممارسة المخادنة كان يطلقها بعض الشعراء بلا خوفٍ أو حياء فهذا أحدهم يقول:

جَزى الله عنّا ذاتَ بعلٍ تصدَّقت　　على عَزَبٍ حتى يكونَ له أهلُ

فإنا سنجزيها بما فَعَلت بنا　　إذا ما تزوّجنا وليس لها بَعْلُ

أفيضوا على عُزّابكم من نسائكم　　فما في كتابِ الله أن يمنعَ الفضل[1]

و نجدُ في النصوص أن بعض النساء المتزوجات أغرَين مَن أحببنَ بمخادنتهن عن طريق مصادقة الزوج لتكون العلاقة (شرعية) حسب ذلك النظام. فهذا الأحوص الانصاري (ت / ١٠٥ هـ) دعته حبيبته إلى مصادقة زوجها ولكنّه رفض لأنه ليس من شيمته خيانة الصديق. قال:

قالت – وقلتُ تحرَّجي وصِلي　　حَبْلَ امرئٍ بوصالكم صبُّ:

صادق إذن بَعلي فقلتُ لها:　　الغدرُ شيءٌ ليس مِن ضربي

ثنتان لا أدنو لوصلهما　　عِرسُ الخليل وجارةُ الَجنْب

أما الخليل فلستُ فاجِعَهُ　　والجارُ أوصاني به ربّي[2]

و يظهر نظام المخادنة هذا شائعاً في كثير من المجتمعات الأوربية كالمجتمع الفرنسي وقد مارسه كبار القادة والمفكرين دون خشية من الإشهار والعار. فهذا الفيلسوف والشاعر الفرنسي (فولتير ١٦٩٤ – ١٧٧٨م) اشتهر بحبٍّ (مدام دي شاتيليه) زوجة المركيز (شاتيليه) أحد القادة العسكريين الفرنسيين. وعاش فولتير مع خدينته في نفس قصر زوجها وأقام المركيز معهما محتفظاً لنفسه بشقّةٍ خاصة به يتناول

---

١. ديوان الحماسة/ أبو تمام/ تحقيق د. عبد المنعم صالح/ ٦٢٠.

٢. ديوان الحماسة/ المصدر السابق/ ٦٢٠

الطعام فيها وحده في الوقت الذي كانت الزوجة تنام مع عشيقها وتقول بصراحة: لا أطيق فراقه ساعة. وكانت ذهنية فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها بإخلاص العشيقة كما يقول ديورانت[1].

وكان (مونتسكيو ١٦٨٩ – ١٧٥٥) الكاتب الاجتماعي الفرنسي المشهور صاحب كتاب (روح الشرائع) يحبّذ هذه الاتصالات ويجيز هذه الصداقات ويقول:

إن الرجل الذي يريد أن يستحوذَ على زوجته لوحده يعتَبرُ معكرًاً لصفوِ السعادة العامة، غبيّاً يريد

أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ويحجبها عن سائر الناس."

وهنا أرجو من القارئ أن يتأمل هذا القول ويقارنه بقول الشاعر الاسلامي الذي ذكرناه آنفاً:

أفيضوا على عشاقكم من نسائكم   فما في كتاب الله أن يمنَع الفضلُ

فلا شكّ أنه سيجد أن الفكرة واحدةٌ رغم تباعدها في الزمان والمكان.

و قد عاب أرسطو هذا المبدأ في تفسيره لعاطفة الصداقة (فيليا Philia) في الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه المعروف (الأخلاق إلى نيقوماخوس) حيث جعل الصداقة ثلاثة أنواع حسب اختلاف موضوعها وقال: إن هناك صداقة تقوم على (المنفعة والفائدة) وصداقة تقوم على (اللذة والمتعة) وصداقة تقوم على (الخير والفضيلة) وهذه هي الصداقة الحقيقية التي تتصف بطابع الدوام والاستقرار وهي التي تقومُ بين الأخيار من الناس لأنهم ينشدون موضوعاً واحداً بعينه ألا وهو الخير. أما الصداقة التي تقوم على المنفعة فإنها تنتفي في حالة انتفاء المنفعة. إنها متقلبة متحوّلة وإن الصداقة القائمة عليها لا يمكن أن تكون صداقة مستديمة، أما

---

١. كتابه/ قصة الحضارة/ ٣٦/ ١٩٢.

صداقة (اللذة) فإنها صداقة أنانية هوائية خصوصاً وإنها لا تنشأ في العادة إلا بين الشباب الطائش المتهوّر ومن ثم فإنها سريعة التحوّل سهلة الانقلاب وحسبنا والقول لأرسطو أن نلقي نظرةً على ما يسميه الشباب باسم (الحب) لكي نتحققَ بأننا إزاء اندفاع عاطفي يستند بالرغبةِ والتمتع والبحث عن الملذات دون أن تكون له أيَّةَ صيغةً دائمة أو أي مظهر من مظاهر الاستقرار[1].

و قد عبّر عن هذه الفلسفة رجلٌ أعرابي بلغته البسيطة هو والد جميل لكفّه عن حبٍّ بثينة فقال له:

"يا بني حتى متى أنت عَمِهٌ في ضلالِك لا تأنف من أن تتعلّق بذات بَعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل ثم تقوم من تحته إليك فتغرّك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهي مُضمِرَةٌ لبعلَها ما تضمره الحرّةُ لمن ملَكها فيكون في قولها لك تعليلاً وغروراً فإذا انصرفتَ عنها عادت إلى بعلها على عادتها المبذولة. إن هذا لذلٌ وضيم، ما أعرفُ أخيبَ سهماً ولا أضيعَ عمراً منك. فأنشدك الله إلا كَفَفْتَ وتأملتَ أمرك فإنك تعلم أن ما قلته حق".

وقد أقرّ جميل بإن كلام والده هو بالفعل حق فقال له: الرأي ما رأيت والقول كما قلت، فهل رأيت أحداً قَدِرَ أن يدفع عن قلبه هواه؟ والله لو قدرتُ أن أمحو ذكرها عن قلبي أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاءٌ بُليتُ به لحينٍ قد أُتيح لي وأنا امتنع عن طروق الحيِّ والإلمامُ به ولو متُ كمداً. ثم قام وهو يبكي فبكى أبوه ومَن حضر جزعاً لما رأوه منه[2].

و على الرغم من أن نظام المخادنة كعُرفٍ اجتماعي عام لا يظهر في مجتمعاتنا اليوم فإن ثمّة مجتمع يدين بالديانة الإسلامية يمارسه كعرفٍ

---

١. مشكلة الحب/ زكريا ابراهيم/ ٢١٠.

٢. الاغاني/ ٨/ ١٢٩.

عام بشكلٍ سافر ولا يرى فيه توحشاً أو مخالفةً لقواعد الإسلام ذلك هو مجتمع الطوارق. فقد جاء في نصٍّ للرحالة ابن بطوطة أن نساءهم على الرغم من أنهن مسلمات مواظبات على الصلوات إلا أنهن لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن. يقول:

دخلتُ يوماً على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مظلّل عليه امرأة معها رجلٌ قاعد وهما يتحدثان. فقلتُ له: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي. فقلت: من الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضى بهذا وأنت تسكن بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها ولسنَ كنساءِ بلادكم"[1].

و لاتزال هذه العادة جارية عند الطوارق إلى حد هذا اليوم.

المرأة بين الزوج والعشيق

و كان نظام المخادنة عند العرب يجري وفق أصول ومنضبطاً بضوابط وشروط. وتتمثل هذه الضوابط والشروط بتحريم الجزء الأسفل من المحبوبة على العشيق لأنه يخص الزوج ويباح الجزء الأعلى منها لمحبّها يفعل به ما يشاء.

و قد زعم (نصرٌ الكاتب) أنه كان شرطٌ بين العشيقة والعاشق أن يكون نصفها الأعلى من رأسها إلى سُرّتها مبذولاً لعاشقها ينالُ منه ما يشاء من ضَمٍّ ولثم وتقبيل ورشفٍ وغمز وباقي ذلك محرّمٌ عليه.

و الظاهر أن هذا التقسيم كان مختصاً بذوات البعولة بالذات فلكي لا يعتدي العاشق على حق البعل كان يمنع عن إتيان النصف الخاص به. قال الشاعر:

---

١. رحلة ابن بطوطة/ ٢/ ٧٧٧ طبعة مؤسسة الرسالة.

وللحِبِ شطرٌ مطلقٌ من عقاله   وللبعل شطرٌ ما يزال منيع[1]

و يظهر لك ذلك من حديثٍ لرجلٍ اشتكى إلى النبي (ص) من امرأته أنها لا تردُّ يدَ لامس فقال: طلّقها. فقال: إني أخاف أن تتبعَها نفسي فقال: استمتع بها. وعلّق بعض أهل العلم على هذا الحديث[2] بقوله: راعى النبي (ص) دفعَ أعلى المفسدتين بأدناهما، فإنه لما اشتكى إليه منها أنها لا تردُ يدَ لامس أمره بطلاقها فلما اخبره عن حُبّها وإنه يخافُ ألا يصبر عنها ولعلّ حبه لها يدعوه إلى معصية، أمره أن يمسكها مداواةً لقلبه ودفعاً للمفسدة التي يخافها بإحتمال المفسدة التي اشتكى منها.

أما ابن قيّم الجوزية فلديه رأي آخر عن هذا الحديث يقول فيه: "وعندي أن له وجهاً غير هذا، فإن الرجل لم يَشْكُ من المرأة أنها تزني بكلّ من أراد منها ذلك ولو سأل عن ذلك لما أمره رسول الله (ص) على أن يقيمَ مع بغيٍّ ويكون زوج البغي ديوثاً[3] وإنما شكى إليه أنها لا تجذب نفسها ممن لاعبَها ووضع يده عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك. فإن من النساء من تلينُ عند الحديث واللعب ونحوه وهي حَصانٌ عفيفه. وهذا كان عادة كثير من نساء العرب ولا يعدّون ذلك عيباً بل كانوا في الجاهلية يرون أن للزوج النصف الأسفل وللعشيق النصف الأعلى. قال الشاعر:

وللحِبِّ ما ضمَّت عليه نقابها   وللبعل ما ضمت عليه المآزرُ

و المقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقِه إذا كان يباح له وصاله[4].

---

١. الحِب: بكسر الحاء: الحبيب.

٢. ذكره الإمام والنَّسائي قال عنه منكر (روضة المحبين/ ١٢٩).

٣. الديّوث: من لا يغادرُ على أهله، الذي يقود عليهم مأخودٌ من دَيَّثتُ البعير إذا ذللتهُ وليَّنته بالرياضة. فكأنَّ الديوث دُلّلَ حتى رأى المنكرد بأهله فلا يغيره. ويطلق عليه بالعماية عندنا اسم (الديوس).

٤. روضة المحبين/ ١٢٩.

و على هذا فإنّ تهمة (الزنى) التي قذف بها الدكتور العظم العشاق العذريين مردودة عليه بحكم هذه الشريعة السائدة في مجتمعهم ولم يكن الناس ينظرون إليهم كزناة. كما أن هذه التهمة تهمة كبيرة لا تؤخذ بالظنّ أو الاحتمال وإنما تستوجب حضور شهود وقفوا على العملية ورأوا الأمر مرأى (الميل بالمكحلة)، ولسنا نجد نصّاً في سيرة العذريين يؤكد حصول ذلك. بل كل الذي وجدناه أنهم كانوا ينامون معاً على فراش واحد. أما ماذا كانوا يفعلون خلال نومهم هذا فعلمه عند الله ونحن لا نظنُّ إلا خيراً.

و يلاحظ أن الأزواج كانوا يظنون خيراً بعلاقة زوجاتهم بمن يحببن. فمن ذلك ما روي في حديث (نصر بن الحجّاج) الذي نفاه عمر بن الخطاب (رض) إلى البصرة بسبب افتتان النساء به – وكان جميلاً غاية الجمال – فلما سكن البصرة كان يدخل على واليها (مجاشع بن مسعود) وكانت له امرأة جميلة فأعجبها نصر وأحبته وأحبها فكان يقعد هو ومجاشع يتحدثان والمرأة معهما. ثم ضنيَ جسمُ نصر من شدة الوجد وقعد في بيته. فقال مجاشع لامرأته: أذهبي إليه واسنديه إلى صدرك وأطعميه الطعام بيدك. فأبت فعزمَ عليها فأتته وأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام[1].

أقول: لو كان مجاشع يظنُّ بهذا الحبّ سوءَ لما أرسل زوجته إلى محبّها تُمرِّضه ولكنه كان واثقاً كل الوثوق بنقاء هذا الحبّ وعفّة زوجته.

و كان أغلب الأزواج على ثقة بزوجاتهم رغم علمهم بعلاقتهن العشقية وهو ما رأيناه – قبل قليل – في قصة (عروة بن حزام وعفراء) مع زوجها الذي أباح للعاشقين خلوتهما وتركهما في منزله وحدهما وخرج[2].

و كذلك كان الأمر في حالة قيس مع ليلاه فإنه كان يزورها في بيت زوجها وكان الزوج يعلم بذلك. وقد سأله قيس ذات يوم:

---

١. روضة المحبين/ المصدر السابق/ ٣٧٩.

٢. تفصيل القصة في/ ذم الهوى/ ابن الجوزي/ ٤١١.

بربّك هل ضَمَمتَ إليك ليلى قبيل الصبح أو قبَّلت فاها

وهل رفَّت عليك قرون ليلى رفيفَ الاقحوانة في شذاها؟

فأجاب: أما وإنك حلفتني فأقول: والله نعم. فعمد قيس إلى نار كانت متقدةً بينهما فقبض على جمرها حتى تحرقت راحتاه وما شعر. كلُّ ذلك والزوج ينظر إليه وهو يعلم إن هذا من أثر الحرمان الذي يعيشه قيس.

و كثير ما كان قيس يعلن أمام الملأ أنه قام بتقبيل ليلى ثماني مرات لكي يوصلوا إلى زوجها الخبر فيغتاض وينفعل ولكن الزوج لم يستشط غضباً لأنه كان على ثقةٍ بها. يقول قيس:

فإن كان فيكم بعلُ ليلى فإنني وذي العرشِ قد قبلت فاها ثمانيا

وأشهدُ عند الله إني رأيتها وعشرون منها إصبعاً من ورائيا[1]

أليس من البلوى التي لا شوى بها بإن زُوجت كلباً وما بذلت ليا[2]

و على أية حال فإن كل ما يقال عن الضجّة التي افتعلها الباحث عن الحب العذري وعن أبطاله إنما هي ضجّةٌ تأليبية الغرض منها كسر إطار القداسة المحيط بأيقونة العشق العربي للوصول إلى الشهرة.

---

١. يقصد قصر المسافة بينه وبينها وكانت المسافة القصيرة تقاس بالأصابع.

٢. الأغاني/ ٢/ ٦٩.

الباب الثامن

مداواة الداء بالداء

- الشفاء من داء الحب بالقبلة
- مخاطر التداوي بالقبلة
- الاستشفاء بالريق
- الشفاء من الحبّ بالحبّ . . النظرية والامتداد

الشفاء من داء الحبّ بالقُبلة

قال أبو نؤاس:

وعاشقين التفَّ خدّاهما	عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما	كأنما كانا على موعدِ
لولا دفاع الناس إياهما	لما استفاقا آخر المسند[1]

(أي آخر الدهر).

إنه لمشهد مثيرٌ حقَا، هذا الذي استعرضه الشاعر أمامنا في أبياته تلك. وقد يظهر لنا – عند تأملنا فيه لأول وهلة – إنه أحد المشاهد الماجنة التي كان الشاعر يبرعُ في تصويرها ولعله أكثرها إسفافاً وسفهاً. عاشقان تماديا في غيّهما فاستغلا زحام الناس لتقبيل الحجر الأسود فقبلاه وهما متلاصقان خداً بخدّ وقد كان بمقدورهما أن يتلاثما في مكان آخر وبمعزل عن الناس ولكنهما اختارا هذا المكان المقدس بالذات . . فلماذا؟

لو رجعنا إلى الأبيات لوجدنا أن العملية لم تكن بقصد التماجن والاستخفاف بالمقدسات وإنما كانت لغرضٍ خاص نواه العاشقان وتواعدا عليه وقد وضحه أبو نواس بقوله: (فاشتفيا من غير أن يأثما).

إذن هذا هو الغرض الذي جاءا من أجله: (الإشتفاء). وهو وسيلة معروفة منذ القدم يلجأ إليها الناس حينما تضيقُ بهم أمور الحياة وبخاصة المرض إذا استحكم وعزّ شفاؤه فيأتون حاجّين إلى هذا المكان المقدس ويقفون عند أقدس نقطة فيه وهي الحجر الأسود فيسألون الله أن يشفيهم ثم يقومون بتقبيله ولمسه والتمسح به. إعتقاداً منهم إنه يمتلك قوةً روحية تحقق الشفاء.

---

١. عيون الأخبار/ ابن قتيبة/ ٤/ ٩٤.

و لما كان هذان العاشقان يعيشان معاناة مرضية من الحب فقد اتفقا على اللجوء إلى هذه الوسيلة للشفاء منه فانطلقا يتدافعان مع الناس للوصول إلى الحجر فلما استلماه رتّبا لِخَدَّيهما وضعاً تلازمياً مع مَلثم الحجر وراحا يقبلان الموضع وربما قبلا بعضهما خلال استحرار التواجد وتفاقم الوجد.. وكل ذلك لكي ينسَربَ تأثير قوته الشفائية إليهما معاً حسب اعتقادهما.

و على هذا الأساس بَرّأَ أبو نواس ساحة العاشقين من الإثم وقال: (فاشتفيا من غير أن يأثما). ولا شك أن هذا النمط من الشفاء غير جائز عند الفقهاء الأصوليين.

و لكننا نجد غيرهم من الفقهاء المتسامحين يجيز القبلة إذا كانت لغرض الشفاء فهذا أبن قيم الجوزية يعلل ذلك بقوله: "وأما التداوي بالضمّ والقبلة فإن تحقق الشفاء به كانَ نظير التداوي بالخمر عند من يبيحه بل هذا أسهل من التداوي بالخمر، فإن شُربَه من الكبائر وهذا الفعل من الصغائر والمقصود أن الشفاعة للعشاق فيما يجوز من الوصال والتلاقي سُنَّةٌ ماضية وسعيٌ مشكور وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم قد شفعوا هذه الشفاعة[1].

و لكننا نلقى بعض المحبين الذين استخدموا هذا العلاج فشلوا في تحصيل الفائدة المرجوة منه بل ازدادوا بعد استعماله وجداً على وجد حسبما قال المجنون بليلى:

أعانقُها والنفسُ بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان

و قد أظهرت التجارب أن القبلة يمكن أن تفعل هذا بالمحبّ إذا أسرف في

---

١. روضة المحبين/ ١٧٩ وما بعدها.

استخدامها فبدلاً من أن تشفيه تزيده أواماً. ويشبهُ هذا ما يقال في الطبّ من أن المريض إذا أسرف في استعمال الدواء اعتاد عليه وإذا اعتاد عليه أدمنه وإذا دخل في طور الإدمان لم ينفعه الدواء فيضطر الطبيب إلى تغييره بدواء آخر أقوى منه وهو ما حدث لقيس فإن كثرة استعماله لدواء التقبيل لم يعد هذا الدواء ليشفيه فراح يبحث عن دواء آخر. اسمعه يقول:

وما كان مقدارُ الذي بي من الجوى ليشفيه مما تلثم الشفتان

كان فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

و قد جرّب عاشقٌ آخر هذا الدواء فلم يشفه بل زاده ألماً فقال:

قبّلتُها أشتفي بقبلتها فزادني ذلك اللُّمى ألَما

وساءلتني عن مبتدا سقمي مسقمُ جفنيك مسقمي بهما

مخاطر التداوي بالقبلة

و قد حذّر بعض الحكماء من التداوي بالقبلة لأن هذا الدواء لا يشفي وجد العشاق بل يفاقم من تعلقهم ببعضهم – وقد بينّا ذلك في الفصل السابق – كما إنه إذا تعرض للقبلة من لم يذق طعم الحبّ في حياته فإنها ستجعله مرتهناً به مواظباً عليه. ونذكر في هذا المجال ما تحدّثت به كتب الحب من إن عاشقاً كانت تأباه حبيبته لأنها لم تكن تحسُّ بشيء نحوه. فجاءها ذات يوم متوسلاً أن تمكّنه من شفتيها ليرتشفهما ثم يمضي ولم تكن تدري لأيِّ شيءٍ يَفعَلَ هذا فلما استجابت لطلبه وأرشفته شفتيها وقع في قلبها منه كهيأة النار وأقبلت تلقاه كل ليلة[1].

فهذه الفتاة البريئة الساذجة كانت سليمة الذهن والقلب من هذا الداء فلما مارست القبلة مع محبّها انتقل إليها داؤه وأصيبت به بل أدمنته واخطر الداء إذا صار مزمناً.

---

١. الواضح المبين/ مغلطاوي/ ٢٢٥ باختصار.

و قد ثبت أن القبلة تثير الحبّ بالغافل عنه وتنبّه المتنسك العيوف إلى لذاذةٍ لا يكون قد ذاقها سابقاً وهذه اللذاذة فريدة لا تشبهها أية لذاذة في العالم. فيقوم يعاودها الكرّة والكرتين وهو في كل كرّةٍ يزدادُ بها تمسّكاً وإذا فطم عنها ازداد لفطمه ضنىً وحينها لا ينفع معه علاج إلا بها ولا يعصمه منها غير عاصم الإرادة والإرادة تكون منتفية في ذلك المجال.

و يحدثنا ابن حزم الأندلسي عن حالة من هذه الحالات ويقول: "وإني لأعرف جاريةً اشتدَّ وجدها بفتىً من أبناء الرؤساء وهو لا علم عنده بها. وكثر غمُّها به وطال أسفها إلى أن ضنت بحبّه وهو بغرارة الصبى لا يشعر. ويمنعها من إبداءِ أمرها إليه الحياءُ منه لأنها كانت بكراً بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعلّه لا يوافقه. فلما تمادى الأمر – وكانا إلفين في النشأة – شكت ذلك إلى امرأةٍ جَزْلةٍ في الرأي كانت تثقُ بها لتولّيها تربيتها فقالت لها (المرأة): عَرِّضي له بالشِّعر، ففعلت المرّةَ بعد المرّة وهو لا يأبه في كلٍّ هذا. إلى أن عيّل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قَعْدَةٍ كانت لها معه في بعض الليالي منفردين، وقد كان – يعلم الله – عفيفاً متصاوناً عن المعاصي. فلما حان قيامها عنه بَدَرَتْ إليه فقبلته في فمه ثم ولَّت في ذلك الحين ولم تُكلِّمه وهي تتهادى في مشيها. فبُهتَ وسُقِطَ في يده وفُتَّ في عضده ووجَدَ في كبده وعَلَتْهُ وِجْمةٌ، فما هو إلاّ أن غابت عن عينيه وقع في شَرَكِ الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعّدت أنفاسه وترادفت أوصاله وكثر قلقُه وطال أرقُه فما غمض تلك الليلة عيناً وكان هذا بدء الحبِّ بينهما دهراً"[١].

و قد جرى مثل هذا لواحد من أصحابي أثقُ به ولا أستطيع أن أذكر اسمه وكان في صباه متفوقاً في الدراسة وكان في ذات الوقت بتولاً لا يعرف

---

١. رسائل ابن حزم الأندلسي/ تحقيق د. أحسان عباس/ ١/ ١٨٣.

شيئاً عن الحب ولم يجالس امرأةً قط. ولهذه الأسباب طُلب إليه أن يدْرس فتاة من جيرانه اللغة الانكليزية. فكان يقعد منها مقعداً يفصل الكتابُ بينهما. فإذا تلامست يداهما على صفحة الكتاب صدفةً أسرع متورعاً بعزل يده عن يدها خوفاً من أن تظنّ به ظناً سيئاً. ثم مرّ عليهما زمنٌ وهما على هذه الحال ثم أخذت الفتاة تحتال لأن تضع اصبعها على اصبعه فتسأله: أين هذه الكلمة؟ فعندما يضع اصبعه عليها كانت تسرع فتضع اصبعها على اصبعه وتضغط عليه بشدّة مبديةً أنها تريد التأكد وليس شيئاً آخر، فكان يستحي ويسحب اصبعه عن اصبعها بجهد. وبمرور الأيام صار الفتى يجد لذّة في تلامس الاصابع ويبدو أنها كانت تشعر بنفس اللذّة فكانا يتبادلانها عن طريق قراءة السطر بإصبعين متلاصقين. ثم مرت أيام وهما في هذه الحال وفي ذات ليلة عندما أذن الدرس بالانتهاء وأغلقا الكتاب، نظرت الفتاة إلى وجه الفتى نظرة عميقة وتأملته ثم مدّت يدها إلى شفته السفلى فقرصتها بين اصبعيها ثم انحنت عليها فرشفتها ثم مضت مسرعة إلى دارها. وعند ذلك تغيرت أحوال الفتى وعندما قدم له العشاء لم يذق منه شيئاً ثم عاف بعد ذلك سعيه ودراسته فرسب في تلك السنة بالامتحان.

الاستشفاء بالريق

و كان النظر إلى الريق كعلاجٍ لشفاء الأمراض معروفاً لدى الشعوب القديمة. ذكر ذلك عالم الفولكلور (كراب)، وعزا سبب الشفاء إلى فعل (الأنزيمات) المطهّرة الموجودة في الريق. وقال إنه استخدم بكثرة في تخمير الفقاع (البيرة) في الأزمان الغابرة واعتقد الناس أنه يمنع الأذى عن الإنسان[١].

---

١. كتابه/ علم الفولكلور/ ٣٤٧.

و قد عالج العربُ به بعض الأمراض الجلدية كالقوباء[1] وهي داءٌ يعتري جلد الإنسان فينتشر ويتعمّق في الجلد وقد يلتقم الأنف ويزعمون أن ريق الصائم إذا نُفِثَ على القوباء أزالها[2]. ولا يزال هذا العلاج مستعملاً عندنا في الطبّ الشعبي ويفضّلُ أن يكون الريقُ صباحياً حيث يكون اللعاب مركزاً فيأخذ المريضُ بإصبعه شيئاً من لعابه ويطلي به الموضع فيشفى حسبما حدثني بذلك أحد المجربين.

و يعالج الانكليز به (الوحمةَ الولادية) باعتبارها مرضاً جلدياً بتدليكها باللعاب ويفضّل أن يكون المتبرع بهذا اللعاب قد مرَّ بفترة صوم. ويذكر (براون) أن هذا العلاج كان مستعملاً في انكلترا حتى خمسينيات القرن الماضي[3].

و يتداول عربُ الصعيد بمصر (أقراص شفاء) مصنوعة من التراب الممزوج بالريق ويعتقدون أنها تنفع في شفاء الأمراض. وقد ذكرها المستشرق الانكليزي (إدورد وليم لين). فإنه عندما زار مصر في أربعينيات القرن الماضي أعطاه أحد الأعراب الصعايدة ثلاث (كعكات) من التراب الأشهب صغيرة مستطيلة وقد طبع عليها هذه العبارة: (بسم الله ترابٌ من أرضنا مُزِجَ بريق بعضنا)[4].

و بدا لبعض الباحثين أن مسألة الاستشفاء بالريق ترجع إلى تجارب الإنسان القديم في بحثه عن الشفاء من الأمراض حيث جَرَّب فائدة امتصاص الجرح عندما كان يتعرض إلى لسع الحشرات وعَض الأفاعي

---

١. (القوباء) في الفصحى وفي العامية (الحزاز). ذكره الفراهيدي في (العين/ مادة: قوَبَ) ولاسحاق بن حنين كتاب في القوباء (الفهرست لابن النديم ص٢٥٠).

٢. شرح شفافية ابن الحاجب/ الاستراباد/٤/٣٩٩.

٣. A Book of Superstitions. P 40.

٤. مقالته: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم/ مجلة الرسالة عدد ٤٧ ص ٦٨٦ سنة ١٩٤٢.

وغير ذلك. ومن المحتمل أن هذا العمل اقترن بلعق المكان المصاب فكان يحصل له الشفاء ومن ذلك جاء المصطلح الشائع (فلان يلعق جراحه).

و لاشك أن شفاء الجرح باللعق يتأتّى مما في اللعاب من إنزيمات مطهرة تقتل الجراثيم وتساعد الجلد على الإلتئام وتلك غريزة أوجدها الله تعالى عند الحيوان والإنسان معاً فكلاهما يلعق جراحه بدافع لا شعوري.

و يرى قسمٌ من الباحثين أن التقبيل سبق المصَّ واللعق في تخفيف الألم ولا تزال الامهات إلى اليوم يقلن لأطفالهن الذين تؤلمهم إصاباتهم: (دعني اقبل مكان الألم حتى يطيب) فيستجيب الطفل بالإيحاء النفسي فيخفّ ألمه.

و تحدثنا النصوص عن (القبلة الشافية) يطبعها (رجل مقدس) على مريض ويبرؤه من مرضه. وذكر في هذا المجال أن القديس (مارتن) أسقف (Tours) عندما كان في سفرةٍ إلى باريس في القرن الرابع عشر وجد مريضاً مجذوماً جالساً عند بوّابة المدينة فأخذته الرأفة به وبحنانٍ بالغ ذهبَ إليه وقبَّل قروحه فشفى المجذوم من مرضه[1].

و لقد كان الإنسان البدائي يعتقدُ بإن البصاق يمثلُ روح الشخص أو جزءً حيوياً من ماهيته لذلك كانت البصقةُ تقومُ مقام الهديةِ أو الهبةِ التقديرية إذا وجّه بصقته نحو الآخر . وقد ذكرنا في بداية الكتاب أنه إذا أرادَ شخصٌ من قبائل (الماساي) في إفريقية أن يُقبلَ شخصاً بصق عليه لأن البصقة عندهم بمثابة تعبير عن الحب والتقدير.

و بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الناس يعتقدون بأن البصقة تمدُ المبصوق عليه بالحماية لأنها تحتوي على الطاقة الحيوية الموجودة عند الباصق.

و من جانبٍ آخر فإن البدائيين يعتقدون بأنهم إذا استطاعوا أن يحصلوا

---

١. Webster's Ency. Kiss Item.

على بصاق عدوهم استطاعوا إيذائه عن طريق إجراء السحر على بصقته. ومن هذا نعرفُ السبب في أن الرؤساء في جزائر (السندويش) مثلاً يرفقون معهم خادماً يحمل مبصقة وباعتناء كبير يقوم بدفن محتوياتها كل صباح في بقعة سرية خشية أن السحرة يستعملونها في أغراضهم الشريرة.

و يعتبرُ لعاب الإنسان نافعاً كتعويذةٍ لإبطال السحر. وهذا المعتقد يجري عندنا عند رؤية جسمٍ غريب أو مادةٍ غريبة في الدار أو عند باب الدار ويُشك في كونها سحراً فالعادة المتبعةُ لإبطاله هي البصق عليه.

و يعتبرُ البصاقُ مضاداً قوياً للمرضِ بكافة أنواعه وبذلك دخل في معالجة أمراض العيون بخاصة وقد سجل (تاسيتوس) كيف إن (فسبازيان) شفا أعمى في الإسكندرية بواسطة ترطيب عينيه بالبصاق.

و يعتقدُ إن بصقة الشخص تمدُّ ذات الشخص بالقوة ولذلك كان المتلاكمان في الرياضات القديمة أو المتصارعان يبصقانِ على أيديهما متوقعين فإن هذه سوف تزيدُ سحرياً في قوة ساعديهما.

و هذه الممارسة مألوفة عندنا نراها عندما يعمل الفلاح بمسحاته فإنه يبصقُ على يديه ويمسكُ مقبضها ويدوسُ الأرض برجله معتقداً أن القوة الكامنة في بصقته أمدته بالقوة على حرث الأرض وكذلك العاملُ عندما يعمل فإنه يبصقُ على يديه ثم يمسكُ بالمعولِ ويضربُ به الأرض بقوةٍ مستمدةٍ من تلك البصقة. وطبيعيٌ إنه يفعلُ ذلك بتلقائيةٍ لا يعرفُ تعليلها ولكنها في الواقعِ مستمدةٌ من تأثيرات الأرث الثقافي القديم المركوز في لا وعيه.

و فوق كل ذلك كانت هناك حكايات الأناجيل التي انتشرت بين الشعوب المسيحية حول الاعتقاد بمعجزات البصاق. وقد حكت الأناجيل كيف إن المسيح – بواسطة استعمال البصاق – صنع عجائب في اعادة البصر والكلام إلى العُمي والبكم.

(وجاءوا إليه بواحدٍ كان أصم وتأتاء فأخذه جانباً من الجمهور ووضع أصابعه في أذنيه ولمس لسانه ببصقه ونظر إلى السماء وتنهد وقال له : كن مبصراً . ومباشرةً تّحرر لسانه وتكلم بوضوح) .

(وجاءوا إليه برجلٍ أعمى فأخذ الأعمى وبصق في عينيه ووضع يديه فوقه وسأله إن كان يرى شيئاً فنظر وقال: أنا أرى الرجال).

(ورأى رجلاً أعمى من طفولته فبصق على الأرض وصنع طيناً من البصقةِ ودهن عينيه بالطين وذهب واغتسل وجاء مبصراً).

و هذه الخلطة المتكونةُ من الطين المعمول من التراب والبصاق تشبه الخلطة التي صنعها الصعايدة وعملوا منها كعكات (تُرَباً) كتبوا عليها (بسم الله . . ترابٌ من أرضنا مزج بريق بعضنا) وسموها كعكات الشفاء كما ذكرناها في بداية الفصل[1].

و يعتقد كثيرٌ من الناس عندنا بأن لبصاق الاشخاص المقدّسين فاعلية كبيرة في علاج الامراض بعامة فإذا بصق هذا الشخص – ويكون في العادة (سيداً) أو رجل دين – في ماء وشربه المريض شفى.

وقد رأيت جارتنا عندما كان يمرض أحد أطفالها تذهب به إلى (سيد) معيّن فيقوم بفتح فم الطفل ويتفل فيه ثم تعود بالطفل إلى البيت وفي يقينها أنه سيشفى ببركة تفلة السيد.

و وجدتُ في محيطنا من تخصّص بمعالجة أمراضٍ معينة كالرمد فإذا تفل هذا في عين المصاب أبرأها. ولا يقتصر الأمرُ على الرجال فإن بعض النساء يقمن به. وقد حدّثتني جارتنا المذكورة أنها تعرف إمرأة (علوية) تداوي العيون الرمدة عن طريق مسح الجفن الملتهب بطرف لسانها المبلول بلعابها.

و نجد لهذا العلاج جذراً في روايات التاريخ الإسلامي فجاء فيها أن رسول الله (ص) يوم خيبر تفل في عين علي – وكان رمداً – فبرئت وسار

---

١. Webster's World ency. Spitting Item.

إلى القتال[١]. وشكا (طفيل الغنّوي) إليه (ص) من الجذام فدعا بركوةٍ ثم تفل فيها وأمره أن يغتسل بمائها فاغتسل وعاد صحيحاً[٢].

و كان الصحابة يقومون بذلك فروي أن أحدهم رقى زعيماً من العرب جاءه يستشفيه فتفل عليه وقرأ (الحمدُ لله رب العالمين) فشفي[٣].

و في حديث (حَبابه الوالبيّة) أنها صار في عينيها وضح فجاءت الحسين بن علي فتفل فيها فبرئت[٤].

و قد عرف المسلمون العلاج بالنفث والنفخ والبزق والتفل وكلها ينظر في فاعلية الشفاء بها إلى اللعاب.

كما كان التحصين من (العين الشريرة) بالبصاق معروفاً بين المسلمين حيث يقوم (الراقي) بتعويذ (المعيون) بآيات من القرآن الكريم ثم يبصق عليه فيذهب شرّ العين منه. وقد جاء في الطرائف التي تخصُّ هذا الباب: أن الخنفساء قالت لأمها: يا أماه.. ما مرُّ عليّ أحدٍ إلا بَزَقَ عليّ. فقالت: يا بنيَّةُ تُعوِّذين[٥] أي تحصنين من العين بذلك البزاق. وكانت الخنفساء تعتقد أن ابنتها أجمل مخلوقات الله.

و قد تحوّلُ تفلةُ (المقدَّس) الماءَ الأُجاج إلى ماءٍ عذب. فذكر عن (بئر التفلة) أنها كانت أمام مسجد رسول الله (ص) وكان ماؤها مالحاً فتفل فيها النبي (ص) فصار ماؤها عذباً فسميت بذلك الاسم وكان اسمها (بئر أويس) ويستحب الحجيج التوضؤ بمائها[٦].

---

١. رسائل الشريف المرتضى/ تحقيق السيد أحمد الحسيني/ ٤/ ١٠٥.

٢. مناقب آل أبي طالب/ ابن شهر آشوب/ ١/ ١٠١.

٣. نيل الأوطار/ الشوكاني/ ٩/ ١٠٦.

٤. بصائر الدرجات/ محمد بن الحسن الصفار/ ٢٩١.

٥. عيون الاخبار/ ابن قتيبة/ ٤/ ٤١.

٦. نيل الأوطار/ المصدر السابق.

و لما كانت المحبوبةُ مقدّسةً عند مُحبّها فحريٌّ بتفلتها أن يكون لها هذا التأثير على الماء الأُجاج وربما أكثر من ذلك حيث يمكن أن تحول ماء البحر المالح إلى ماء عذب حسبما جاء في قول عمر بن أبي ربيعة:

فلو تفلت في البحر والبحرُ مالحٌ لأصبح ماءُ البحر من ريقها عذبا

و قد أجمل أحد الشعراء فعل ريق المحبوبة بهذا البيت:

بين إلحاظها (كتاب الإشارات) وفي ريقها (كتاب الشفاء)

و كتاب الشفاء هوكتاب ابن سينا في الطب وفيه علاجات الأمراض جميعاً.

و ليس في ذلك ما يثير الغرابة والعجب فإنّ ريق محبوبة العباس بن الاحنف يأخذ مجالاً أوسع حيث يمنَحُ متذوقه حصانة من الأمراض إلى آخر الدهر. يقول:

تلك التي لو ذقتَ من ريقها ما ذقت سقماً آخر الدهر

و يمضي المتنبي إلى أبعد من ذلك فيطلقُ عل ريق محبوبته اسم (ماء الحياة) الذي لو أصاب التراب لأحيا سالف الرِّمم المندثرة فيه. يقول:

قبّلتها ودموعي مِزجُ أدمعها وقبلتني على خوفٍ فماً لِفَمِ

فذقتُ (ماءَ حياةٍ)[1] من مُقَبَّلها لو صابَ ترباً لأحيا سالف الرمم[2]

و في قوله هذا نظر نستطيعُ أن نستذكر من خلاله دور المرأة كإلاهةِ للخصب والانبعاث حيث كان ينسب إليها إعادة الحياة إلى الأرض الميّتة

---

١. عاءُ الحياة في الميثولوجيا الإسلامية يخرجُ من عين تتفجَّرُ من أركان العرش. وقد شرب (الخضر) من هذا الماء فهو حيٌّ لا يموت. وخلق اللّه عز وجل ملائكة بأيديهم أباريق مملوءة بماء الحياة من الفردوس ويطرحونها في آنية المؤمنين فيدوم خلودهم.

٢. ديوانه/ ٢/ ٣١٢.

حسبما تحدّثت بذلك عقائد العراقيين القدماء ويبدو أن هذا المعتقد بقي كامناً متوارثاً في لاوعي الشعراء فظهر بهذه الصياغات الفنية. وقد برز واضحاً في شعر جميل بثينة عندما أعلن أن ريق محبوبته يمكن أن يحييَه عند الموت فقال:

ولو أن راقي الموت يرقى جنازتي بريقك يوماً يا بثين حَيِيتُ[1]

و هكذا تصبح بثينة بمقام (عشتار) إلاهة البعث التي اعادت حبيبها (تموز) إلى الحياة بعد أن رحل إلى عالم الأموات.

و لايقتصر ريق بثينة على بعث جميل وحده وإنما يبعث من في القبور. يقول:

مفلَّجةُ الاسنان لو أن ريقها يدواى به الموتى لقاموا من القبر

إنّ قدرة المحبوبة على إقامة الموتى بالمقارنة مع معتقدات العراقيين القدماء هي خصيصة امتازت بها إلاهتهم (عشتار) وردَّدت ذكرها تراتيلهم وصلَواتهم الدينية في المعابد. كما إنهم نسبوا إليها بالإضافة إلى ذلك القدرة على الشفاء، وقد نسب جميل هذه القدرة أيضاً إلى بثينة حيث يمكن لريقها أن يشفي غلّةَ الصادي وبدونه لا يمكن أن يرتوي. يقول:

ألم تعلمي يا عذبة الريق إنني أظلُّ إذا لم اسقَ ريقك صاديا

و قد تردّد هذا المعنى في أشعار غيره من الشعراء كبشار بن بُرد الذي قال:

أيها الساقيان صُبّا شرابي واسقياني من ريقِ بيضاء رودِ

إن دائي الصدى وإن شفائي شربةٌ من رضاب ثغرٍ بَرودِ

و على الرغم من أن بشاراً لم يسمّ تلك البيضاء فإننا نستطيع أن نقول إنها المرأة الحبيبة المعبودة كإلاهةٍ في كلّ العصور والأزمان.

---

١. الشعر والشعراء/ ٢٩٧ ومغلطاي/ ١٦٤.

الشفاء من الحب بالحبّ.. النظرية والامتداد

و قد افردت كتب الحب كثيراً من العلاجات ابتدعت لإعادة المغيبين بالعشق إلى صوابهم والأيابُ بهم إلى مسيرة مجتمعهم على اعتبار كونهم من المرضى المنفصلين عن المجتمع.

و أقدم هذه العلاجات جاء في (نشيد الاناشيد) الذي بحثناه سابقاً ويعتقدُ أنه كتب في القرن العاشر قبل الميلاد حيث ذكر فيه العلاج بإقراص الزبيب والأنعاش بالتفاح. تقول فيه العاشقة مخاطبة أهلها:

أسندوني بأقراص الزبيب
أنعشوني بالتفاح
فإنني مريضةٌ حُباً"[1]

و كان العشاق العرب يذهب بهم أهلوهم إلى الطبيب أو العَرَّاف أو الراقي أو المُعَوِّذ فيجرب عليهم ما عنده من أدوية قد تنفعهم أو لا تنفعهم وكان من هذه الأدوية تمائم ومعوّذات ومنها أبخرة ومشمومات ومنها أشربة ومنها أطعمة حتى إذا لم يجدوا في ذلك نفعاً عمدوا إلى)الكيٌ) وهو آخر الدواء كما يقال. فيقوم رجلٌ بحمل العاشق على ظهره كما يحمل الطفل ويأخذ آخر بإحماء حديدة حتى الاحمرار فتكوى به مؤخرته فيذهب عنه عشقه[2].

و من الذين استخدم بهم الكيّ (كُثيّر) صاحب عزّة. فقد ذكر أنه جاء إلى عبد الله بن جعفر وقد نَحِلَ وتغيَّر فقال له عبد الله: مالي أراك متغيِّر يا أبا صخر؟ قال: هذا ما فعلت بي (أم الحويرث) ثم ألقى قميصه فإذا بجسمه آثار كيّ[3].

---

١. نش/ ٢/ ٥.
٢. المفص في تاريخ العرب قبل الاسلام/ ٦/ ٨٨.
٣. الأغاني/ ٩/ ٣٥.

و كان (مسافر بن أبي عمرو بن أمية) قد تعشَّقَ جارية من أهل مكة فَنَذَرَ به اهلها فهرب والتحق بالحيرة عند النعمان بن المنذر فاعتلَّ هناك وأصابه مرضُ الهُلاس (السلّ). فجمع له النعمان أطباء الحيرة وأجمعوا على كيّه فكوي فبرأ[1].

كما استخدم الضربُ في علاجهم إذا تفاقمت بهم الحاله وقاربت الجنون فكانوا على الضرب يصبرون. تقول إحدى العاشقات:

يا رحمتا للعاشقينا ... ما إن لهم أبداً معينا

كم يهجرون ويبعدون ... ويضربون فيصبرونا

و قولها: يهجرون تريد أنهم كان يذهب بهم إلى (الديارات) (الأديرة) فيسجنون هناك في السراديب وقد يربطون في السلاسل ثم يتعرضون للضرب بإعتبارهم مجانين والضربُ يفيدهم في اخراج الجنّي من أجسادهم. ويقف متصفّح (كتاب الديارات) للشابشتي على صور مأساوية من هذا التعذيب الجسدي الفظيع.

إلا أن أهم العلاجات التي وُصفت للعاشق لاخراجه من محنته هي صرفُ وجهة نظره نحو حب آخر لكي يسلو حُبّه الأول ومعنى هذا أنهم عالجوا الداء بالداء.

و قد عرف العربُ فكرةَ هذا لعلاج واستخدموها في مداواة مدمن الخمر وطبّقها على نفسه الأعشى الكبير ميمون بن قيس (المتوفى سنة ٧ هـ = ٦٢٩ م) فقال:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها[2]

وأخذها أبو نواس فقال:

---

١. مصارع العشاق/ جعفر بن أحمد السَّراج/ ١/ ٢٥٠.

٢. ديوانه/ ٢٢/ تحقيق د. محمد حسين.

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الداء

و كانت فكرةُ (علاج الداء بالداء) معروفةً لدى الشعوب القديمة ووردت في الطب اليوناني وأشار إليها (أرسطو) (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) في بحثه عن المسرحية وأسماها (التطهير Catharsis) وهو دواء وطبّ من حيث أنه يطهّر الجسم من العواطف السيئة بإثارتها على المسرح فيتخلّص الجسمُ منها ومما يتّصل بهامن انفعالات ضارة في تطرّفها. كما يُتخلَّصُ من خطر انفجارها في الحياة العامة بمشاهدتها على المسرح بطريقٍ لا ألم فيه ولا ضرر.

و كان هذا كشْفاً عظيماً لأرسطو عالج فيه (الشرَّ بالشرّ) – كما يقول الدكتور محمد غنيمي هلال – وقد اثبتت العلوم الحديثة أن بعض الأمراض يعالج طبياً بتناول مقادير معينة من عواملها، من شأنها أن تثير في الجسم نفس تلك الأعراض بشكل لا يُثيرُ ضرراً وهو ما يسمى بـ(مداواة الشيء بمثله Homeopathic)[1]. كما في التطعيم ومشابهاته[2].

و قد أخذ بهذا المبدأ أصحاب مدرسة (التحليل النفسي) وتوسَّعوا بهِ فرأوا أن توجيه العاطفة وجهةً أخرى يمكن أن يحوّل كل (كبتٍ) مرضي في اللاشعور إلى حالةٍ أعلى في الشعور أو الوعي فتحويل النفس المستغرقة في حبٍّ لا جدوى منه إلى (حبٍّ افلاطوني) أو إلى ثقافة فنية أو إلى حبٍّ للطبيعة أو إلى (وجدٍ ديني) فيه إزالة للأخطار التي تترتب على الاستغراق في الحبّ الأول.

و من اللافت للنظر أن ابن الجوزي فطن إلى هذا العلاج قبل مدرسة التحليل النفسي ودعا إلى العمل به فأرشد المحبين إلى تفريغ الوجد

---

١. أول من أطلق هذا المصطلح على هذا النوع من المعالجة الطبيب الألماني (هاهنمان) سنة ١٧٩٦.

٢. كتابه/ المدخل إلى النقد الادبي/ ٣٢٤.

بالزواج ممن يحبون. وإن تعذر ذلك فممارسة الجنس الحلال من جارية يمكن شراؤها أو إمرأة يمكن الزواج منها وليطلب الحسناء الفائقة لإن الحسن بإغراءاته قد ينسيه حبّه الأول. ثم حث ابن الجوزي العاشق أن يكثر من شم الزهور كالبنفسج والنظر إلى (النيلوفر) الذي ينمو في البرك والأنهار ثم يلوذ بالنظر إلى الماء الصافي والرياض النظِرة. وبالنسبة إلى الفن فقد ذكر ابن الجوزي أن المسموعات المطربة تسلي كأصوات الشحارير واليمام والبلابل وكذلك الغِناء[١].

و كان علاج الحبّ بالحبّ معروفاً لدى الناس ومعمولاً به عند العشاق بخاصة، فحينما ييأس العاشقُ من نيل محبوبته أو نَوالها فإنه يعمد للبحث عن حبٍّ آخر يزيل به حبها ويسلو به عنها. تقول (أمُّ الضحاك المحاربية):

سألتُ المحبين الذين تَحمَّلوا ... تباريح هذا الوجد من سالف الدهر

فقلتُ لهم: ما يُذهبُ الحبَّ بعدما ... تَبَوَّأ ما بين الجوانح والصدر؟

فقالوا: شفاءُ الحبِّ حبٌّ يزيله ... من آخر أو نأيٌ طويلٌ على الهجر

أو اليأس حتى تذهل النفسُ بعدما ... رَجَت طمعاً واليأسُ عونٌ على الصبر

و ذكر أن قيساً عندما تمكن حبُّ ليلى منه جاء أهله إليه يعزّونه عنها ويقولون: نزوّجك أنفس جارية من عشيرتك فيأبى إلا ليلى. وغايتهم مداواة ولدهم من هوى ليلى[٢] بهوى غيرها.. ولكن قيساً بعد أن تمكن حبُّ ليلى من نفسه راح يعالج هذا الحبَّ بحبٍّ ليلى نفسها ويقول:

تداويتُ من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمر

فكانت النتيجة أن أوقعه علاجه الذي اختاره بنفسه في بلاءين: بلاءٌ

---

١. ذم الهوى/ المصدر السابق/ فصل: في ذكر أدوية العشق/ ٥٨٢ بتصرّف.

٢. الأغاني/ ٢/ ٤٢.

حبّها وبلاءُ حبٍّ حبّها فصار رهينة صراع بين ارتباطين: ارتباط بليلى الحقيقية بكلِّ مراراتها وعذاباتها وارتباط بليلى المرسومة في لا شعوره رسماً مُمَوَّهاً بألوان الخيالات الجميلة والاحلام العذبة. وعندها انفصل عن ليلاه الحقيقية وهام بليلى الخيالية فصار عندما تجيئه ليلى الحقيقية تنقر باب خيمته فإنه لا يلتفتُ إليها وينكرها لأن قلبه منشغلٌ بليلى الحاضرة أبداً في خياله[1] وتلك حالة من أعقد حالات الحبّ حيث تؤول بصاحبها إلى الفصام والانفصال عن المجتمع.

و لقد ثبُت أنه في الحالات المزمنة – كحالة قيس – لا يحققُ علاج (الحب بالحب) الفائدة المرجوّة منه فقد يرتدُ العاشق ضدّه ويتمادى في الانصراف إلى الحبّ الأول فيغيب فيه عن نفسه وعن وجوده فيفقد شخصيته وكيانه. ولذلك حَذّر العالم الخلقي الفرنسي (لاروشفوكو) منه قائلاً: "تطفئُ الريحُ القويةُ الشموع ولكنها تشعل النار"[2].

و من الغريب والمثير للعجب أن نجد لهذا القول مثيلاً في المأثورات الادبية العربية وهو قول أحد الشعراء:

فلا تطفِ نار الحبّ بالحبّ طالباً　　　سلُوّاً فإنّ الجمر يَسّعَرُ بالجمرِ[3]

وهذا ما حدثَ لأحد الطالبين سلوّاً عن حبّه الأول حيث توجه نحو حبٍّ آخر ليَنسى ولكن هذا الآخر لم يُسله وإنما زاده تعلقاً بالحبّ الأول فقال أحد الشعراء يصف حاله:

ولما أبى إلا جِماحاً فؤادُه　　　ولم يَسْلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهلِ

تسلّى بإخرى غيرها فإذا التي　　　تسلّى بها تغري بليلى ولا تُسلي

و هكذا تسقط نظرية (علاج الحب بالحب) ليس عند الشرقيين فحسب

---

١. في الحب والحبّ العذري/ المصدر السابق/ بتصرّف/ ص ١٠٢.

٢. المدخل إلى النقد الادبي/ المصدر السابق/ ٣٢٥ الهامش.

٣. الزهرة/ محمد بن داود الأصبهاني/ ١/ ٧٨.

وإنما تسقط عند الغربيين أيضاً وذلك حسب حكاية (تريستان وايزولدة) التي فصّلناها سابقاً حيث نجد (تريستان) لما يئس من حبيبته (إيزولدة) وظنّ أنها انصرفت عن حبّه ورجعت إلى زوجها الملك (مارك) رضي بالزواج من إمرأةٍ ثانية (أسمها نفس اسم حبيبته وجمالها مشابه لها) غير أنه لم يستطع العيش معها ولم يقاربها وتركها عذراء لأنه ما زال يحنُ إلى إيزولدة الأولى. وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة وعلمت بموته حبيبته الأولى جاءت إليه وضمّت جسده إليها ولفظت أنفاسها الأخيرة عنده[١].

١. الحبُّ والغرب/ المصدر السابق/ ٣١.

الباب التاسع

عندما يَعِزُّ تقبيل المحبوب بذاته

- تقبيل التراب الذي وطأه المحبوب
- عائد الكلب
- جراحُ السكين في موضع التقبيل
- تقبيل ما أشبَهَ المحبوب
- تقبيل ما مسَّ فمَ المحبوب
- ماذا في رسائل المحبين
- تقبيل نَعل المحبوب
- تقبيل رِجل المحبوب

تقبيل التراب الذي وطأه المحبوب

و على الرغم مما سقناه من شواهد دالة على أن المحبين كانوا ينالون عطف بعض الجهات المتسامحة فيباح لهم أثناء الخلوات اقتطاف اللذاذات من تقبيل وعناق وانتهال شفاه بحدود مرسومة لا يجوز لهم الخروج عنها... على الرغم من ذلك فإن سيف التفريق يبقى مصلتاً عليهم سواءً من الأهل المتزمتين أو من المجتمع الذي يطاردهم أو من الحكومة التي تهدر دمهم.

و بعد أن يطفح الكيل ويتمادى العاشق في غيِّه ويسرفُ بملاحقة الفتاة في عقر دارها ولا ينفع معه ترشيد ولا تهديد ولا وعيد ولا هدر دم ... عند ذلك لا يجدُ الأهل مَفرّاً من الرحيل بإبنتهم في جنح ليلٍ داجٍ إلى مكانٍ قَصيٍّ في مطاوي البيد يصعبُ على المحبِّ ترسُّمَهُ واقتفاء أثره. وعندها تقع الطامَّةُ الكبرى والمصيبة العظمى على الفتى عندما يأتي إلى زيارة محبوبته على عادته فيرى ديارها بلقعاً ينعقُ في خرباتها البوم وتعوي في أطلالها الذئاب ووحوش الفلوات.

و يرتسمُ هذا المشهد المأساوي الأليم أمامنا في حالة قيس مع أهل ليلى. فإنه كان لا يزال يغشى بيوتهم ويهجم عليهم فشكوه إلى السلطان فأباح لهم دمه. واخبروه بذلك فلم يَرُعْهُ وقال: "الموتُ أروح لي فليتهم قتلوني" فلما علِموا بذلك وعرفوا أنه لا يزالُ يطلب غِرَّةً منهم ارتحلوا عنه وأبعدوا في الصحراء. فجاء قيسٌ عشيَّةً وأشرف على دورهم فإذا هي خاوية فقصد منزل ليلى وألصق صدره بجدرانه وجعلَ يمرِّغُ خدّيه بترابه ويبكي[1].

ثم سمعوه يقول:

---

١. الأغاني/ ٢/ ٢٦.

أمرُّ على الديار ديار ليلى أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا[1]

و لاشك أن تقبيل الجدار والآثار يحمل في ذاته دلالةً واضحةً علي اشتداد ضغط الوجد بالمحبّ فيكون ذلك التقبيل تنفيساً كبيراً له يخفّف عنه الضغط. وقد وجد العشاق بهذه الممارسة بعض الراحة وقليلاً من الاكتفاء والقناعة. فنرى المجنون بليلى يدأب على زيارة منزل ليلى يَتَرسَّمُ آثارها فيه ويقبلها بغية إطفاء ما في صدره من غِلَّة. وقد جاء في أخباره أنه وقف ذات يومٍ على أبني عَمٍّ له. فقالا له: يا أبا المهدي ألا تجلس؟ فقال: لا .. بل أمضي إلى منزل ليلى وأترسمُهُ وأرى آثارها فيه وأُشفي ما في صدري بها. فقالا له: فنحنُ معك. قال: إذا فعلتما أكرمتُما وأحسنتما. فقاما معه حتى أتى إلى دار ليلى فوقف بها طويلاً يتَتَبَّعُ آثارها ويبكي ويقف في موضعٍ موضعٍ ويبكي[2].

و من المعروف أن البكاء يعين المحبين على الشفاء مما يجدون من وَصَب، فكان يتزامن انسكاب دموعهم مع وقوفهم على ديار الاحبة المندرسة وقد ورد ذلك كثيراً في أدبياتهم نذكرُ منه على سبيل المثال قول امرئ القيس:

وإن شفائي عبرةٌ مهراقةٌ فهل عند رسم دارسٍ من مُعَّولِ

و يمكننا أن نعتبر (قيس بن ذريح) المشهور بـ(قيس لُبنى) سَيِّد هذا الباب – أعني باب تقبيل التراب – فإنه لما ارتحلت عنه (لُبنى) تَتَبَّعها مَلَيّاً ثم وقف فنظر إلى موكبها الراحل بعينين غرقتين بالدموع. فلما غابت عنه كَرَّ راجعاً إلى ديارها وقد فقد صوابه، فلما رأى أثر خفٍّ بعيرها اكبَّ عليه يقبله ثم راح يقبِّلُ موضع مجلسها وآثار أقدامها المرتسمة على التراب فلما

---

١. ديوان الصبابة/ أبن أبي حجلة/ ٦١.
٢. ا.لأغاني/ ٢/ ٢٨.

لاموه على ذلك قال:

وما أحببتُ أرضكم ولكن أُقبِّل أَثر من وطأ الترابا
لقد لاقيتُ من كلفي بلبنى بلاءً ما أسيغُ به الشرابا[1]

و ياله من بلاء ... ولكَ أن تتصوّره في المشقةِ وشدة الجهد الذي كان يقاسيه من تتبع أثر قدمها وتعيينه من بين حشدِ آثار الأقدام. ومن اليقين أنه كان جُهداً قاسياً يتطلّبُ كثيراً من الصَّبر والأناة، فكيف إذا اقترن بتتبع أثر خف بعيرها؟

و لقد كان العاشق يتحمَّلُ ذلك العناء ويصبر عليه وكأنه كان يريد عن طريقه تعذيب ذاته لفراقٍ مقدَّرٍ عليه ولا طاقةَ له بدفعه.

و قد يتبادر إلى الذهن أن هذه المتابعة المضنية تختص بطبائع العشاق في البادية وأن طبيعة عشاق الحاضرة تنأى عنها لعدم واقعيتها وجدواها. غير أن ثَمَّةَ مشاهد عيانية تؤكّد وجودها في الحواضر كذلك. فيروي ابن حزم الاندلسي عن سليمان بن احمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب في جزيرة (صقليّة) – وكان شاباً في غاية الجمال – فشاهده يوماً في بعض المتنَزهات ماشياً وامرأةٌ خَلْفَهُ تنظر إليه. فلما بعد عنها أتت إلى المكان الذي أثَّر فيه مشيُهُ فجعلت تقبلهُ وتلثمُ الأرض التي فيها أثَرُ رِجله[2].

و من خلال تتبعنا لهذه الممارسة المستمسكة بوجدان العاشقين يظهر لنا أنها لا تنحصرُ بشعبٍ معيَّن بل هي ظاهرة انسانية مألوفة لدى المحبين بعامة على اختلاف أجناسهم. من ذلك ما نقرؤه في تعبير عاطفي

---

١. الواضح مبين/ مغلطاي/ ٣١٤.

٢. كتابه/ طوق الحمامة/ في مجموعة رسائل ابن حزم الاندلسي/ تحقيق: د. إحسان عباس/ ١/ ٣.

أخّاذ جاء في رواية (مرتفعات وذرنج) للكاتبة الانكليزية (إميلي برونتي)[1] على لسان عاشقة تقول فيه:

"إني لأهوى الأرض التي يدوسها بقدميه والهواء الذي يتنسَّمُه وكلَّ ما تلمسه يداه وكل ما تنطقُ به شفتاه .. أجل أنا أهوى كل نظراته وكلُّ حركاته، وأنا أحبُّه بأكمله حُبّاً جَمّا، حباً كاملاً غير منقوص"[2]

و لو أوقفنا أنفسنا عند كلف هذه العاشقة الانكليزية بالأرض التي يدوسها حبيبها بقدميه وقارناه بكلف أختها الصقلية بتقبيل موضع الأرض التي داسها حبيبها برجله وكذلك مع كلف العشاق العرب بتقبيل التراب الذي داسته أقدام حبيباتهم لرأينا أن هذا الكلف ينطلق من منظور واحد هو ايمانهم بقدرة هذا التراب على الشفاء من جوى الوجد الذي يعانون. حيث أنه اكتسب القدرة الشفائية من صاحبه المقدس عندهم.

و نستشهد على هذا بقصبّة أحد العلماء الزهاد المقدسين عندما دخل خراسان خرج أهلها بنسائهم واولادهم يمسحون أردانه ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به[3].

و التعليل هنا واضح يتمثل بانتقال القدرة الشفائية من (المقدّس) إلى التراب الذي وطأه وعند ذلك يصير التراب مقدّساً وشافياً في نفس الوقت بالمساس.

و نجد لهذا التراب الموطوء بأقدام الحبيب شأناً كبيراً في تقاليد العشاق

---

١. إميلي برونتي: روائية إنكليزية مشهورة. ولدت سنة (١٨١٨ م) في مقاطعة يوركشاير بانكلترا وتوفيت سنة (١٨٤٨ م) بعد عام من نشر روايتها (مرتفعات وذرنج) وتمثل الرواية في حبكتها قصة الحب السرمدي الخالد.

٢. مشكلة الحب/ زكريا ابراهيم/ ٢٥٠.

٣. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ آدم متز/ ٢.

العرب وغير العرب. فمن العرب من اعتقد أن له قدرة سحرية على (جَلب) المحبوب وأسْره. فإذا أخذته الفتاة وخبأته عندها إستطاعت أن تأسر محبوبها به وتحبسهُ عليها فلا يستطيع منها فكاكاً حتى إذا رَحَل فلابدّ أن يؤوب إليها.

تقول أحدى العاشقات:

أخذت تراباً من مواطئ رجله   غَداة غَدٍ كيما يؤوب مُسَلّما[1]

و شبيه بهذا المعتقد ما نجده عند الفتيات البلقانيات فإن الواحدة منهن إذا أرادت أسرَ الفتى الذي تحبه تقوم بجمع التراب الذي سار عليه وتضعه في إناء وتزرع فيه بَصلَةَ زنبق وتداوم على رعايتها حتى إذا نَمَت وأزهرت فإن الفتى سيؤوب إليها ويقع بحبها[2].

عائد الكلب

و تحظى الأشياء التي تقع في دائرة اهتمام المحبوب بمقدار عظيم من المنزلة عند المحب. وقد ترتفع إلى حدّ الاحترام والقداسة حتى لو كانت من السخف والتفاهة على درجة. فلا يتورع عن ضمّها وشمّها ولثمها. وأني لأعرف زميلاً لي كنت أصطفيته صديقاً خلال الدراسة في دار المعلمين العالية، فقال لي – أثناء حديث مستطاب جرى بيننا عن الحب – أنه أحب الخروف الذي كانت تربيه حبيبته وأنه كان إذا رآه مربوطاً ببابها تمنّى أن يكون هو المربوط وأن الحبيبة ترعاه وتطعمه. فكان ينظر إليه بحنانٍ بالغ وكان يتلمَّسُه فإذا وجد غفلةً من الرقباء وضع وجهه عليه وقبلهُ.

و ليس صاحبي هذا بِدعاً بين العاشقين فإن الشاعر العاشق عبد الله بن مصعب الزبيري (المتوفى سنة ١٨٤ هـ) أحبَّ الكلب الذي كان في بيت

---

١. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ محمود شكري الآلوسي/ ٢/ ٣٤.

٢. A Book of Superstitons. Brown P. 40.

حبيبته. فلما مرض الكلب عاده ليطمئن على سلامته واستقرار صحته ولكن لما مرض الشاعر نفسه لم تعده حبيبته فقال معاتباً:

مالي مرضتُ فلم يعدْني عائد   منكم ويمرضُ كلبكم فاعودُ[1]

فلقب بـ(عائد الكلب) وبقي هذا اللقب وسمًا على أبنائه الذين لقبوا بـ(بني عائد الكلب).

و قد تصوّر الشاعر الهندي (أمير خسرو الدهلوي)[2] موقفاً لمجنون ليلى مشابهاً لموقف (عائد الكلب) وذلك في قصته الشعرية المعروفة بـ(ليلى ومجنون) قال فيه: إن قيساً كان ماراً في يوم شديد القيظ فرأى كلباً يئِنُّ من الألم، مجرّح الجسم بارز الاسنان فخفّ إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وأخذ يناجيه مشفقاً على حاله مردّداً صفات وفائه وأخلاصه. فتعجَّبَ منه من رآه على هذه الحالة وعاتبه. فأجاب المجنون أنه رقَّ لما يعاني هذا الكلب لأنه طاف بديار الحبيب ونعِمَ بالنظر إليه[3].

و من الطريف أن نذكر أن (الدهلوي) في قصته الشعرية المذكورة يجعل قيساً يحنو على كل كلب مريض إكراماً لكلب ليلى المريض فيخاطبه مشفقاً عليه مترفقاً به واصفاً حاله ثم يجعل قيساً يحمّل ذلك الكلب رسالة الشوق إلى ليلى عندما يبرأ.

ثم صار لكلب قيس المتخيَّل دور في الاعمال الشعرية للشعراء الفرس كعبد الرحمن الجامي وهاتفي. وليس من البعيد أن تكون لقصة (عائد

---

١. الأعلام للزركلي/ ٣/ ١٣٨ وسمط اللئالىء/ ٥٧٠.

٢. أمير خسرو الدهلوي: شاعر تركي الأصل هندي المسكن ولد سنة (٦٥١هـ - ١٢٥٢م). برع في الشعر والموسيقى معاً تأثر بالشعراء الفرس الكبار سعدي ونظامي وخاقاني وغيرهم له خمس منظومات كبيرة من جملتها (ليلى ومجنون) عام (١١٩٩ م). نحا التصوف في شعره توفي بدهلي سنة ١٣٢٥هـ

٣. الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية/ محمد غنيمي هلال/ ١٥٨.

الكلب) تأثيرات عليهم من حيث علاقاتهم الوثيقة بالآداب العربية.

جِراح السِكّين في موضع التقبيل

يروي ابن حزم الأندلسي إن رجلاً من اخوانه جَرَحَهُ مَن كان يُحبهُّ بمُديةٍ. يقول: فرأيته يقبل مكان الجرح ويندبهُ مَرّةً بعد أخرى[1].

و في الواقع أن جراح المحبوب لذيذةٌ عند المُحبّ سواءً أكانت ذات أثرٍ في الجسم أو ذات أثر في المشاعر. باديةٌ للعَيان أم خفية في القلب. وقد تغنى الشعراء العشاق بها وتلطّفوا بوصفها واستزاد بعضهم منها كهذا الذي يقول:

ومن عجبٍ أحنو على السهم غائراً ويسألني قلبي متى يرجع الرامي؟

و قد ذكر المحبون أن هذه الجراح ليست بذات ألم كما جاء عن الشاعر أحمد شوقي يصف رمية السهم التي أصابت كبده في قصيدته (نهج البردة) فقال:

لما رنا حدثتني النفس قائلةً ياويح جنبك بالسهم المصيب رُمي

جحدتها وكتمتُ السهمَ في كبدي جرحُ الأحبّة عندي غيرُ ذي ألم

و قد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء منهم المتنبي في قوله:

يامن يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كلٌّ شيء بعدكم عَدَمُ

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ

و أخذه آخر فقال:

يامن يعز علينا أن نلمَّ بهم إذ بُعدُنا عنهم قد صار قصدهم

إن كان يرضيكم هذا البعاد فما فيه لصَبّكُمُ جرحٌ ولا ألمُ

---

١. رسائل ابن حزم/ المصدر السابق/ ١/ ٢٣١.

و جَعَل النميريُّ تحمُّلَ الأذى خَصلةً من خِصالِ المحبين وصفةً من صفاتهم فقال:

لا يطيبُ الهوى ولا يحسن الـ حُبُّ إلا بخَمسِ خصال

احتمالِ الأذى وعذلِ نصيحٍ وعتابٍ وهجرةٍ وتقالي

و لاشك إن كلُّ تلك الأمور التي ذكرها النميري تؤلم المحبَّ ألماً شديداً إلا أنه ألمٌ مشتهى متأصِّلٌ في خصال العشاق تأصلاً يكادُ يكون غريزياً في طباعهم.

أما حديث السكين التي تقطع الجسم فتدميه ولا تؤلم فله تاريخ قديم بدأ بالنسوة اللواتي قَطَّعن أيديهن عندما خرج عليهن (يوسف) وشاهدن جماله فعشقنه في الحال وأجرين السكين على أصابعهن فأدمينها دون أن يحسسنَ بألم.

يصفُ أحد الشُرّاح هذا المشهد فيقول: شاع نبأُ حادثة امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة ولاكته افواه النساء اللائمات لها على هذا الغرام. وشرعن يلمنها بفادح اللّوم فأرسلت إلى طائفةٍ من هؤلاء العاذلات واعتدت لهنَّ مكاناً يجلسنَ فيه وقدمت لهنَّ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين وآتَت كلَّ واحدةٍ منهنّ سكيناً. وفي تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرجَ عليهن فخرج وبهرهنَّ جمالُه وألهاهنَّ أن يُحسِنَّ قطع الفاكهة التي بأيديهن فصرن يقطعن ايديهن وشغلن بمطالعة محاسن خلقه والتأمل في جماله واللَّذةُ في ذلك تغمرُ ألم جراحهنّ بايديهن، واعلنّ اكبارهن لذلك الجمال وقلن: ماهذا بشراً أن هذا إلا ملكٌ كريم[1].

أن تلك الصورة التي عرضها القرآن الكريم للنسوة اللواتي اخذهن الوَلَه فلم يشعرن بألم السكين وهي تقطع اصابعهن إنما هي صورة حَيَّة واقعية تعبِّر عن حالة غياب الشعور عند حضور المعشوق حيث تضطرب الافعال

---

١. قصص الانبياء/ عبد الوهاب النجّار/ ١٢٦/ الطبعة الثالثة.

الأرادية فتجري على غير المقصود منها فإذا أحدث اضطرابها ما يسبب ألماً فإن ذلك الألم ينتفي لتوقف الاحساس به.

و يروي ابن حزم حادثةً مماثلة فيقول:

> حدثتني امرأةَ أثقُ بها أنها شاهدت فتىَ وجاريةً كان يجدُ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه فَضلَ وَجْد فاجتمعا في مكانٍ خليٍّ على طربٍ وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه، فجرَّها جَرَّاً زائداً وقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر منه دمٌ وكان على الجارية غلالةٌ من قَصَبٍ لها قيمةٌ فصرَّفت يدها وخَرَّقتها وأخرجت منها فضلةً شدَّت بها إبهامه"[1].

و من الواضح أن هذا العاشق قد غاب عن واقعه الشعوري وسَمَا محلِّقاً في عالم اللاشعور فلم يشعر بألم السكين وهي تحزّ إبهامه.

و تفعَلُ لذَّةُ الحديث والسِّرار فعلاً كبيراً في تغييب المحبِّ عن الأحساس بالألم. يقول عمر بن أبي ربيعة:

> كـنتُ بين امـرأتين، هـذه تسارّنـي وهـذه تعضُّني فما شعرتُ بعضَّةٍ هذه من لذّةِ سرارِ هـذه"[2].

و يبدو لنا من ذلك أن اللحظات التي يغيبُ بها العاشق عن الأحساس بألمه هي لحظات تنحصر بفترةِ اللقاء والبث، فإذا تقضّت وعاد المحبُّ إلى واقعه الشعوري فعندها يصبح ما تخلف عن تلك اللحظات من آثار كالجراح وعضات الاسنان والقرص وغيرها أثيراً لديه يستذكره بإعتزاز

---

١. رسائل ابن حزم/ المصدر السابق/ ١/ ١٨٧.

٢. ربيع الأبرار/ الزمخشري/ ٣/ ٢٣٦.

ويقوم بتقبيله كبديلٍ عن تقبيل المحبوب نفسه.

و يجعل (سارتر) الفيلسوف الوجودي الفرنسي هذه الحال طبيعية عند المحبين فيصرّح بأن ليس من الغرابةِ رؤية الألم يقترنُ ابداً بالحب[١].

و يرى بعض علماء النفس إنَّ درجةً ما من تقبّل الألم والسعي إليه أمرٌ طبيعيٌّ في الحياة الجنسية عند معظم الناس، غير أن التجاوز في الحدود يعتبر مرضاً (مازوخياً) عندما يسرف المحبُّ في طلب الألم واشتهاء التعذيب البدني كما سنفصله لاحقاً في فصل (تقبيل نعل المحبوب ورجله).

تقبيلُ ما أشبَهَ المحبوب

من المعروف عن العاشق الشاعر اتصافه بموَهبةٍ ذهنيةٍ خلاّقةٍ تتيحُ له استخراج العناصر الظاهرة المجرّدة في الكون والجنوح بها نحو عالمه الخاص الذي لا يعمُرهُ إلا اياه وحبيبته، فيصبح العالم عند ذاك في تصوره محيطاً مُفعماً بالحيوية مُترعاً بالحركة.

و يطلق على تلك الموهبة اسم (الخيال) ويُعَرَّف بأنه القدرةَ على استحضار الصور المرئية والتصرّف فيها بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص[٢].

و بهذه الموهبة يستطيع العاشق الشاعر الخروج عن نطاق فرديته فيرى الأشياء لا بمنظورها البصري المجرد بل بمنظور البصيرة المنطلقة من روحه حيث يعيد ترتيب تلك الاشياء وفقها بعد أن يخلع عليها اسماء ومسمّيات واوصافاً لا يدركها سواه.

---

١. مشكلة الحبّ/ المصدر السابق/ ٣١٦.

٢. A Dictionary of Literary Terms. Wahba P. 339.

فهذه الوردة الحمراء – مثلاً – التي نراها بأعيننا كمجرَّد وردة حمراء تبعثُ في النفس الراحة والانتشاء هي ليست بهذه الصفة الجامدة في رؤية الشاعر العاشق بل هي سخدودٌ أضيفَت بعضهنّ إلى بعضٍ".

أما منظر قطرات الطلّ المتساقطةِ على بُتيلاتها فلا يراها الناسُ حسب منظورهم السطحي سوى قطرات من الماء أو المطر فوق وردة حمراء ليس إلاّ. ولكنها في رؤية الشاعر العاشق شيءٌ آخر لا علاقة له بالماء أو المطر بل إنما هي "بقيةُ دمعٍ فوقَ خدٍّ مُورّد". وبهذه الرؤية المتسامية حرّك الشاعر العاشق تلك الصورة المحدودة فجعلها تنفتح على مشهد انساني عامر بالعواطف ممتلئ بالأحاسيس الصادرة من مُحبَّةٍ فارقت حبيبها فتقاطرَ دمعها فوق خدّها المورد يوم الفراق.

كما أن الناس العاديين لا يعرفون من الفراق سوى أنه يثير في النفس الحزن ويبعثُ على البكاء ولكن الشاعر العاشق رتَّبَ له مشهداً آخر أشدَّ إثارة وأكثر عمقاً حين جعل نفسه في المشهد مع حبيبته وهما يتفارقان ثم صوّر الحركات الانفعالية التي تصدر منهما أثناءه فقال:

تُسلِّم باليمنى عليَّ إشارةً	وتمسح بالأُخرى مجاري المدامع
فما برحت تبكي وأبكي حيالها	إلى أن تركنا الأرض ذات نقائعِ
ستُصبحُ تلك الأرض من عبراتنا	كثيرةَ خِصبٍ زاهر النبت رائعِ

و بهذه الصورة ربط الشاعر بين دموعهما الهاطلة وبين انهمار الغيث الذي يخصبُ الأرض بالنبات والزهر الرائع.

و لايخفى أننا لا نجدُ مثل هذه الصور الخياليةِ عند سائر الناس إلا العشاق منهم. يقول (بشلار):

زإن الأشياء اللامتناهية كالسماوات والغابات والنور لا نجدُ لها أسماء إلا لدى القلب العاشق. وليس نسيمُ السهول في رِقَّتِهِ وخفقاته سوى صدىً

للتنهدات الرقيقة الخافتة. وحين تكون النفس البشرية عامرةً بحبٍّ رفيعٍ ممتاز فإنها تستطيع أن تشيع الحياةَ في الأشياء الكبيرة قبل الصغيرة. وهكذا تراها تخاطب الكونَ مخاطبةَ النِدِّ بمجرّد ما تكون تذوقت عذوبة (الآخر) في دنيا البشر"[1].

و نجد صدق هذا القول يسري في روح العاشق الفارس (عنترة العَبْسي) الذي استمكنت الحروبُ من نفسه وحبُّ القتل في جوارحه، ومع ذلك بقي قلبه عامراً بالحبِّ الانسانيّ. فكان هذا الحبُّ يطفح اثناء احتدام القتال، ويستثار بفعل وهج السيوف والتماعها، فكانت تشخصُ أمامه في هذه الأثناء صورة حبيبته شامخةً باسمة تبرق ثناياها فتضيءُ عتمةَ الرَّهج المثار. وحينها يصبحُ كلُّ سيفٍ مُمَوَّهاً بصورتها بل تصبح كلُّ السيوف إياها لمجرّد أنها اشبهت في اللمعان ثناياها، فينصرفُ إلى تأمل تلك الصورة. ناسياً شؤون القتل مغيِّباً حافز العداوات المتمكنّ من نفسه فيودّ تقبيل تلك السيوف رغم أنها تنوشه من كل جانب وتقطر من دمه. اسمعه يقول مخاطباً (عبلة) محبوبته:

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلٌ   مِنّي وبيضُ الهند تقطرُ من دمي

فَوددتُ تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسِّم[2]

فانظر إلى فعل هذا الحب الرفيع كيف يروِّضُ النفوس الشرسة الممتلئة بالعنف والقسوةِ ويجعلها وادعةً رقيقة مسالمة.

و تدلنا النصوص والأخبار على أن العاشق يميلُ إلى استجراح وهم الشبه بالمحبوبة من عناصر الطبيعة المحيطة به. فالمجنون بليلى الذي استوحش الناس وألف السكن في الصحارى والفلوات تعلَّق بأكثر الوحش

---

١. مشكلة الحبّ/ المصدر السابق/ ١٤٥.

٢. ديوانه/ ص ١١٧/ ط. القاهرة ١٣٢٩ هـ

شبهاً بليلى وهي الظباء فكان يناديها: ياشبه ليلى. ويقول:

أيا شبه ليلى لا تراعي فأنّني   لكِ اليوم من وحشيةٍ لصديقُ

ويا شبه ليلى لو تلبَّثتِ ساعةً   لعلَّ فؤادي من جواه يَفيقُ

فعيناكِ عيناها وجيدك جيدُها   ولكن عظمَ الساقِ منك رقيقُ [1]

و لذلك انبرى إلى حمايتها من اعدائها الذئابَ والصيادين. فكان يقتل الذئاب ويقول:

"رأيتُ ظبياً مَرّةً فتأمَّلتهُ وذكرتُ ليلى وجعل يزداد في عيني حُسناً. ثم إنَّه عارضه ذئبٌ فهرب منه فتبعتهما حتى خفيا عني فوجدتُ الذئب قد صرعه وأكَلَ بعضَه فرميته بسهمٍ فما أخطأتُ مقتلَهُ وبقرتُ بطنه فأخرجتُ ما أكلَ منه ثم جمعته إلى بقيّةِ شلِوهِ فدفنته وأحرقت الذئب".

و الذئبُ هنا لاشك أنه يمثل زوج ليلى الذي استغلَّ قوَّته وانتزع ليلى منه. وتمثل عملية احراق الذئب تنفيساً عما كان يعتمل في قلب قيس من حقدٍ على الزوج المفترس.

ثم روي عنه أنه كان يلاحق الصيادين فيفتدي ما اصطادوه من الظباء بما عنده من قلائص فيأخذها منهم ويعانقها ويقبلها ثم يطلقها فداءً ليلى الحبيسة عند أهلها .

و جاء في بعض أخباره أنه مرّ ذات يومٍ برجلين صادا ظبيةً فربطاها بحبلٍ وسارا بها. فلما نظر إليها وهي تركضُ بحبالها تذكرّ ليلى الأسيرةَ في عقر دار الزوج فدمعت عيناه فاستوقف الرجلين وقال لهما: حُلاّها وخذا مكانها قلوصاً من إبلي فأخذا القلوص وحلاّها فولَّت هاربة تعدو

---

١. الأغاني/ ٢/ ٨٢.

فقال:

يا صاحبيَّ اللذين اليوم قد أخذا   في الحبل شبهاً لليلى ثم غَلاَّها
أني أرى اليوم في اعطافِ شاتكما   مَشابهاً اشبهت ليلى فحلاَّها[1]

و يأخذ الشجر موقع الحيوان في الرؤية الحسيّةِ للعاشق حيث يجعله عَينَ صورة المحبوب وذات تجلياته. وقد كان شجر (البان) و (الخيزران) في عداد الشجر الذي تتراءى صفات المحبوب فيه لمشاكلته في الاستقامة وتناسق القامة، والامثلة على ذلك كثيرة في الأدب العربي.

و في الأدب الفارسي عندما نظم الشاعر (هاتفي)[2] قصَّةَ (ليلى ومجنون) مَثَّلَ شَبَهَ ليلى بشجرَةٍ (سَرو) وهو تصوّرٌ بعيدٌ عن واقع القصة الأصلية ولكنه يعبِّر عن واقع الشاعر نفسه حيث يكون هذا النوع من الشجر غالباً على بيئته وداخلاً في الإيحاءات العاطفية للعشاق الفرس.

و يبدو أن الشاعر المذكور كان في ذهنه مشهد (فداء الظبية بالقلوص) فحوّره وجعَل قيساً يَفتدي شجرة سرو بجوهرة ثمينةٍ كان يمتلكها لمجرد أن السروة اشبهت ليلى في قامتها فقال:

"كان قيس يسير ذات يوم في الثلوج في شهر ديسمبر، فرأى بستانياً يعمل منشاره في أصل الشجرة. فخفَّ إليه طالباً منه أن يقلع عن عمله لأنها تذكّره في جمال شكلها بقدِّ ليلى. فأجابه البستانيُّ إن له أولاداً يرتعدون من برد الشتاء كإرتعاد

---

١. الأغاني/ ٢/ ٨٢.

٢. هو عبد اللّه هاتفي (توفي سنة ١٥٢١ م) من كبار شعراء المسلمين الفرس برع في نظم المثنوي. (ينظر/ الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية/ محمد غنيمي هلال/ ١٧٠).

الصفصاف وإنه في حاجةٍ إلى تدفئتهم بما يحصل
عليه من خشب الشجرة، لأنه بائس ليس له ما
يشتري به حطباً. فيرقُّ المجنون لحاله ويهبه ياقوتةً
يفتدي بها الشجرة. فيأخذها البستاني وينصرف ثم
يقبل المجنون على الشجرة يعانقها ويناجيها
متذكراً قدَّ ليلى"[1].

أما الشاعر (جامي) فقد جعل قيساً بهيم بنخلةٍ لأنها ذكّرته بقدٍّ ليلى فأهاجت اشواقه[2]. ولا يخفى أن النخلة وُظِّفت في الشعر منذ القدم لتتماثل مع المحبوبة في قامتها الفارعة. واقدم ما ورد من ذلك جاء في قصيدة (نشيد الاناشيد) السالفة الذكر عندما خاطب العاشق محبوبته قائلاً لها:

ما أجملك أيتها الحبيبة وما ألذّك بالمسرّات قامتك
هذه مثل النخلة ونهداك مثل العناقيد. قلتُ لأصعدَنَّ
إلى النخلةِ وأُمسكنَّ بعذوقها. فيكون لي نهداك
كعناقيد الكرم[3].

و ينهي (الجامي) حياة قيس بتصوّره ميتاً في حفيرةٍ وقد اعتنق غزالاً أبيض قد فارق الحياة. وهو تصوير بديع يجسِّدُ حلم (الموت معاً)، هذا الحلم الذي يسيطر على عوالم المحبين اللاشعورية حيث تكون آخر أُمنية العاشقَين أن يموتا سويةً ويلحدا في قبر واحد. وقد أتاحه (الجامي) لقيس

---

١. الحياة العاطفية/ المصدر السابق/ ٢٧٧.

٢. م. ن./ ٢٧٥. والجامي هو نور الدين عبد الرحن الجامي المتوفي سنة ١٤٩٢ م. شاعر فارسي كبير توفي بـ(هراة) وقبره يزار فيها حتى الآن. له ثلاثة دواوين من لشعر الوجداني وسبع مثنويات مع مؤلفات نثرية في التفسير والعروض والموسيقى والتصوف. ينظر/ المصدر السابق/ ١٦١.

٣. نش/ ٧/ ٧.

فجعل الظبية التي هي (ليلى) نموت معه فيعتقنان في الموت بعد أن عزَّ عليهما العناقُ في الحياة.

تقبيل ما مَسَّ فَمَ المحبوب

و في الواقع أن المشَّبهات التي تذكِّر المحبَّ بمحبوبه كثيرةٌ. وقد عطفنا على ايراد بعض منها في الصفحات الماضيات. فكانت في مضمونها تعين المحبَّ على استظهار شخص محبوبه في التخيّل والتصوّر فيراه برؤية العين القلبية ماثلاً أمامه في صورة سيفٍ أو ظبيةٍ أو سروةٍ أو نخلةٍ. فيقوم المحبُّ بملازمة هذه الموجودات ملازمة وثيقةً كما لو أنها المحبوب نفسه.

إلا أن تلك المشبهات بحكم طبيعتها المنفصلة عن المحبوب إنّما هي عناصر خارجية لا تمتُّ إلى شخص المحبوب بصلةٍ عدا صلة الشَبهِ المُتخيَّل. فعلى هذا فإنها لا تقدر أن تشبع عند العاشق متعةَ التواصل الجسدي الذي ينشده، بينما تكون الاشياء المتماسة مع جسد المحبوب فعلياً اشدّ تأثيرا، لذلك كان كلف العشاق بها أكثر. يقول ابن حزم:

> "ما رأيتُ قطّ متعاشقين إلا وهما يتبادلان خُصَلَ الشَّعر مبَخّرةً بالعنبر، مرشوشةً بماءِ الورد وقد جُمّعت في أصلها بالمصطكي والشمع الابيض المصفّى ولُفَّت في تظاريف الوشي والخزّ وما اشبه ذلك لتكون تذكرةً عند البَيْن. أما تهادي المساويك بعد مضغها والمصطكي إثر استعماله لها فكثير بين كلِّ متحابَّين قد حُظِرَ عليهما اللقاء"[1].

١. رسائل ابن حزم/ المصدر السابق/ ١/ ٢٣٢.

و كان التثام هذه الاشياء وتقبيلها شائعاً في تقاليد المحبين. يقول الوشاء في معرض حديثه عن القيان العاشقات:

"وتبعث إليه بخاتمها وخَصلةً من شعرها وقطعة
من مسواكها ولبانٍ قد جعلته عوضاً عن قبلتها"[1].

و الواضح إن كل تلك الاشياء تماسَّت مع المحبوب فعلياً وبعضها جزءٌ منه كالشعر، فتأثيرها في استثارة وجد العاشق كبير. إلا أن ما مسَّ منها فم المحبوب له تأثير اكبر في التهييج بحكم كون الفم وتوابعه من الشفاه والثنايا واللسان والريق منبعَ الشهوة ومصدرَ اللذة. فكلُّ ما يصير في ظرف الفم يكتسبُ لذَّة مذاقه ويتشبّعُ بنكهةِ انفاسه ولذلك يكون مدعاةً لأغراء المحبِّ بوضعه في فمه لاستجلاب متعة القبلة عندما يعزُّ تقبيل المحبوب بذاته ولهذا السبب أرسلت القينة العاشقة (لبانها) إلى محبّها ليقبّلَهُ عوضاً عنها في حالة غيابها.

و قد اعتاد العشاق التهادي بلبان (المصطكي)[2] وكان يُعلك ويُرسَلُ وبه بَلَلٌ من ريق المحبوب فكان المرسل إليه يبادر بوضعه وهو نَديٌّ في فمه ويقوم بمضغه وامتصاصِ وشل الرضاب العالق فيه فيحسُّ بنشوةِ التقبيل.

---

١. كتابه/ الموشّى أو الظرف والظرفاء/ ٩٣.

٢. المصطكي: من اشهر العلوك القديمة. وهو العلك الرومي. ودواء مُمَصطك خُلِطَ بالمصطكي. وهو صمغٌ نباتي يؤخذ من افرازات بعض الأشجار كالصنوبر والحبّة الخضراء وصمغها من اجود الصموغ. واللبان نوع من هذه الانواع يجعل مع البخور ويحرق فيصعد فقيل "ما من بخور يصعدُ إلى السماء إلا اللبان وما من بيتٍ يبخّر فيه اللبان إلا نفى عنهم عفاريت الجن. وما يزال اللبان يحرق في البيوت لطرد الارواح الشريرة وكان قديماً يحرقُ في المعابد لهذا الغرض. واللبان: الكُندر وهو المصطكي. وقليل: إن مضغَ الكندر في المجلس أو ظاهر الطريق من عمل قوم لوط.

و قد ذكر أن محبوبة الشاعر العاشق العباس بن الأحنف أرسلت إليه لُباناً مَضَغته مع هدايا أخرى فيها آثارٌ من فمها فقال:

أرسلت باللبان قد مضغته بين تُفاحتين من ريحانِ

وبمسواكها الذي اختاره اللـّ ـه لِفيها من طيّب الأغصانِ

فكأني وجدتُ ريحاً من الفر دوس فاحت من ريح ذاك اللبانِ[1]

و تشير هذه الابيات إلى أن المحبوبة أرسلت مع اللّبان هديتين أخريين هما التفاح والمسواك. أما التفاح فقد كان إذا ورد من جهة الحبيبة يُعتبرُ خير معّوضٍ عن تقبيلها فكان المحبُّ يشمُّ التفاحة ويقبلها ولا يأكلها. قال الشاعر:

تفاحةٌ شاميةٌ من كفّ ظبيٍ غَزِلِ

ما خُلقت مذ خلقت إلا لأجل القبل

و كان التفاح لا يعدِله شيءٌ من الثمر عند المحبين وخاصةً إذا جاء إليهم وعليه آثارٌ من عضاتِ المحبوب. يقول الوشاء:

كان عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس وهو عندهم رهينة أحبابهم، برؤيته يستبشرون ولهم عند نظرهم إليه أنين وعند انتشاق رائحته حنين حتى إن أحدهم إذا غلب عليه القلق وأزعجه الأرق لم يكن له معوّلٌ إلا عليه ولا مشتكى إلا إليه". وأنشد بعضُ أهل الأدب:

لما نأى عن مجلسي وجهه ودارت الكأسُ بمجراها

صيّرته تفاحةً بيننا إذا ذكرناه شممناها[2]

و يفهم من هذا الكلام أن التفاح كان يستخدم لأنعاش المتيمين إذا غلبت عليهم الكآبة وانتفى عنهم النوم وطال بهم الأرق.

١. الموشى أو الظرف والظرفاء/ المصدر السابق/ ٩٣.

٢. م. ن./ ٢٠٧.

و قد ورد في المأثورات الشعبية أن التفاح استعمل منذ القدم في انعاش المبتلين بمرض الحبّ كما ذكرناه سابقاً في قول بطلة (نشيد الاناشيد) تخاطب أهلها:

"انعشوني بالتفاح فإنني مريضةٌ حباً"

و كان الناس يجعلونه ضمن الهدايا وتسمّى (التحيات) ويعابُ على المحيّا به أن يأكله. وقد ذكر أن الفضل بن العباس بن عبد المطلب حيّاه بعضهم بتفاحة فأكلها فقيل له: تأكل التحيات؟ فأجاب: والصلوات والطيّبات.

و كانت التقاليد في اهداء التفاح تقضي بأن يرسَلَ وعليه آثار من عضات الحبيب. وكان هذا التقليد معروفاً في العصر الأموي فمن ذلك ما روي عن الخليفة عبد الملك بن مروان أنه كان يُجالسُ يوماً جاريةً له. فعضّ تفاحةً وقدّمها إليها. فلم تفهم الغبيّة معنى هذه الهدية فبدلاً من أن تقبِّلَ موضع العضّ جاءت بسكينٍ وأزالته. فقال لها عبد الملك: ماذا تفعلين؟ قالت: أميط عنها الأذى – وكان عبد الملك أبخر[1] – فسرّحها.

و انتشرت هذه الممارسة في العصر العباسي. وكانت من مظاهر الارستقراطية الاجتماعية. ودخلت في قصور الخلافة فكانت الجواري يُقدّمن للخليفة التفاح موقّعاً عليه بأسنانهن توثيقاً لصدق حبهن له، فيذكر أن عليّاً بن الجهم الشاعر دخل على المتوكل فوجد بين يديه تفاحةً معضوضةً اهدتها له بعض جواريه فقال له الخليفة: قل فيها قبل جلوسك ولك بكلٍّ بيتٍ ألفُ دينار. فقال:

تفاحةٌ جُرِّحت بالثغر من فمها — أشهى إليَّ من الدنيا وما فيها
جاءت بها ظبيةٌ من عند غانيةٍ — نفسي من السوء والآفات تفديها

---

١. الأبخر: الكريه رائحة الفم.

لو كنتُ مَيْتاً ونادتني بنغمتها   إذن لأسرعتُ من لحدي أُلبيها
بيضاء في حُمرةٍ علَّت بغاليةٍ   كأنها قطعةٌ من خدِّ مهديها

فأمر له بأربعة آلاف دينار وأربع خِلَع.

و نجد في اشعار عبد الله بن المعتز ما يفيد بأن التفّاحة المعضوضة تشير إلى موعدٍ بزيارة الحبيب قال:

عادَ الرسولُ مبشرّاً بزيارةٍ   من بعدِ طول تهاجُرٍ وتَغَضُّبِ
وبكفّه تفاحةٌ قد مُسِّكت   آثار عضّتها كقِرني عقربِ[1]

وكان ابو نواس يقبّل مكان العضّ:

خمرَتُهُ في الكأس ممزوجَةٌ   كالذهب الجاري على فِضّته
فتارةً أشربُ من ريقه   وتارةً أشربُ من فضلته
وكلما عضّض تفاحة   قبَّلتُ ما يفضُّل من عضته

و لم تكن تلك التقاليد مقتصرةً على العرب وحدهم فقد كان الرومان يفعلون ذلك أيضاً[2].

و يتبين لنا من خلال استجلاء النصوص السابقة أن المحبين كانوا يولون العضّة المطبوعة على التفاحة تقديراً كبيراً لأنها في نظرهم تمثل توقيع المرسل أو خاتمه فهي تشبه التوقيعات والبصمات التي نستخدمها اليوم في توثيق مستندات البيع والشراء والمعاهدات وغيرها.

و قد كان العضُّ مستخدماً في تصديق عقود البيع والشراء في انكلترا في العصور الوسطى، حيث يقوم البائع بالتوقيع بأسنانه مكان الختم وقد ذكر أن (جون أُوف كاونت) دوق (لانكستر ١٣٤٠ – ١٣٩٩) كتب تحت الوثيقة

---

١. ديوانه/ ١/ ٢٣٣.

٢. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ متز/ ٢/ ٢٠٤.

التي أقطع بموجبها اقطاعية (Leigh Umber) إلى بعض أتباعه ما يلي:

زأنـا جون أوف كـاونت. أعطي وأمنـح لكم إقليم وإقطاعية (أمبرلي) وتأكيداً على صحة هذا المنح بصمتها بأسناني"[1].

أما (المساويك) فكانت تتهادى وتتناقل بايدي المحبين مثلما كانوا يفعلون بالتفاح. وكانوا يتخذون لها لفائف الخزّ وعصائب القزّ (الحرير) ليصونوها بذلك من الدنس ويوقّوها من الغبار والنجس . . واقاموها مقام الرهينة والتذكرة والوديعة والقبلة[2].

يقول المستعرب الروسي (كراتشوفسكي) إن المساويك من الهدايا القديمة التي كانت تتهادى بين العشاق وهي معروفة في الجاهلية بهذا الشأن وجاء أن المجنون أهدى ليلى مسواكاً[3].

و كانت المساويك تتخذُ من عيدان (الأراك) وقصب السكر وأصول السوس وعود المحلب وعروق الأِذخر وغيرها من العيدان العطرية أو ذات المذاق الحلو.

و كانت هذه المساويك عندما ترسل، ترسل وهي ممضوغة وعلى طرفها بَلَلٌ من ريق المحبوب فيسعى المحبُّ إلى مص الطرف المشبع بالريق فيجد له تأثيراً كتأثير قبلة الفم. ولهذا السبب طلب ابن زيدون من حبيبته أن ترسل له مسواكاً بهذا الشكل قائلاً لها:

إهدي إليَّ بقيَّة المسواكِ لا تُظهري بُخلاً بعودِ أراك

فلعلَّ نفسي أن تُنفَّسَ ساعةً منها بتقبيل المقبّل فاكِ [4]

و كان بشار بن بُرد العقيلي يقبِّلُ من المسواك الطرف الذي نالته ثنايا

---

1. A book of superstitions R. L. Brown P. 17.

2. الموشى/ الوشاء/ ٢١٢.

3. كتابه/ دراسات في تاريخ الادب العربي/ ١٩٣.

4. القبلة/ علي شلق/ ١٠٧.

محبوبته ويقول:

لما أتاني من المسواك ريقتها مثلوجةً كزُلالِ الماء بالراح

قبَّلتُ ما مسَّ فاها ثم قلت له: ياليتني كنت ذا المسواك يا صاحِ[1]

و عندما أرسلت (فوزُ) محبوبة العباس بن الاحنف إليه خاتماً كهديّة، ردّه إليها لكون الخاتم ينذر بالختام والقطع وطلب منها أن تهديه مسواكاً مسَّ فاها ليسكنَ به نار جواه فقال:

ولمّا وهبتُم خاتماً فرددتُه لمعرفتي إن الخواتيم تقطعُ

فأهدي سواكاً مسَّ فاكِ فإنه يسكنُ ناراً في جوى القلب تلذعُ[2]

و اعتاد الحجاج عندما يؤوبون من مكّة جلب المساويك معهم فيتحفون بها أصدقاءهم ومحبيهم. فأهدى بعضهم (بُرهانَ) محبوبةَ عليٍّ بن الجهم شيئاً منها، فطلب عليٌّ من برهان أن تتحفه بما اتحفوها به بشرط أن يكون قد أحالتهُ في فمها وجلَت به ثغرها. قال:

حَجّوا مواليك يا برهانُ واعتمروا وقد أتتكِ الهدايا من مواليكِ

فأتحفينيَ مِمّا اتحفوك به ولا تكن تحفتي غير المساويكِ

ولستُ أرضاه حتى ترسلين به مما جلا الثغر أو ما جال في فيكِ[3]

و لم ينسَ العشاقُ دور اللسان في عملية التقبيل، فهو جزءٌ مُميزٌ من أجزاء الفم، وعندما يتشافه المحبّان ثغراً لثغر فإنهما لا يملكان لسانيهما عن التلاقي والتلامس اثناء ذلك فيجدان له نشوةً عظيمة.

و عندما يعزُّ عليهم نيل ذلك واقعا، ابتكروا وسيلةً للوصول إليه تخيّلاً عن طريق المراسلة حيث تكتبُ المحبوبة رسالة إلى حبيبها وتتعمّد الغلط فيها

---

١. الموشّى/ المصدر السابق/ ٢١٣.

٢. الموشّى/ ٢١٣.

٣. م. ن./ ٢١٧.

ثم تمحو الغلط بلسانها لا ببنانها. وعندما تصل الرسالة إلى المحبّ يقوم بلطعِ مكان المحو بلسانه فيلتقي اللسانان فوق الغلطة وبذلك يتم التقبيل تخاطراً.

و كان ابو نواس يَطلبُ من محبوبته أن تكتب له كتاباً من هذا النوع وتكثر السهو فيه وتمحو السهو بريقِ لسانها لا ببنانها فكان إذا وصل الكتاب منها أجال لسانه بين السطور باحثاً عن كل غلطة ممحوّة فيلطعها لطعة يتذوق طعم القبلة من خلالها. اسمعه يقول:

إكتبي لي يا منيةَ النفـ . . .	س بنُصحِ ورقةٍ وبيانِ
كثّري السهو في الكتاب ومَحـ..	يهَ بريقِ اللسان لا بالبنانِ
إنني كلما مررتُ بسطرِ	فيه محوٌ لطعتُهُ بلساني
فأرى ذاكَ قبلةً من بعيدٍ	اسعفتني وما برحت مكاني[1]

غَفَرَ الله لك يا ابا نواس كأنك تصفُ حال المحبين هذا اليوم وهم يرسلون قُبلهم عبر شبكة (الانترنت) دون أن يبرحوا مكانهم.

و كان شربُ فضلةِ الكأس التي يخلّفها المحبوب تعادل القبلة في تأثيرها يقول في ذلك ابو نواس:

وليلةٍ سامرتُ لذّاتها	بشادنٍ أحورَ ميّاسِ
أشرب من ريقتهِ مرةً	ومرةً من فضلةِ الكاسِ[2]

أما الحسين بن الضحاك (المتوفى سنة ٢٥٠هـ) فكان يلثم الشيء الذي يظنُّ أن المحبوب قد لثمه فيشعر بأنه قبل بذاك ثغر محبوبه. يقول:

وإخالُ الذي لثَمتَ أنيسي	وجليسي ما باشرته يداكا
فإذا ما لثمتُ لثمكَ فيه	فكأني بذاك قبلّت فاكا

١. ديوانه/ ٢٧٧.

٢. القبلة/ المصدر السابق/ ٥٥.

خدعٌ للمنى تُعلّلُني فيك   بإشراق ذا وبهجةٍ ذاكا[1]

ماذا في رسائل المحبين

و أخذت الرسائل المتبادلة بين المحبين دوراً كبيراً في تخفيف ألمهم وتلطيف حرارة وجدهم، فكان المحبُّ إذا وصله كتابٌ من محبوبه وضعه على عينيه ثم غمره بالقبل وعانقه ووضعه على قلبه لأنه يمثّل الحبيب نفسه.

و كان بعضهم يستثيره الكتاب جداً ويُحفّز غرائزه الجنسية فيضعه على مكان الشهوة من جسمه، والحالة هذه مذمومة ومرذولة عند الأدباء كما يقول ابن حزم:

> ولقد أخبرتُ أن بعض السقّاط الوضعاء أنه كان يضعُ كتاب محبوبه على إحليله وإن هذا النوع من الأغتلام قبيح وضربٌ من الشبق فاحش"[2].

و هذا – حسب علم النفس – نوعٌ من أنواع الشذوذ الجنسي يعرف بإسم الفيتيشيه (Fetishism) ويقع في الذكور غالباً وتأتي اللذة الجنسية عن طريق مداعبة جزءٍ من أجزاء الشخص المتخيّل أو اداة من الادوات تعود إليه[3].

و قد تفنن المحبّون في كتابه رسائلهم فكانوا يكتبونها بماء الذهب أو ماء الزعفران ثم يجفّفون الكتابة بتراب المسك. يقول عبد الله بن المعتز:

وكتبٌ لطافٌ تربها المسكُ أُدرجَت   على وصف أحزان وتعذيب أرواحِ

---

١. م. ن./ ٦٣.

٢. رسائل ابن حزم/ المصدر السابق/ ١/ ١٤٠.

٣. النفس/ د. علي كمال/ ١/ ٣١٠..

ثم بعد ذلك يطوون الكتاب ويربطوه برباطٍ من الأبريسم يُسمّونه (السِّحاءة)[1] ثم يطيّنون الرباط بالطين وهو طين خاص أعدّ لهذا الغرض ثم يختمه العاشق بخاتمه الشخصي.

و كان الحبرُ الذي يكتبُ به الكتاب تركيباً خاصاً بالعشاق أنفسهم فكان بعضهم يضيفُ إليه العِطر المفضّل لدى المحبوبة وكان بعضهم يسقيه بريقه وكان بعضهم يمزجه بدموعه ودموع العشاق المفارقين غزيرة كما هو معروف.

و قد ذكر الجاحظ إن مُحبّةً قالت لمحبوبها إنها جمعت قنينةً من دموعها من البكاء عليه. ويعلّق الجاحظ على فعلها بقوله: إن هذا من اساليب احتيال القيان والمغنيات على من يقعُ في شراكهن. فتوهم القينةُ محبّها بإنها قد مدّت الدواة بدمعتها وبلّت السحاءةَ بريقها[2].

و كانت عادة جمع الدموع في قوارير أو قناني تقليداً من التقاليد القديمة يعبّر عن شدة الحب. فكان من عوائد الرومان القدماء جمع الدموع النازحة من العين حزناً على فقدان عزيزٍ أو حبيب وجعلها في قارورة تسمّى (زقّ الدموع) توضع على ضريح الفقيد كشاهد على شدة حبهم له[3].

و جاء ذكر (زق الدموع) في (سِفر المزامير) المدرج ضمن اسفار التوراة

---

١. السِّحاءة وجمعها أساحي هي قصاصة ورق كالسِّير في عرض رأس الخنصر يلفُّ على الكتاب ثم يلصقُ رأسها. وتتخذ كذلك من شرّابةِ إبريسم سوداء وكان الكتاب إذا فرغ من كتابة الكتاب (طواه وأسحاه) أي شدّه بالسحاءة طيّنه بطين خاص ثم ختم على الطين بخاتمه. (ينظر/ رسوم الدولة العباسية ببغداد في العصر العباسي/ ميخائيل عواد ص ٣٥) والهامش.

٢. رسائل الجاحظ/ تحقيق عبد السلام هارون/ ٢/ ١٧٣ وما بعدها.

٣. قاموس الكتاب المقدس/ المصدر السابق/ مادة: دموع في ١/ ٤٤٩.

أن النبي سليمان خاطب رَبّه قائلاً:

"يا الله . .

أنت راقبت تشرّدي

فاجعل دموعي في (زقّك)

أما هي في كتابك؟"[1]

و يعتقد أن هذه العبارة لها علاقة بزقّ الدموع الروماني الذي يبدو أن فكرته كانت معروفة لدى النبي فوظّفها بهذا الشكل الذي يوحي بقدسية الدموع عند الله.

و قد اعتاد النائحون على الحسين من الهنود جمع الدموع التي تذرفها عيونهم في عاشوراء بقطعٍ من القطن ثم تحفظ هذه القطع لحين دفنهم فتوضع معهم في الجدث لتكون شاهداً أمام الله يوم القيامة على شدّة حبهم للحسين.

يقول (هولستر) في (تاريخ الشيعة في الهند): ((وقد تمسح الدموع التي تذرف خلال المحرّم بالقطن احياناً ويجمع هذا القطن بالذات من قبل الشخص الحزين نفسه أو شخص آخر. والمعروف عن هذا القطن أنه مفيد لشفاء بعض الامراض والاوجاع[2].

و من خلال تلك الامثلة نستطيع أن نتبين المغزى من استخدام الدموع في كتابة الرسائل.

و قد يطفح الوجد بالعاشق فيعمدُ إلى يده فيجرحها ويأخذ الدم النازف منها ويكتب الكتاب به. وقد شاهد ابن حزم حالةً من هذه الحالات وقال:

"ولقد رأيتُ كتاب المحبّ إلى محبوبه وقد قطع يده بسكين فسال الدم

---

١. مزامير/ ٥٦/ ٨.

٢. موسوعة العتبات المقدسة/ جعفر الخيلي (قسم كربلاء)/ ٢/ ٣٧٨.

واستخدمه وكتب به الكتاب اجمع. ولقد رأيتُ الكتاب بعد جُفوفه فما شككت أنه بصبغِ (اللكّ)[1].

و تحمل مثل هذه الرسائل المكتوبة بالدم رموزاً ذوات دلالات كبيرةً كوّنتها معتقدات الانسان عن هذا السائل الذي يجري في الجسد ليل نهار فأنه حسب الرؤية القديمة يمثل روح الانسان فإذا خرج من جسمه صار الانسان جسداً بغير روح. وعلى هذا فإن العاشق عندما يستخرج دمه بالسكين ويكتب به فكانما يريد بذلك أن يقول للمحبوبة أن روحي هذه أسفحها بين يديك.

و ربما بغى العاشق من ذلك أمراً آخر وهو توثيقُ حبه للمحبوبة بهذه الوسيلة فقديماً استخدم الدمُ في توثيق العهود والتحالفات وكانت القبائل العربية إذا تحالفت غمست اياديها في جفنةٍ مليئة بالدم[2].

و عند بعض الشعوب اعتاد المتحالفان على الحبّ والأخوّة أن يجرحا باطن ساعديهما أو كفيهما بسكين ثم يتصافحان فيختلط دم الواحد بدم صاحبه فينعقدُ بذلك الحبُّ والتآخي بينهما.

و يبدو إن شيئاً من هذه المعتقدات والافكار كان وارداً في ذهن المرسل فنوى استخدامه في تحرير رسالته المدماة وترك للمحبوبة تفسيره وفق ما تراه مناسباً من تلك المعتقدات.

تقبيل نَعْلِ المحبوب

إنّما كانت تلك بعض البدائل التي اعتاد المحبُّ أن يفزعَ إليها في حال غياب محبوبه عنه. وهي – كما رأيت – كان بعضها مألوفاً شائعاً.

1. رسائل ابن حزم/ ١/ ١٤٠. واللك صبغٌ أحمر يصبغُ به جلد البقر الذي تصنع منه الخفاف والاحذية.
2. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام/ المصدر السابق/ ٥/ ٥١٥.

ويعضها مبتكراً نسيج وحده وبعضها غريباً. إلا أن ما تقرؤه هنا هو الأشد غرابةً والاكثر إثارةً للجدل ألا وهو تقبيل نعل المحبوب، حيث انتقدت هذه الممارسة نقداً لاذعاً واعتبرت مهينة لشخصية الرجل ومثلبةً لكرامته. ولكن أنّى لهذا الرجل أن يحس بالأهانة وثلب الكرامة وهو يشعر باللذة في مزاولتها والراحة عند حصولها؟

يحدّثنا (ابن أبي حَجلةَ) أنه رأى مَن فَعَلها فلامه وعنّفَه فأجابه قائلاً:

– أُسكت فإنك لا تعلم ما في هذا من اللذة[1].

و يعقب ابن أبي حَجلةَ على ذلك بالقول: إن هذا يحدثُ في حالِ غياب المحبوب.

و قد تبيَّنَ لنا أن هذه العادةَ فاشيةٌ عند كثير من المحبين ورأينا بعضاً منهم يسعى إلى الحصول على نعل محبوبه بشتى الوسائل فيحفظه في (حرزٍ) عنده ليستخدمه عند الحاجة حين يكون المحبوب غائباً والوجدُ عليه ثائراً فيخرجه من (الحِرز) ثم يفرغ عليه شُحنةَ الوجد بالضمِّ والشمِّ والتقبيل.

و أشهر هؤلاء هو (ناصر الدين محمد بن يكتوب) المعروف بالقلندري، فإنه كان يهوى مغنيّةً هوىً شديداً فاحتال حتى أخذ (زُرموزتَها)[2] فوضعها في كيس حريرٍ أطلس وعلّق الكيس في رقبته تحت ثيابه. فإذا حضر مجلساً أخرجَ الزرموزة ووضعها قدّامه وجعل يبكي، فإذا لم يتّفق له بكاء أَنشدَ هذا البيت:

لا مُتّعت عينُ محبٍّ بما ... يسرُّها إن هي لم تَسجِمِ

ثم يأمر من حضر بربط رجليه وضربه عليهما حتى يبكي[3].

---

١. كتابه/ ديوان الصبابة/١٦.

٢. الزرموزة والسرموزة والجرموق: الخفّ الواسع الذي يلبسُ فوق الحذاء ويخلع عند دخول المجلس ومنه (السُّرمة) ويسمها المصريون (الصرُّمة) و (الصرماية) وأطلقوها على الحذاء. ينظر/ تكملة المهاجم العربية/ دوزي/٦/٦٨.

٣. ديوان الصبابة/ المصدر السابق/ ٢٦٨.

و قد تعجبُ من ذلك – ياسيدي – وتستغرب وتستنكر للرجولة المهدورة، ولكنك لو رجعت إلى نماذج العشاق الذين ذكرناهم سابقاً في فصل (جراح السكين في موضع التقبيل) لوجدت أن هذا الرجل يمكن أن يُحشرَ ضمنهم في استجراح اللذة من الألم ولكنه يختلف عنهم في تعقّد حالته من حيث كونه يستخدمُ وسيلتين للحصول على اللّذة: الاولى معنوية والثانية حسّية. فالمعنوية تتمثّل بتمتعه بالمهانة والذلّ واسقاط الكرامة أمام الناس. أما الحسّية فتتمثل بتمتعه بالتعذيب الجسدي عن طريق ضرب رجليه بـ(الفَلَقة) وهي وسيلة قديمة من وسائل العقاب ينزل بالمذنبين والمجرمين على صفة الاشهار.

و لو حلَّلنا شخصية هذا الرجل وفق معايير علم النفس لوجدناه أُنموذجاً صارخاً من نماذج المرضى المازوخيين الذين يستمرئون الألم بغية الحصول على اللذة (الإيروسيّة) الجنسية. والمبتلى بهذا المرض من أجل التوصل إلى إشباع تلك اللذة لا يتورع عن تنفيذ أحطّ الاعمال أمام محبوبته كتقبيل نعالها ولحس أوضار حذائها. فإن لم يحصل له هذا لتعذّره طلب من الآخرين أن يقاصَصوه بقسوةٍ ضرباً بالعصيٍّ أو جلداً بالسوط وهو ما رأيناه في فعل صاحبنا القلندري. وغالباً ما يطلبُ منهم تقييده على سريرٍ أو طاولةٍ أثناء التأديب فكلُّ مُناه أن يلعب دور العبد أمام معشوقته وأن يتلقى الأوامر منها وأن يخدمها وأن يُضرب إذا ما ارتكب هفوةً في خدمتها.

و هناك من يزداد به حبُّ التذلل فيجثو تحت قدمي معشوقته أو يقبع تحت الطاولة أثناء تناولها الطعام وأن يكون نصيبه منها فضلاتها ورفسات حذائها[١].

و يعترف أحد هؤلاء بقوله: كانت الجزمات الملوثة بالوحل تغريني بقوّة،

---

١. المازوخية/ ساشاناخت/ ٣٨/ ترجمة: مَي طرابيشي/ دار الطليعة ١٩٨٣.

كنت أنظفها بـ(..؟..) أو العقها بلساني، ولطالما تمنَّيت لو كان باستطاعتي أن انفرد قبل الجماع بجزمة، فيصبح في مقدوري ساعتئذٍ أن اندفع بسهولةٍ وبالقدر المطلوب إلى الجماع[1].

و لايستطيع المريض أن يتخلَّص من هذا الدافع حتى لو تزوج فيُذكر عن (ساشر مازوخ) وهو البطل الذي نسب إليه هذا الداء وسمي باسمه أنه بعد أن تزوّج راح يستدرج زوجته بدأبٍ وبراعة إلى إساءة معاملته معنوياً وبدنياً فكان يطلب منها أن تدوسه بقدميها أثناء ما كان يقوم بتقبيل ذينك القدمين[2].

و قد ظهرت هذه الحالة عند (مازوخ) وهو في الثامنة بعد أن شاهد خالته (زنوبيا) المتزوجة في وضعٍ محرّمٍ مع عشيقها فشعر بشيءٍ غريب نحو خالته يشبه الأنجذاب الجنسي. وذكر أنه عندما طلبت منه مرةً أن يعقد شريط حذائها المحلول أسرع بتنفيذ أمرها ولم يقاوم نفسه عن تقبيل الحذاء الذي كان منحنياً عليه بشغف[3].

إن لقصص الألم في الحياة الجنسية تاريخاً قديماً وكلُّها تشيرُ إلى تأصُّل العلاقة بين الألم واللذة، وبين العذاب والحبّ عند الانسان. وأقدم ما ذكر من قصص في هذا الشأن جاء عن حياة (سليمان) في شيخوخته حيث زعم أنه كان يطلبُ إلى نسائه الكثيرات وخزه بالأبر لاستثارة فحولته التي اوهنها الهرَم.

و يروي (فلافيوس يوسفوس) إن أخا (هيرودس) ويدعى (فيروساس) كان يطلب إلى الأناث من عبيده أن يوثقن قياده ويضربنه للغاية نفسها[4].

---

١. م. ن./ ٤٦.

٢. م. ن./ ٥٠.

٣. م. ن./ ٥٥.

٤. م. ن./ ١٠.

وكان الضربُ الموجع من أحب العذابات التي ينشدها العشاق المازوخيون. فمن ذلك ما رواه ابن جزم عمّا حدث بين (مُقدَّم ابن الأصفر) وبين (عجيب) فتى الوزير (ابي عمر احمد بن محمد بن حُدير).

((فقد كان (مُقدّم) يحبُ (عجيباً) هذا، فكان يأتي في الليل والنهار إلى المسجد الذي يصلّي فيه عجيب فيقعد منتظراً رؤية عجيب حتى أخذه الحرسُ غير مَرةٍ في الليل عند صلاة العشاء الآخرة إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إلى مقدَّم فيوجعه ضرباً ويلطم خدّيه وعينيه فيسرُّ مقدَّم بذلك ويقول: هذا والله أقصى أمنيتي والآن قرَّت عيني، وعلى هذا كان دائماً يماشيه))[1] أي من أجل الضرب والتعذيب ولا ننسى في هذا المجال القول الشعبي الشائع عندنا: (ضربُ الحبيب مثل أكل الزبيب). إذ يبدو إنه من قول أحد العشاق المازوخيين.

أما الجلد بالسوط فقد اشتهر في علاقة (أرسطو) مع (فيليبس) فهناك صور تمثل الفيلسوف زاحفاً على أربع قوائم حاملاً على ظهره امرأة شاهرة سوطا[2].

وكانت العاهرات اليونانيات يقدّمن نذورهن إلى (فينوس) إلاهة الجنس والأخصاب اليونانية. وكان في عداد هذه النذور جملةٌ من السياط والألجمة والمهامز[3]. كرمزٍ إلى ما تفعله هذه الألاهة بعشاقها.

وإذا أردنا أن نؤثّل هذه الصورة تأثيلاً تاريخياً فإنها لا شك تعود إلى عصر سيطرة المرأة وهو عصرٌ سبق عصر سيطرة الرجل حيث كانت – لكي تستعبد الرجل وتجعله يطاوعها – تنتظر لحظاته الشهوية في الوصول إليها جنسياً فتوقع عليه بتلك الاسلحة انواعاً من التعذيب وتجعلها ثمناً

---

١. رسائل ابن حزم/ المصدر السابق/ ١/ ١٥٦.

٢. المازوخية/ المصدر السابق/ ١٠.

٣. م. ن./ ١٠.

لإطفاء غريزته. ولذلك قيل أن الأنثى أعظم ساديةً من الذكر وإنها في طبيعتها أكثر عنفاً منه[1]. ولدينا في مجتمع (النساء الامازونيات) ما يؤكد هذا العنف المستخدم ضد الذكر فقد كنَّ يقمن بقتل الولائد الذكور ويبقين على الإناث.

و عندما انقلب الوضع الاجتماعي بعد ذلك وصار الذكر هو سيد المجتمع اصبحت المرأة أسيرةً له. فكان يصطادها كإصطياد الفرائس ويختطفها من قبيلة أهلها ويقوم بتقيدها من رجلها ومن معصمها ويخزمها من أنفها كما يخزم البعير الشرود أو يُحلّقها من أذنها لكي لا تهرب.

و قد استجابت المرأة لعنف الرجل وتطبعت على عاداته ونوازعه واستلذّت بما يفعله بها واستلطفت القيود التي قيّدها بها فصارت تفخر بالحجول والاساور والخلاخل والاقراط والخزامات وهكذا تحولت المرأة من شخصية سادية إلى شخصية مازوخية لطيفة.

و على كلٍّ تلك الأحوال فإننا نستطيع القول أن كُلاً من الذكر والأنثى قد مرّ بتجارب التلذذ بالألم في سبيل الحب وإن كلاً منهما قد ذاق اللذتين السادية والمازوخية معاً. الأمر الذي جعل الغريزتين تقترنان في شخصية واحدة وهو ما حاول الباحث صادق جلال العظم أن يثبته في كل شخصية من شخصيات الحب العذري.

تقبيلُ رجل المحبوب

أما ما يخصُّ ظاهرة (تقبيل الرِّجل) فأمرها شائع بين عشاقنا المشهورين حسب المأثورات الاخبارية الواردة عنهم وذلك لأن العواطف الوجدية عندما تشتد بالعاشق تجعل نظرته إلى شخص محبوبه نظرة شموليةً في مجال الكمال، إذ ليس فيه ما يُشينه بل كل عيبٍ فيه يُزينه.

١. الجنس والنفس/ د. علي كمال/ ٢٣٣.

وهـو واحدٌ بـكل صفـاتـه وأخـلاقـه وطـبـائـعـه حتـى لـو تـضـادّت. كمـا إن متعلقاته لا تنفصل عنه، فهي وإياه نسيجٌ واحد ولحمةٌ واحدة. وتمتدّ النظرة هذه إلى أجزاء جسمه جميعاً حيث تكون كلها سواءً في مَرتَبة الشرف من الرأس حتى أخمص القدم ولذلك لا يجد المحبُّ ذلاً في تقبيل رجله وهي أوطأ أجزاء الانسان في الهوان ولكنها عند العاشق هي جزءٌ جديرٌ بـالتبجيل والتقبيل.

و قد حدثَ أن قبَّل أحدهم رجل محبوبه فـازورّ عنه المحبوب واحمرّ خدّه خجلاً من هذا التنـازل الخارج عن اللياقة والأصول، إلا أن المحبًّ أفهمه بأنه يقوم بذلك تأديةً لحق هذه الرِّجل لأنها سَعَت به نحوه وحملته إليه فكان لزامـاً عليه من مبدأ ردّ الجميل أن يكافئها ويجزيها وليست هنـاك مكافـأة أجزى من تقبيلها. اسمعه يقول:

قبَّلتُ رجلَ حبيبي	فـازورَّ واحمرّ خدّا
وقـال: تلثمُ رجلي؟	لقد تنازلت جِدّا
فقلتُ: مـا جئتُ بِدعاً	ولا تجاوزت حَدّا
رجلٌ سَعَتْ بك نحوي	حقوقها لا تؤدّى

و لم يقتصر هذا التقبيل المفرط في التنـازل على العامّة فإنّ الملوك والخلفاء كانوا في عشقهم يتحولون إلى اشخـاص كسائر النـاس فينزلون من مَنصّات عروشهم إلى مـا تحت اقدام معشوقيهم فيمرغون خدودهم المُتصعرّةَ بتراب أقدامهم. وقد رويت عنهم اعترافات بذلك فهذا (الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل) يقول عن نفسه:

ظلَّ من فرطِ حُبّه مملوكا	ولقد كان قبل ذاك مليكا
تركته جنـآذرُ القصرِ صَبّاً	مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعَلُ الخدَّ واضِعاً فوق تربٍ	للذي يجعل الحرير أريكا

هكذا يَحسُنُ التذلُّلُ بالحُرِّ إذا كان في الهوى مملوكا[1]

أما المأمون فلم يكن يجدُ عيباً في التنازل - وهو خليفة - فيقوم بتقبيل قدمي المغنية (عُريب) التي كلفَ بها وعُرفت بـ(عُريب المأمونية). فكان إذا انحرفت عنه من شيءٍ كان يترضاها بتقبيل قدميها ويمرغ عليهما خدّيه. حسبما زعموا[2]

و ينطلقُ تقبيل القدم عند (البهاء زهير) من مبدأ يسمو على العاطفة يشرحه في قوله:

وزائرةٍ زارت وقد هجم الدُّجى وكنتُ لميعادٍ لها مترقّبا

فما راعني إلا رخيمُ كلامها تقول: حبيبي.قلت: أهلاً ومرحبا

فقبَّلتُ اقداماً لغيري ما مشَت ووجهاً مصوناً عن سواي مُحجَّبا[3]

فمبدأ (البهاء) في تقبيل قدمي محبوبته يعود إلى كونهما صانتاها عن المشي إلى غيره ولم تحملاها إلا إليه فقط ولذلك شرفتا عنده فقبلهما.

هذا إذا كانت المحبوبة عفيفة القدمين عن البغي، أما إذا كانت المحبوبة بغياً فِعْلاً فإن قدميها تقبلان كذلك انطلاقاً من مبدأ آخر يظهره الفيلسوف الوجودي (سارتر) في روايته (البغي الفاضلة) حيث يجعل بطل الرواية يمارس تقبيل قدمي محبوبته وهي بغيٌ ممتهنة فعلاً وذلك (احتراماً للانسانية المعذَّبةِ فيها) على حدِّ قوله.

---

١. الواضح المبين/ المصدر السابق/٧٢.

٢. الدر المنثور/ المصدر السابق/٢٣٨.

٣. ديوانه/٧٩. والبهاء زهير ولد بمكة سنة ١١٨٦م ونشأ بقوص واتصل بخدمة الملك الصالح ايوب بمصر وتوفي سنة ١٢٥٨م.

الباب العاشر

القبلة في محيط النبوّة

- الرهبانية المرفوضة
- ثلاثية الحبِّ عند النبي (ص)
- النبيّ مع نسائه
- النبي مع أهل بيته
- النبيُّ مع صحابته
- حديث تقبيل النبي يَدَ الفلاح
- تقبيل اليد التي لامست كفّ النبي
- تقبيل الصحابة أيادي بعضهم

الرهبانية المرفوضة

كان الصحابي الجليل (عثمان بن مظعون) قد أمضى فترةً من حياته في الجاهلية. وكان عصر الجاهلية حافلاً بثقافات وديانات متعدّدة انتشرت فلسفاتها بين الناس فصاروا بموجبها طوائف واحزاباً كلٌ واحد منهم ينتصر لحزبه و(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)[1].

و رغم إن هذه الأحزاب كانت في كثير من الاحيان تتغالب فيما بينها إلا أن الجميل فيها أنها كانت تتوحد في سلامٍ مفروضٍ وواجب تحت سقف بيت واحد هو (الكعبة) بيت الله العتيق.

و كان الداخل إلى الحرم المحيط بالبيت يجد رموز ديانات العرب جميعاً قد احتلت مكانها المخصص منه وتسلّل بعضها إلى جوف الكعبة وعلا بعضها سطحها.

و قد انحاز الناسُ إلى عبادة تلك الرموز كلٌّ طائفة منهم تتعبد بالشكل الذي تمليه عليهم ديانتهم مما جعل رسول الله يأمر بهدمها وتكسيرها إذا كانت أصناماً وأوثاناً أو محوها بالماء إذا كانت تصاوير وإيقونات.

و كان من بين تلك العبادات عبادةٌ انصرف فيها معتنقوها إلى الله كلّيةً فتخلّوا عن ملاذّ الدنيا وهجروا الناس وانتحى قسمٌ منهم نحو مكانات منعزلة نائية فعرفوا بالرهبان وسمّوا بذلك لغلوّهم في تحمّل التعبّد رهبةً من الله. وكان منهم (أبو عامر الراهب)[2] وكان قسم من هؤلاء الرهبان

---

١. المؤمنون/ ٦٣ والروم/ ٣٢.

٢. من خبر أبي عامر هذا أنه قدم المدينة وأى الرسول (ص) وسأله: ماهذا الذي جئت به؟ فقال الرسول: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال الرسول: كذبت لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها. وقد سماه الرسول (الفاسق) فذهب مغاضباً والتحقق بقيصر الروم لتأليبه على المسلمين ولكنه مات في الطريق. (ينظر/ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام/ المصدر السابق/ ٦/ ٤٥٨.

نصارى وقيل أن عثمان بن مظعون كان راهباً قبل أن يسلم أو كان يقلّد الرهبان في سلوكهم[1].

و قد حرّم أولئك الرهبان الزواج على أنفسهم ونادوا بمبدأ العزوبة وسكن بعضهم مكة فقال فيهم الشاعر (كثير عزةَ):

رهبان مكة والذين عهدتهم يبكون من حَذَر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خرّوا لعزّة رُكّعاً وسجودا

و يشير كثير بقوله: والذين عهدتهم يبكون . . إلخ . . إلى طائفة (البكّائين وهم الذين يبكون من خشية الله). ويبدو أنهم كانوا يؤمنون بالمعاد.

و لمّا أسلم الصحابي الجليل عثمان بن مظعون راح يواصل سلوك الرهبان فتقشّفَ وتنسكَ ولبس المسوح وحرّم الخمر والزواج على نفسه معتقداً أن الاسلام يحبذ ذلك. ثم غلا في العبادة فأغلق على نفسه بيته يتعبّدُ فيه.

و عندما وصل خبره إلى النبي (ص) أتاه فأخذ بعضادة البيت وقال: "ياعثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة" وأعادها ثلاث مرات[2].

و لم يكن هذا الصحابيُّ بهذا المبدأ منفَرداً بل كان ضمن (حزبٍ) له انصاره ومؤيدوه كانوا يجتمعون في بيته وقد تعاهدوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وألاّ يأكلوا اللحم ولا يناموا على الفراش ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا ملذّات الدنيا ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض. فبلغ أمرهم رسول الله فأتاهم قائلاً: "إني لم أؤمَر بذلك، إن لإنفسكم عليكم حَقّاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فأني أقوم وأنام وأصوم وأُفطر وآكل

---

١. المفصل/ المصدر السابق/ ٦/ ٦٤٥.

٢. الأصابة في تمييز الصحابة/ ترجمة رقم ٥٤٥٣/ ابن حجز العسقلاني.

اللحم والدّسم وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1].

و في خبر آخر ذكر أنه (ص) لما قيل له أن عثمان حلَف ألا ينكح أبدا، خرجَ فنادى الصلاة جامعة وصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: "ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ ألا أني أنام الليل وأنكح وأفطر في النهار فمن رغب عن سنتي فليس مني"[2].

و بهذا فتح رسول الله منفذاً للناس يطلُّ على الدنيا بزينتها وملاذّها وجمالها دون أن ينغلق عن الآخرة فأبطل محرّمات ابن مظعون وأباح للزاهدين أن يجمعوا دون إسراف بين متطلبات الدنيا ومستوجبات الآخرة.

ثم شاع عنه قوله المشهور: حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجُعِلَت قرةُ عيني الصلاة"[3] . كتطبيق للآية الكريمة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"[4].

ثلاثية الحب عند النبيَّ

و قد يبدو حديث النبي (ص): "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث، الطِّيب والنساء وجُعلت قرةُ عيني الصلاة" لقارئه حسب ظاهره متضاداً في موضوعاته متنافراً في عناصره، إذ كيف يمكن ربط الطيب والنساء وهما من الأعراض الدنيوية بالصلاة وهي وسيلة تعبدية أخروية؟

نقول: لو استجلينا باطن الحديث لوجدنا فيه ابعاداً ودلالات عميقة ووجدنا كذلك أن كل واحدة من تلك العناصر الثلاثة لا تنفصل عن بعضها

---

١. زبدة البيان/ المحقق الاردبيلي/ ٦٢٢.

٢. جواهر الكلام/ الشيخ الجواهري/ ٣٥/ ٤٢٤.

٣. سنن النَّسائي/ كتاب عشرت النساء/ الحديث ٣٨٧٨. ومسند أحمد/ الحديث ١١٨٤٥، ١١٨٤٦.

٤. المائدة/ ٨٧.

وهي في مجموعها تتلاقى في انضمامٍ متماسك لتكون العبادة الحقيقية السامية المتعالية.

فالطيبُ أولاً يفتح أمام عيني المتطيّب مشاهد مصادره المتمثلة بالجزئيات الحيّة للطبيعة وعناصرها التكوينية من رياضٍ مزهرة وبرارٍ معشبة وغابات واشجار باسقة وعيون ومياه دافقة وغيرها، فيصبح العطر بمثابةِ حلقة وصل بين الانسان وبين تلك العناصر التي تُظهر – لدى التأمل فيها – عظمة التجلّيات الالاهية وبدائع صنع الله، وحينها تصبح عبادة الله – لدى المتطيب – أشد رسوخاً وأكثر عمقاً.

هذا من جانب ومن جانب ثانٍ ورد في المأثورات ما يشير إلى وجود علاقة حُبِّيةٍ بين الله وبين المتطيّب. فذكر أنه تعالى يحبّذُ أن يتنسَّم من عبده الرائحة الطيبة أثناء تعبده. ويكره أن يدخل العابد مسجد الصلاة وهو زَهِمُ الرائحة قبيحها. ولذلك نهى النبي (ص) آكل الثوم والبَصَل أن يقرب المسجد حتى يذهب ريحها "فإن الملائكة تتأذى بما يتأذى به المسلم"[1].

و هناك احاديث كثيرة في هذا المجال خلاصتها: "إن الاسلام نظيف"

و قد كان للنبي (ص) (سُكَّةٌ) من الطيب يتطيب بها وكانت عائشةُ (رض) تطيِّبه بأطيب ما تجد من الطيب، وقد روي عنها قولها: كأني انظر إلى ربيصٍ (بريق) المسك في مفارق رسول الله وهو محرم[2].

و كان (ص) تعجبه هدية الطيب فلا يردُّها ويردُّ غيرها من الهدايا[3].

و كانت العطّارة (زينب الحولاء) تأتي بيته فتبيع العِطر من نسائه فدخل

---

١. رسائل المرتضى/ الشريف المرتضى/ ٣/ ١٢٥ والدعوات/قطب الدين الراوندي/ ١٥٩.

٢. ربيع الابرار/ الزمخشري/ ٢/ ٢٦٦.

٣. اللباس والزينة من السنة المطهرة/ محمد عبد الحكيم القاضي/ ٢٧٩.

يوماً وهي عندهن فقال لها: إذا أتيتنا طابت ريح بيوتنا. فقالت: بيوتك بريحك أطيب يا رسول الله[1].

و توجد في كتب الصحاح احاديث كثيرة تحثُّ على التطيب والتعطرّ وكلها ذوات دلالة على خصوصية الطيب في تمتين العلاقة الحبيّةِ بين لمتعطر وربّه.

و إذا نظرنا – حسب القياس – إلى الحبّ الآخر الذي أعلنه النبي وهو (حب النساء) فيمكن أن يندرج كذلك في نفس المورد إذ يمكن اعتبار هذا الحب صورة من صور التعبير عن الاستغراق في حبٍّ الذات الالاهية. وقد جاء عن الامام الصادق (ع) قوله: "إن العبدَ كلما ازداد للنساء حُبّاً إزداد في الإيمان فضلاً"[2].

و قد علَّلَ (الشيخ النراقي) حبَّ النبي للنساء بإنه ناتجٌ من شدة استغراقه في حبِّ الله بحيثُ ((يخشى احتراق قلبه والسرايةَ منه إلى قالبه فكان يكثر من النسوان ويشغلُ نفسه الشريفة بهن وليبقى له نوعٌ من التفات الدنيا ولا يؤدي به كثرة الاستغراق إلى مفارقة الروح من البدن ولذا كان إذا غشيته كثرة الاستغراق وخاض في غمرات الحب يضربُ بيده على فخذ عائشة ويقول: كلميني واشغليني يا حُميراء. وهي تشغله بكلامها من عظيم ماهو فيه لقصور طاقةِ قالبه عنه))[3].

وكأنّي بالنراقي يريد أن يقول أن حبّ النساء كان وسيلة يلجأ إليها النبي للتخفيف من حالة التوتر التي تصاحبه اثناء الغشية الإيحائية.

و يرى (معروف عبد الغني الرصافي) إن أعصاب النبيّ كانت في تهيّجٍ مُستمر، وتزداد تهيجاً عندما تصاحبه تلك النوبة (نوبة الوحيّ) فلذلك

---

١. التوحيد/ الشيخ الصدوق/ ٢٧٦.

٢. الحدائق الناضرة/ المحقق البحراني/ ٢٣/ ٢٠.

٣. كتابه/ جامع السعادات/ ٢/ ٨.

يكونُ تَشميرُه للجماع عَرَضاً من أعراض ذلك التهيّج. ولا شك أن الجماع يكون خير مسكّنٍ لأعصابه وهو في تلك الحالة، فكان كلما اشتدت حالته العصبية تهيجاً يلجأ إلى الجماع تسكيناً لأعصابه من تهيجها، كما إذا اعتراه حزنٌ أو همٌّ وغمٌّ يلجأ إلى الصلاة فتكون الصلاةُ له خيرَ سلوى مما هو فيه من همٍّ وغمّ لأنّ نفسه في الصلاة تتّجه إلى الله فتشغلها العبادة عما هي فيه من هموم وأحزان، ولذا قال (وجعلت قُرةُ عيني في الصلاة). وقد ذكر (الحلَبي) في سيرته أنه كان إذا أحزنه أمرٌ فرغ إلى الصلاة فبهذا نعرفُ لماذا كان يكثر من الجماع ولماذا قال: "وجعلت قرةُ عيني في الصلاة"[1].

و في الواقع أن هموم النبي كانت كبيرة ومُسبِّباتها كانت كثيرة حسبما تنقله عنه السير النبوية لذا كان عندما يدهمه الحزن والهم يعوذ بالصلاة ليرى ذاته وجهاً لوجه أمام الله فتزيل هذه المشاهدة جميع هموم نفسه وتقدحُ في روحه نشوة الغبطة مثلما تقدحه فوحةُ الطيب و(ملامسة) النساء.

و هكذا تصبح عناصر الحب الثلاثة التي ذكرها النبي (ص) في حديثه نسيجاً متداخلاً مع بعضه لتعطي نتيجة نهائية تتمثل بقدرتها الحسيّة المجردة على نقل الذات الخاصة به إلى رحاب الذات الالاهية المطلقة لتتماهى فيها.

النبيُّ (ص) مع نسائه

و قد يتبادر إلى الذهن سؤال: هل يستطيع رئيسُ دولةٍ ما أن يصرّحَ لشعبه هذا التصريح المكشوف فيقول لهم: حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث العطرُ والنساء وقرة عيني الصلاة، دون أن يتعرض للنقد والتجريح؟

---

١. كتابه/ الشخصية المحمّدية/ ٣٥٠.

نقول: لا يستطيع أيُّ رئيس أن يقول ذلك والسبب واضح هو أن علاقة رؤساء الدول جميعاً مع شعوبهم هي علاقةُ حاكم بمحكوم وهي علاقة تسلطيّة فوقية تتسمُ بالعزلةِ القائمة على الخوف والرهبة بينما علاقة محمدٍ بشعبه هي علاقة معلم بتلاميذ وهي علاقة روحية حميمةً تقوم على أساس الحبّ والانفتاح وارتفاع حاجز الأسرار. فالنبي لدى صحابته أو تلامذته ليس سرّاً مغلقاً غامضاً بل كينونة بشرية بسيطة مبسوطة أمام مرأى الجميع لا يحجزه عنهم قصر مسوّر ولا حرسٌ مدجج، فهو حتى لو ضَمَّتهُ حجرته المتواضعة مع نسائه فإن صحابته أو تلامذته سوف يعرفون بالتالي ماذا كان يدور في تلك الحجرة البسيطة وذلك عن طريق سؤاله. فكان النبي يجيبهم بكل صراحة لا يخبيءُ عنهم شيئاً لأن غايته أن يُعَلِّمهم كيفية السلوك مع المرأة الزوجة.

و كان الصحابة لا يستحون أن يسألوه عن دقائق تلك العلاقة فيجيبهم ويشبع فضولهم دون أن يرى في ذلك حرجاً لإنه كان يبغي من وراء ذلك ارشادهم إلى السنة المثلى في تسيير العلاقة الزوجية.

و كانت نساء المسلمين يذهبن إلى نسائه للحصول على إفادةٍ منهن يسلكن بموجبها مع أزواجهن فكانت نساؤه يظهرن للسائلات تلك الخصوصيات لغرض الإهتداء حتى لو كشفن المكنون.

و فيما يخصُّ الأمور التي تتعلّقُ بما بين الزوج والزوجة في السرير كان (ص) يرشد صحابته إلى الطريقة المثلى لإجتناء اللذة اشتراكاً فقد جاء في الأدب المأثور عنه أنه يتوجّبُ أن يغطي الرجل رأسه ويغضُّ صوته بالرفث أو بما يتقدمه من الكلام المثير ويرسلُ أولاً رسولاً من قبلةٍ أو كلامٍ رقيق يؤذن بالأمر أو استئناسٍ بضمٍّ أو شمٍّ أو مفاخذةٍ أو نحوها لتتحرك نفس الزوجة إلى ما تحركت إليه نفسه فتقوى اللذة بذلك.

و من تلك الارشادات قوله (ص) لا يقع أحدكم على امرأته كما تقع

البهيمة. ليكن بينهما رسول. قيل وما الرسول؟ قال: القبلةُ والكلام ويأخذها بلطفٍ ولا يُعَنِّفُ بها جماعاً ولا ضَمّاً فإن فَعَلَ فجنى[1].

ثم ورد الأمرُ بملاعبتها ودغدغةُ ثدييها ونحو ذلك مما يعين على الأنزال. وعنه (ص): "إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله فلا يعجلها"[2]. وهذا حديثٌ جميل يحمل في باطنه وجوب استباق الفعل بالمغازلة والمداعبة للتنشيط وتسعير الإثارة.

و كان النبي يحبّ عائشة حباً عظيماً مما جعل أزواجه الأخريات يغرن منها. ففي حديث عائشة قالت: إنهنّ اجتمعن بابنته فاطمة يطلبن منها أن تتوسط لهن عنده ليعدل بينهن فجاءت تستأذن والنبي كان معي فقالت: يارسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في إبنة أبي قحافة. فقال: أي بنيّة ألستِ تحبين ما أحبّ؟ فقالت: بلى. قال: فأحبي هذه (يعنيني). فقامت فاطمة فجاءت أزواج النبيّ فحدّثتهن بما قالت وقال لها. فقلن لها: ما أغنيتِ عنّا من شيء فارجعي إلى النبيّ فقالت: والله لا أكلمّه أبداً.

و في روايةٍ عن عائشة أيضاً قالت: دخلت عليَّ زينب بنت جَحش وعندي رسول الله فأقبلت عليه وقالت: ما كلُّ واحدةٍ منّا عندك على خلاء. ثم أقبلت عليَّ تسبني. فردعها النبيّ فلم تنتهِ. فقال لي: سبيِّها. فسببتها وكنتُ أطولَ لساناً منها حتى جفَّ ريقها في فمها ووجه رسول الله يتهلَّلُ سروراً[3].

و كان (ص) من شدة شغفه بها إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشَربَ. وكانت إذا تعرّقت العَظمة بفَمها أخذه فوضع فمه على

---

١. التحفة السنيّة/ الفيض الكاشاني/ مخطوط ٢٧٧.

٢. م. ن./ ٢٧٨.

٣. ينظر/ صحيح مسلم. فضائل الصحابة ٤٤٧٢ وسنن النَّسائي/ عشرة النساء ٣٨٨٣ والسيرة الحلبية/ ٢/ ٢١٥.

موضع فمها ومصَّ موضع فمها وكان يقَبلها وهو صائم ويمصُّ لسانها[1].

و قد اختلف فقهاء المسلمين في حديث القبلة ومصِّ النبي لسان عائشة في الصوم فمنهم من ضعَّفه ومنهم من علَّلَه تعليلاً يتناسبُ مع موارد مبطلات الصوم فقال النووي: إن القبلة في الصوم ليست محرّمةً على من لم تحرك شهوته ولكن الأَولى له تركها ولا يقال أنها مكروهة له وإنما قال الشافعيّ إنها خِلاف الأولى في حقّه مع ثبوت أن النبي (ص) كان يفعلها لأنه (ص) يؤمن في حقّه مجاوزة القبلة ويخاف على غيره مجاوزتها كما قالت عائشة: كان امكنكم لأرَبه وأما من حركت شهوته فهي حرامٌ في حَقّه على الأصح.

قال القاضي: وقد قال بإباحتها (أي القبلة) للصائم مطلقاً جماعة من الصحابة والتابعين واحمد واسحاق وداود وكرهها على الاطلاق مالك. وقال ابن عباس وابو حنيفة والثوري والاوزاعي والشافعي تكره للشاب دون الشيخ الكبير وهي رواية مالك . . وروى ابن وهب عن مالك إباحتها في صوم النَّفَل دون الفرض. ولا خلاف في أنها لا تبطل الصوم إلا أن ينزل (المني) بالقبلة. واحتجوا له بالحديث المشهور بالسّنن وهو قوله (ص): أرأيت لو تمضمضت... ومعنى الحديث أن المضمضة مقدمة الشرب وقد علمتم أنها لا تفطر وكذا القبلة مقدمة للجماع فلا تفطر.

و قال العلماء: معنى كلام عائشة أنه ينبغي لكم الأحتراز عن القبلة ولا تتوهموها من أنفسكم أنكم مثل النبي (ص) في استباحتها لأنه يملك نفسه ويأمن من الوقوع في قبلةٍ يتولَّد منها إنزالٌ أو شهوةٌ أو هيجان نفس ونحو ذلك وأنتم لا تأمنون ذلك فطريقكم الإنكفاف عنها.

أما ما يخصُّ مسألة (مصّ لسان عائشة عند الصوم) فقد أورد بعض العلماء تعليلاً لها وقال: إن واقعه حالٌ تعليليّة محتملة أنه عليه الصلاة

---

١. سنن أبي داود/ ٢/ ٣١١ – ٣١٢ وسنن البيهقي/ ٤/ ٢٣٤.

والسلام كان يبصقه ولا يبتلعه[1]. وقال العلاّمة الحلّي: أنه يجوز أن يمصَّهُ بعد إزالة الرطوبة عنه فأشبه ما لو تمضمضَ بماء ثم مَجّه[2].

و كان الاستفسار من زوجات الرسول عن مثل هذه الأمور مألوفاً لدى المسلمين. وكان بعضهم إذا تهيَّبَ مساءلتهن بعثَ بأحد الموالي أو بعث زوجته بالسؤال. ففي خبرٍ جاء عن ابي قيس مولى عمرو بن العاص قال فيه: بعثني عبد الله بن عمر إلى أم سلمة فقال لي: أبلغها السلام وسلها إن كان رسول الله (ص) يقبلُ وهو صائم؟ فإن قالت: لا. فقل فإنّ عائشة تخبر عن النبي أنه كان يقبلها وهو صائم. قال: فأتيتُ أم سلمة وابلغتها السلام وقلت: أكان رسول الله يقبِّل وهو صائم؟ فقالت: لا. قلتُ لها: إن عائشة تخبر عن النبيّ إنه كان يقبلُ وهو صائم فقالت: لعلّه فَعَلَ بها مالم يَتمالكها حبّاً فأما إيايَ فلا[3].

و أخبر مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رجلاً قبَّلَ امرأته وهو صائم فوجَدَ من ذلك وجداً شديداً فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها فقالت أم سلمة: إن رسول الله يقبّل وهو صائم. فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرّاً وقال: لسنا مثل رسول الله، يحلُّ الله لرسوله ما يشاء. فرجعت المرأة إلى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها فقال رسول الله: ما بالُ هذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة فقال: ألا أخبرتيها إني أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة: أخبرتها فذهبت إلى زوجها فزاده ذلك شراً وقال: لسنا مثل رسول الله يحلُّ الله لرسوله ما يشاء. فغضب رسول الله ثم قال: والله إني لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده[4].

---

١. عون المعبود/ العظيم آبادي/ ٧/ ٧ – ١١.

٢. كتابه/ تذكرة الفقهاء/ ٦/ ٦٥.

٣. ينظر/ مسند ابن راهويه/ ٤/ ١٥٩.

٤. السرالة/ الأمام الشافعي/ ٤٠٤ تحقيق أحمد محمد شاكر.

يقول أحد الباحثين المعاصرين: لقد كان رسول الله رقيقاً في معاملة النساء حريصاً على مشاعرهن وكان يوصي دائماً بتقبيل النساء وإطرائهن بالكلمات الملائمة وبالطيب والمداعبة قبل الرقاد وبعده وقد ضرب المثال بنفسه دون تردّد مستهلاً بذلك فنّاً كاملاً للحياة الزوجية يعتَبرُ بحقٍّ مثالاً في الكمالِ والدِّقَة[1].

النبيُ مع أهل بيته

و كانت علاقة النبي (ص) مع أهل بيته سوى ازواجه حميمة فياضة بالحب والمودّة وقد أفاضت كتب الحديث بإيراد صور جميلة من هذه العلاقة التي كان النبي يظهرها أما الملأ ولا يخفيها وكأنما كان يريد منها أن تكون انموذجاً يستنُّ المسلمون بها في تمتين علاقاتهم بأسرهم.

و أهل بيته هم فاطمة وعلي وولداهما الحسن والحسين (ع) تحديداً حسبما جاء عن أمّ سلمة (رض) قولها: بينما رسول الله (ص) في بيتي يوماً إذ قال الخادم إن علياً وفاطمة في السُّدَّة، قالت: فقال لي: قومي افتحي لي عن أهل بيتي. قالت: فتنحَّيتُ في البيت قريبا، فدخل عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين وهما صبيّان. قالت: فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره وقبلَّهما واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى وقبل فاطمة وأغدق عليهم جميعاً خميصةً سوداء ثم قال: أللهمَّ إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي. قالت فقلت: وأنا يارسول الله؟ قال: أنتِ على خير[2].

---

١. الاسلام والجنس/ عبد الوهاب بوحديبة/ ١٩٠.

٢. الحديث ورد بأسانيد مختلفة ومتون مختلفة. ينظرُ مثلاً: أسد الغابة في ترجمة عطية/ ٣/ ٤١٢. والصواعق المحرقة لابن حجر/ ٢/ ٦٥٤ ط. الأولى ١٩٩٧. والمعجم الكبير للطبراني/ ٣٦/ ٦٣ ط. الثانية ١٩٨٣.

و عن عائشة (رض): إن النبيَّ (ص) قبَّل يوماً نحر فاطمة فقالت له عائشة: يارسول الله فعلتَ شيئاً لم تفعله. فقال: ياعائشة إني إذا اشتقتُ إلى الجنّة قبلتُ نحر فاطمة[1].

و كانت فاطمة أحبُّ أولاده وأحظاهن عنده بل أحب الناس إليه مطلقاً فروى الترمذي عن بريدة عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ولا هدياً برسول الله (ص) من فاطمة في قيامها وقعودها وكان إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه.

و كان (ص) إذا قدم من مغازيه قبَّل فاطمة. وروي عن عائشة أن فاطمة كانت إذا دخلت على رسول الله قام لها من مجلسه وقبل رأسها وأجلسها مجلسه وإذا جاء إليها لقيته وقبل كلٌّ منهما صاحبه[2].

و روي أنه اعتاد أن يقبل سُرَّةَ سبطه الحسن. جاء ذلك في حديث اسحاق قال: كنتُ أسير مع الحسن – في بعض طرق المدينة فلقيه أبو هريرة فقال: جعلني الله فداك إكشف لي عن بطنك حتى أقبل الموضع الذي رأيتُ رسول الله يقبله. فكشف عن بطنه فقبَّلَ سُرَّته[3].

و مما لاشك فيه أنه (ص) لما افتقد حُبَّ الأبناء وجَّهَ هذا الحب نحو سبطيه الحسن والحسين، فكان لا يلقاهما في مكانٍ عام إلا وأغدق عليهما فيض القبل. يروي أبن ماجه في السنن والزمخشري في الفائق أن النبي رأى الحسين يلعب مع الصبيان في السكّة فاستقبل النبي أمام القوم الصبيَّ فبسط أحدى يديه فطفق الصبيُّ يَفِرُّ مرّةً من ههنا ومرة من ههنا ورسول الله يضاحكه ثم أخذه فجعل أحدى يديه تحت ذقنه والأخرى على رأسه وأقنعه (رفَعه) فقبّله وقال: أنا من حسين وحسين مني أحبّ الله من

---

١. ذخائر العقبى/ احمد بن عبد اللّه الطبري/ ٣٦.

٢. مناقب آل أبي طالب/ ابن شهر آشوب/ ٣/ ١١٣.

٣. القبَل والمعانقة والصافحة/ ابن الاعرابي/ ٢٠ تحقيق هلال ناجي/ ط. ١٩٨١

أحب حسيناً. حسين سبطٌ من الاسباط[1].

و عن أبي هريرة قال: رأيت رسول الله (ص) يمصُّ لعاب الحسين كما يمصُّ الرجل الثمرة[2].

و كان (ص) يقبّلُ كل موضعٍ من جسدي سبطيه وهما طفلان أمام الناس ليريهم كيف يكون حدبُ الجدِّ على أحفاده. فقد جاء عن أبي ليلى قال: كنّا عند النبيّ (ص) فأقبل الحسن يتمرَّغُ عليه فرفع قميصه وقبَّل (زبيبته)[3].

و يروي الطبراني عن ابن عباس قال: رأيتُ النبيّ (ص) فَرَجَ ما بين فخذي الحسين وقبَّل زبيبته.

هذا وندعُ للقارئ تقدير هذا الحبّ الكبير.

النبيُّ مع صحابته

و كانت علاقة النبيِّ مع أصحابه علاقة إنسانٍ بإنسان وليست علاقة إنسانٍ بإلاه كما كانت الحال عند المسيحيين مع نبيهم.

و قد ترتفع هذه العلاقة إلى حدّ التقديس فكان (ص) يسمحُ بها ما بقيت ضمن الحدود الخاصة بتوقير المقدّس كالتقبيل واللمس ولثم أشيائه المتصلة به والتمسُّح بها، فإذا تجاوزت هذا الحد ووصلت إلى حدّ التأليه منعها النبيّ. وكان هذا الحدُّ يتمثلُ بالسجود له فقد كان يرفضه رفضاً قاطعاً حسبما جاء في (حديث الشجرة) الذي سنتطرّق إليه.

و مع ذلك فإن بعض الناس كان لا يشعر تجاه النبيّ بمشاعر الاحترام ومنهم (المنافقون) وهم المسلمون الظاهريون المبطنون غير الاسلام، فكانوا يصدّون عنه صدوداً وكذلك الأعراب البداة الذين كانوا يفدون إليه

---

١. بحار الأنوار/ المجلسي/ ٤٣/ ٢٩٥.

٢. سبيل الهدى والرشاد/ الصالحي الشامي/ ١١/ ٧١.

٣. المجموع/ النووي/ ٢/ ٤٢.

ليسلموا فينادونه باسمه المجرد ولا يكنونه بكنيته المعروفة. وإذا جاءوه ووجدوه في ساعة راحته في حجرته نادوه باسمه نداء صياح أن يخرج إليهم. فكان (ص) يتأذى من سماجتهم وخشونتهم. وقد نعت الله هؤلاء بالجهل لعدم تأدبهم في حضرة النبيّ فقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" (الحجرات/ ٤).

و قد تمادى بعضهم في السَّفه فكانوا يدخلون بيوت النبي من غير إذن منتظرين طعاماً ويبقون جالسين حتى ينضج وكان النبيُّ يستحي أن يخرجهم فقال تعالى في أولئك: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ" (الأحزاب / ٥٣).

و لذلك لن نتوقع من هؤلاء أن يصدر منهم شيء يِعبِّرْ عن احترامهم للنبيّ.

و في مقابل هؤلاء نجد غالبية كبيرة من المؤمنين تدين بالاحترام العميق للنبي يتدرجُ من التقبيل إلى الاستشفاء بترابه واقتسام شعره بعد حلقه للتبرك وغير ذلك.

و كان تقبيل يده شائعاً بين الصحابة جميعهم. ففي حديث عبد الله بن عمر قال بعد أن ذكر قصة: فدنونا من النبيِّ (ص) فقبلنا يده[1].

و في حديث أسامة بن شريك قال: أتيتُ رسول الله (ص) وعنده اصحابه وكأن على رؤوسهم الطير فجاء الأعراب فسألوا رسول الله ثم قام رسول الله وقام الناس فجعلوا يقبّلون يده فأخذتها ووضعتها على وجهي فإذا هي أطيبُ من ريح المسك وأبرد من الثلج[2].

---

١. كتاب القبل والمعانقة والمصافحة/ المصدر السابق/ ١٥.

٢. م. ن./ ١١.

و يتردَّدُ في الأخبار أن المسلمين كانوا يقبلون كل موضع من جسد رسول الله يفعلون ذلك قربة إلى الله تعالى. فمن حديث الزارع العبدي – وكان في وفد عبد القيس – قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبِّلُ يدَ النبيِّ ورجله[1].

و قبَّل سلمان الفارسي خاتم النبوة فيه – أي الشامة التي على كتفه – ولما كان النبيُّ طفلاً في المهد جاء إليه سواد من قارب الدوسيّ الكاهن في الجاهلية والصحابيُ في الإسلام فقبَّلَ خدّه[2].

و ورد أن بعض الصحابة قبَّل بطنه فسمح له وذلك في حادثةِ رجلٍ من الأنصار يقال له سواد بن عمرو، طعنه الرسول في بطنه بعصاً فوضع الرجل يده على بطنه وقال: أوجعتني، أقدني. فرفع الرسول قميصه حتى انتهى إلى المكان الذي طعنه في مثله فقبّلَهُ الرجل[3].

و في خبرٍ آخر أنه (ص) لقيَ رجلاً مختضباً بالصّفرةِ وفي يد النبيّ جريدةٌ فقال النبيّ: حُط، حُط، ورَسْ ثم طعن بالجريدة في بطن الرجل قائلاً: ألم انهكَ عن هذا (أي الإختضاب بالورس وهوالزعفران). فأثّر الطعن في بطن الرجل، أدماه فقال الرجل: القَوَد يارسول الله. فقال الناس: من رسول الله تقتص؟ فقال الرجل: ما لبشرة أحد فضل على بشرتي. فكشف النبيّ (ص) عن بطنه ثم قال: أقبض. فقبّل الرجل بطنَ رسول الله وقال: أدّعُها لك لعلَّك أن تشفع لي بها يوم القيامة[4].

و الواقع أن تلك المبادرات من الصحابة كان يعتبرها النبيُّ بمثابة توقيعات ترشَحُ من سيل العلاقة الروحية بينه وبينهم فلا يمنعهم من

---

١. م. ن./ ١٥.

٢. مستدرك سفينة البحار/ علي النمازي/ ٨/ ٢٩٢.

٣. كتاب القبل/ المصدر السابق/ ١٩.

٤. م. ن./ ١٩.

تأديتها. ولكن إذا ما تجاوز الأمر إلى أبعد من ذلك وقاد إلى التأليه منعها وحرَّمها حسبما جاء في (حديث الشجرة). فقد ذكر أن الأعرابيَّ لما رأى معجزة النبيّ في تحريك الشجرة وانقلاعها من جذورها متوجهةً إليه، قال للنبيِّ: إئذن لي أن أُقبِّلَ رأسك ورجليك فأذن له فقبّلَ رأسه ورجليه، فقال إئذن لي أن أسجد لك قال: لا يسجُدُ أحدٌ لأحدٍ ولو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها تعظيماً لحقّه[1].

و لاشك أن النبيّ كان ينظر إلى مسألة السجود له باعتبار أنها مظهر من مظاهر التأليه فرفعها عن شريعة الإسلام. وكانت عقيدة تأليه الملوك والسجود لهم كآلهة معروفة لديه. وكذلك تأليه الأنبياء، فاليهود ألَّهوا العزير واعتبروه ابناً لله والنصارى ألَّهوا المسيح واعتبروه ابناً لله فكان صحابته الاوائل يسجدون له باعتباره (ربّاً) فينادونه بقولهم: ياربيّ أو أيها الربُّ وكان بطرس أحد صحابته يناديه بكلمة: ياربّ[2]. ويعتبرونه صورة الألاه غير المنظور[3].

أما بالنسبة إلى رفضه (ص) سجود المرأة لزوجها كحقٍّ تقدير لقيامه عليها. فإنه (ص) أراد أن يصون وجهها عن الخضوع التأليهي لزوجها باعتباره (رَبّاً) وكان الخضوع التأليهي للزوج مفروضاً على المرأة في الديانة المسيحية. وقد نادى به (بولس الرسول) في رسالته إلى مؤمني (إفسُس) قال فيها:

> "لتخضع النساءُ لرجالهن كما للربّ لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح صورة رأس الكنيسة ومخلّص الجسد فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك

---

١. م. ن./ ١٥.

٢. إنجيل متى/ ١٧/ ٤.

٣. مدخل إلى العقيدة المسيحية/ الأب توماس ميشال اليسوعي ص/ ٦١.

تخضع النساء لرجالهن في كلّ شيء"[1].

و يرى الباحثون أن هذا الخضوع المطلق المفروض على الزوجة لزوجها في المسيحية جاء من تقاليد العصور القديمة في الزواج، عندما كان الرجل إذا بغى امرأة لنفسه يروح يختطفها من القبائل المجاورة ويقودها بالقوة إلى بيته ويجبرها على الاستسلام له في كل شيء. تقيم معه حيث أقام وتسير حينما سار وحتى إذا مات فإن في بعض تقاليد القبائل ما يفرِضُ عليها أن تموتَ معه فتجبَرُ على الإنتحار بقرب جثته أو يتقدَّم أحد أقربائها فيقوم بذبحها فوق جدث زوجها وتدفن معه في جدث واحد[2].

و يبدو لنا من خلال رسالة بطرس إلى مؤمني (إفسُس) أنها جاءت كردّةِ فعلٍ على عبادة الإلاهة (أرتميس) التي كان أهالي إفسُس يدينون بها وهي عبادة انثوية فأراد بطرس نقضها بتحويلها إلى عبادة ذكورية وجعل النساء يسجدن للرجال.

حديث تقبيل النبيّ يد الفلاّح

و كان من الطبيعي أن يقابل النبيُّ صحابته بمثل ما كانوا يقابلونه به من التقبيل فكان يقبلهم وبالخصوص عندما يعودون من سفرٍ طويل فذكر أن جعفر بن أبي طالب لما قدم من أرض الحبشة تلقاه رسول الله فقبَّلَ ما بين عينيه، فخجلَ جعفر. فقال له النبيّ: ماهذا؟ قال له: إن النجاشيَّ إذا كرَّم احداً من أهل مملكته فعل هذا[3].

و كان (ص) يقبل اصحابه في حالِ موتهم. فعن عائشة قالت: "رأيت

١. ينظر/ الإنجيل/ الرسالة إلى مؤمني إفسُس. وإفسُس مدينة شيدت في آسيا الصغرى (تركيا) كان أهلها يعبدون الألاهة (أرتميس) وكان بها هيكل لها عند جاءها بولس الرسول سنة ٥٤ م و هي الآن خراب.

٢. دائرةمعارف بطرس البستاني/ مادة (زيجة).

٣. القبل والمعانقة/ المصدر السابق/ ٢٣.

رسول الله قبّلَ ابن مظعون بين عينيه - وهو ميت - حتى رأيت الدموع تجري على خدّه[1].

أما تقبيله أيدي صحابته فلم يؤثر عنه عدا ما جاء في حديثٍ بخصوصية ذات دلالة. حيث ذكر أنه (ص) لما أقبل من غزوة تبوك استقبله سعدٌ الأنصاري، فصافحه (ص) ونظر إلى يده فشاهد شيئاً أكتبها (أي أثَّرَ فيها) فقال له:ماهذا الذي أكتبَ يدك؟ قال: يارسول الله اضربُ بالمَرِّ والمسحاة فانفقه على عيالي. فقبّل رسول الله يَدَه وقال: هذه يدٌ لا تمسسها النار[2].

و سعدٌ الأنصاري هذا ذكره اليعقوبي في الصحابة وسمّاه سعد بن معاذ الأنصاري وهو غير سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس سيد الأوس. والحديث لم يتفق عليه لضعفٍ في اسناده[3]. ولكنه إذا ثبت فإنه يشير إلى تقدير النبيّ منزلة من يضربُ بالمرّ والمسحاة وهو الفلاح أو تثمينه لمن يعمل جاهداً لكسب رزقه وعياله. وإذا لم يثبت فإنّ دلالته واضحة على وجود الصراع الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار. فقد كان الأنصار أهل نخلٍ وزراعة ومنهم من كان أكّاراً يعمل في هذا المجال فيبدو أنهم هُجُو بذلك فوضع الحديث لرفع منزلتهم الاجتماعية.

إن تحقير الأنصار وهجوهم بهذه المهنة وقع عليهم منذ أن ارتبطوا بالأرض وتركوا (مهنة البداوة) القائمة على الغزو والنهب والسلب في الحروب. وقد توضّح هذا في قصيدة قالها فيهم (الأخطل) وهو من قبيلة تغلب المحاربة الشرسة هجا بها غريمه حسان بن ثابت الأنصاري، فوصف قومه بني النجار بأنهم يهود يعصرون الخمر وأكارون يحملون

---

١. م. ن./ ٢٠.

٢. أسد الغابة/ ابن الأثير/ ٢/ ٢٣.

٣. ينظر/ الأصابة/ العسقلاني/ الترجمة رقم (٣٢٠٥).

مساحيهم ويبعيدون عن المكارم واللؤم تحت عمائمهم. وعند القتال يعرف الفوارسُ ظهورهم ولا يعرفون وجوههم لأنهم يفرّون في ساحة الحرب. اسمعه يقول:

لعَنَ الالاه بني اليهود عصابةً	بالجزع بين جلاجلٍ وصِرارِ
قومٌ إذا هَدَر العصير رأيتهم	حمراً عيونُهم كجمرِ النارِ
ذهبت قريش بالمكارم والعُلا	واللؤم تحت عمائم الأنصارِ
فذروا المعالي لستمُ من أهلها	وخُذوا مساحيكم بني النجّارِ
إن الفوارسَ يعرفون ظهوركم	أولادَ كلِّ مُقَبَّحٍ أكّارِ
وإذا نسبت (ابن الفريعة) خلته	كالجحش بين حمارة وحمارِ[1]

و ابن الفريعة هو حسان بن ثابت.

تقبيل اليد التي لامست كفَّ النبيّ

ثم لما توفي النبيُّ (ص) صار الصحابة والتابعون ينظرون إلى من مسَّ كفَّ النبيّ أو بايعه نظرة احترامٍ وتعظيمٍ إعتقاداً منهم إن بركة النبيّ انتقلت إليهم فكانوا يقومون بتقبيل أياديهم. جاء ذلك في حديث عبد الرحمن بن زيد قال: دخلنا على سَلَمةَ ابن الأكوع نعودُه، فأخرج الينا يَدَه ضخمةً كأنها خفُّ بعير فقال: إني بايعتُ رسول الله بيدي هذه. قال: فأخذناها وقبّلناها[2].

و في حديث (حَبَّان أبي النَّضر) قال: قال لي (واثلةُ بن الأسقع) قُدني إلى يزيد بن الأسود فإنه قد بلغني أنّ ألماً به فقدته (وكان ضريراً). فلما دخل عليه قال: نادوه. فقلت: هذا أخوك واثلة. فلما سمع أن واثلة قد جاءه رأيته

---

١. أسد الغابة/ المصدر السابق/ ٣/ ٢٩٦.

٢. القُبل والمعانقة/ المصدر السابق/ ٢٢.

يلتمسُ بيده فعرفت ما يريد فأخذتُ كفّ واثلة فجعلتها في يده، قال: فجعل يقلِّب كفّه ويضعها مرّةً على فؤاده ومرّةً على وجهه وعلى فيه، وإنما أراد أن يضعَ يده موضع يد واثلة من رسول الله (ص)[1].

و واثلةُ هذا من مساكين أهل (الصّفَةِ) وروى عن النبيٍّ وهو آخر من مات بدمشق من الصحابة[2].

و لم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل تعدّى إلى اعتبار اولئك المتماسين مع النبيّ يختزنون في شخصياتهم قدسيةَ النبيّ بحيثُ إذا مَسّوا شيئاً أصبح هذا الممسوس مقدساً كذلك، فقد جاء عن ثابت: "إن (أَنَسَاً) دفع إلى أبي الغالية تفاحةً فجعلها في كفّه وجَعَل يمسحها ويقبّلها ويمسحها بوجهه وقال: تفاحةٌ مسَّت كفّاً مسَّ كف النبي[3].

تقبيل الصحابة أيادي بعضهم

و كان من تمام توثيق الأُخوة بين الصحابة تقبيل أيادي بعضهم بعضاً. ولم يكن ينظر إلى هذه الممارسة بغضاضة أو كانت بدلالة التمايز الاجتماعي بل اعتبرت سُنَّةً من السنن الأسلامية. فقد ذكر أنه لما قدم عمر – الشام تلقاه أبو عبيدة فقبَّل يده، فكانوا يرونها سُنَّة[4].

و في حديثِ عاصم بن بهدلةَ قال: ما قدمت على أبي وائل قط من سفرٍ إلا قبَّل يدي.

و هناك أحاديث كثيرة تدلُّ على شيوع هذه الممارسة بين الصحابة، منها حديث عن طلحة أنه "قبَّل يَدَ خيثمة". قال مالك: وقبّل طلحة يدي.

---

١. ن. م./ ٢٢.

٢. الإصابة/ الترجمة رقم/ ٩٠٨٧.

٣. القبل والمعانقة/ المصدر السابق/ ٢٢.

٤. القبل والعانقة/ المصدر السابق/ س١٥.

وعن حسين الجعفي قوله: ربما فعله لي سفيان بن عيينه، يعني قبَّل يده.

وفي حديث آخر عن مالك بن مغول قال: رأيتُ خيثمة قبّل يد طلحة بن مصرف. وقال طلحة: دخلتُ على خيثمة فقبّل يدي وقبّلتُ يده.

و هكذا لم يكن المسلمون الأوائل يرون بأساً في ممارسة تقبيل اليد حيث لم يكن يبغون من ورائها أيَّ غرضٍ من أغراض الدنيا. فقال (وكيع): إنها صَلُحت حيث قُبلت للآخرة وأنها فسدت حين قبلت للدنيا. وقال معاذ: لا يصلح تقبيل اليد إلا للأمام العادل والوالدين[1].

و قد جاء ذكر (المصافحة) كبديل عن تقبيل اليد. ففي حديث عن الحسين بن علي – قال: قال رسول الله (ص): "تقبيلُ المسلم يدَ أخيه المصافحة"[2].

و المصافحة من صفح الكفّ بالكف وإقبال الوجه بالوجه وهي سُنّة عند التلاقي حسب الاحاديث الصحيحة واجماع الأمة كما يقول النووي فقد جاء عن قتادة قال : قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله؟ قال: نعم[3].

و هناك احاديث تحثُ عليها منها الحديث: ما من مُسلِمَين يتلاقيان فيتصافحان إلاّ غُفِرَ لهما قبل أن يتفرقا[4]. وعنه (ص): إذا تلاقى الرجلان فتصافحا تحاتَّت ذنوبهما وكان أقربهما إلى الله أكثرهما بُشراً[5]. وعن الشعبي: إن أصحاب رسول الله (ص) كانوا إذا التقوا تصافحوا وإذا قدموا من سفر تعانقوا.

ونسمع في قواعد اصول المصافحة مصطلحاً يقول: إن المصافحة تكون

---

١. م.ن./ ١٦.

٢. م. ن./ المصدر السابق/ ١٧.

٣. المجموع/ النووي/ ٤/ ٦٣٣.

٤. م. ن./ ٦٣٥.

٥. القواعد والفوائد/ الشهيد الأول/ ٢/ ١٦٢.

في (دور نخلةٍ) أو (دَور شجرةٍ) ومعناه أن المؤمنين إذا توارى أحدهما عن صاحبه بشجرةٍ ثم التقيا عليهما أن يتصافحا. قال أبو جعفر كان المسلمون إذا غزوا مع رسول الله (ص) ومَرّوا بمكانٍ كثير الشجر ثم خرجوا إلى الفضاء ونظر بعضهم إلى بعضٍ تصافحوا[1].

و كانت المصافحة تجري عند توثيق عقود النكاح. قال (ص): إن المصافحة في النكاح يُمْنٌ وهي كالبيعة.

و كانت البيعة على عهد رسول الله تتم بالمصافحة وتجري كذلك في البيوع. وهي من الوسائل التي استخدمتها الشعوب قديماً لأتمام الصفقات التجارية. فإذا (صفقَ) البائع والمشتري على يدي بعضهما كان ذلك دالاً على إقرار البيع ولا يجوز بعد(الصفق) النّكال أو الرفض. ومن ذلك جاء مصطلح (الصفقة التجارية).

واستمرت هذه العادة على جريانها في المعاملات التجارية الشفوية حتى أصبحت كلمة (Hand sale) مع الزمن تَدلُّ على ثمن البضاعة أو العربون الذي يدفع حالما يتصافح البائع والمشتري تأكيداً للقبول المتبادل وانعقاد (الصفقة)[2].

وعلى اساس هذه المعاني جرت المصافحة بين المسلمين وغير المسلمين من شعوب العالم توثيقاً للأخوة.

---

١. الكافي/ الكليني/ ٢/ ١٧٩.

٢. المعجم القانوني/ حارث سليمان الفاروقي/ ١/ ٣٢٨.

البـاب الحـادي عشر

تقبيل المقدّسين

- الأئمة
- السادة
- بَزر السادة
- تقبيل عمامة السيّد
- تقديس السلاطين للسادة
- الأسود لا تفترس السادة
- السيّد يحيي الموتى
- ممارسة الجنس في أضرحة السادة
- السيد (ابو السعود) صانع أعضاء الذكورة
- البحثُ عن سيد معبود
- (جنكيزخان) سيداً
- الملوك السادة
- العلماء وآيين تقبيلهم

الأئمة

في حديث مرويٍّ عن الأمام الصادق (ع) أنه قال: "لا يُقبِّلُ رأس أحد ولا يده إلا رسول الله (ص) أو من أُريدَ به رسول الله" وقد فُسِّر قوله: "أو من أُريد به رسول الله" هم الأئمة وأولادهم ثم العلماء على الخلاف.

وقال بعض المحققين: إن شمول الحكم للعلماء لإنهم ورثة الأنبياء فلا يبعد دخولهم فيمن يراد به رسول الله[١].

و على أساس هذا التفسير يمكن القول إن تقبيل الأئمة والمنتسبين إليهم من ذريتهم وهم (السادة) ويتبعهم العلماء إنما يراد به التعويض عن تقبيل الرسول نفسه وليس المرادُ به شيئاً آخر.

و كان الإمام عليٌّ وهو أولُ الأئمة يُحيّى بالتقبيل. فروي أن (أبا ذرّ) عندما نفاه عثمان إلى (الرّبذة) سار وشيّعه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر. فلما رأى أبو ذر علياً قادماً قام إليه فقبّل يده وبكى[٢].

و شوهد سُليم الكوفيّ يقبّل رأس الإمام عليّ. وقبّل (عَباية) يديه. وذكر أن (كُميلاً) قبَّلَ قدمي أمير المؤمنين عليّ.

و دخل جابر بن عبد الله الأنصاري بعدما كُفَّ بَصَرُه على عليٍّ بن الحسين السجّاد (عليهم السلام) فقَبَّل يده ثم أهوى إلى رِجله فتنحّى عنه[٣].

و كان الإمام المنصوص عليه بالإمامةِ – حسب معتقدات الإمامية – يحظى بمنزلةٍ أعلى من سواه في أهل بيته حتى من الذين هم أكبر منه سِنّاً

١. مستدرك سفينة البحار/ علي النمازي/ ٨/ ٣٩٩.

٢. الغدير/ الأميني/ ٨/ ٢٩٩.

٣. القابُ رسول الله وعترته/ جماعة/ المؤرخين/ ٥٥.

فكان شيوخهم يقومون بتقبيل يده إحتراماً منهم لأمر النص.

ففي خبرٍ رواه الكليني بسنده عن محمد بن الحسن بن عمار قال: كنتُ مع عليّ بن جعفر بن محمد جالساً بالمدينة إذ دخل عليه أبو جعفر محمد بن عليّ الرضا عليهم السلام المسجد فوثب علي بن جعفر بلا حذاء ولا رداء فقبّل يده وعظّمه. فقال له أبو جعفر (ع): يا عم، إجلس رحمك الله. فقال: ياسيدي كيفَ أجلسُ وأنت قائم؟ فلما رجع عليٌّ بن جعفر إلى مجلسه جَعَل أصحابه يوبّخونه ويقولون: أنتَ عمُّ أبيه وأنت تفعل به هذا؟ فقال: اسكتوا، إذا كان الله عزَّ وجلّ لم يؤهِّل هذه الشيبة – وقبضَ على لحيته – وأهّلَ هذا الفتى ووضَعَهُ حيث وضَعَه أأُنكرُ فضله؟ نعوذُ بالله مما تقولون، بل أنا عبدٌ له[1].

و قد سار عامة الناس صغيرهم وكبيرهم على هذه السُنّةِ فيروي معاويةُ بن وهب قائلاً: كنتُ جالساً عند جعفر بن محمد عليه السلام إذ جاء شيخٌ قد إنحنى ظهرُه فقال: السلامُ عليك ورحمة الله وبركاته. فقال أبو عبد الله جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ياشيخ أُدنُ مني. فدنا منه الشيخ وقبّل يده، وبكى[2].

و كانت الأمكنة والمواضع التي تؤوي الإمام أو التي يجلسُ فيها تقدَّس أيضاً. فكانت تقبّلُ ويتمسّح بها. فذكر أن (أم سلمة) زوجة عليٍّ بن عبد الله بن الحسين لما دخل الإمام الرضا بيت زوجها عائداً جعلت تنظرُ إليه فلما خَرَجَ صلوات الله عليه إنكبَّت على موضع جلوس الرضا تقبِّلُهُ وتتمسَّح به[3].

و كانت أشياءُ الإمام وعائداته تقبّل كذلك فذُكر أن أحد الأتراك قبَّلَ حافر

---

١. مسائل عليّ بن جعفر/ عليّ بن جعفر الصادق/ ٢٣.

٢. الأمالي/ الشيخ الطوسي/ ٦١.

٣. مستدرك سفينة البحار/ المصدر السابق/ ٨/ ٣٩٣

دابةِ الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام وهو راكبٌ على الدابّة. وجاء أن الخليفة المهدي العباسي قبّلَ كتاب الإمام الكاظم عليه السلام[1].

و قال صفوان بن يحيى سألني (أبو قُرَّةَ) صاحب (الجاثليق)[2] أن أوصِله إلى الإمام الرضا فاستأذنته في ذلك فقال: أدخله عليَّ. فلما وصَلَ إليه قبَّل بساطه وقال: هكذا عُلّمنا أن نفعَلَ بأشراف زماننا[3].

و كان التقبيل يجري على مواضع مختلفة من جسد الإمام فذكر أن أبا هاشم الجعفري قبّل وجه الحسن العسكري وقبل جابر رأس الباقر وقبّل صدره[4]. وهناك روايات كثيرة بهذا الشأن أصفحنا عن ذكرها تجنباً للإطالة.

السادة

يطلق العراقيون كلمة (السيد) على المنتسب دماً إلى آل رسول الله (ص) وتقابلها لفظة (الشريف) كذلك. كالشريف المرتضى والشريف الرضي محمد بن الحسين الذي ولي نقابة الأشراف في العصر العباسي ببغداد. وفي مصر تطلق كلمة (السيد) أيضاً على المنتسب دماً إلى النبي (ص) دون النظر إن كان حسنياً أو حسينياً كالسيد أحمد البدوي الحسني والسيد أحمد عرابي باشا الحسيني الزعيم الوطني المعروف في تاريخ مصر وأصله من سادة البطائح جنوب العراق. وكذلك تستعمل لفظة (الشريف) كإستعمال العراقيين لها.

و تشير لفظة (السيد) إلى قدسية الموصوف بها فهي من الالفاظ

---

١. م.ن./ ٣٩٤.

٢. الجاثليق والجثليق: متقدم الأساقفة وجمعها: جثالقة من اليونانية (Catholics).

٣. وسائل الشيعة/ ١٢/ ٢٢٨.

٤. م.ن.

التاريخية القديمة التي اختصت بالآلهة أو إلألاه الواحد (الرب). ففي العهد القديم (التوراة) ترادف كلمة (سيدي) في المعنى كلمة (ربّي) وكان يشار بها كذلك إلى (المعلم الديني) ومعناها كمعنى (حاخام) تقريباً[1]. وكان اليهود يطلقون كلمة (سيّد) على الرب[2].

و اختصت الكلمة في الانجيل بالنبيّ عيسى (ع)، يسوع المسيح فهو (السيّد) أي (الربّ). وقالوا: السيد المسيح ومعناها (الرب). وكان بطرس يناديه بلفظ الجلالة قائلاً: ياسيد. وعندما دخل عليه يهوذا الخائن اثناء ما كان يتناول (العشاء الأخير) مع حوارييه، قال: سلامٌ يا سيدي ثم قبّلَهُ[3] وكانت تلك القبلة كإشارة لأعدائه بتعيين شخصه فقبضوا عليه وساقوه إلى الصليب.

و ترددت كلمة (السيد) في كلام العرب القدماء لتعظيم الشخص الشريف الذي يقوم بحلِّ المشكلات بين القبائل وجاءت في قول زهير بن أبي سُلمى يمدح بها هرم بن سنان والحارث بن عوف الذين أطفئا الحرب بين عبس وذبيان بتحمّلهما ديات القتلى فقال:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طاف حوله   رجالٌ بنوه من قريش وجرهمِ
يميناً لنعم (السيدان) وجدتما   على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبرمِ[4]

و في اللغة (السيّد): الذي فاق غيره بالفعلِ والمال والدفع والنفع، المعطي ماله في حقوقه، المعينُ بنفسه. قال (الفرّاء): السيد: الملكُ[5]. وهذا المعنى له

---

١. الحاخام: الحبر عند اليهود وتقابل الـ(Rabbi) ومعناها (معلمي) وهو لقب يعطى لمعلم كبر يركن إليه في المجال الديني.

٢. قاموس الكتاب المقدس/ بوست/ ١/ ٥٨٩.

٣. إنجل متّى/ ٢٦/ ٤٧ وما بعدها.

٤. ينظر/ شرح المعلقات التسع المشهورات للنحاس/ تحقيق أحمد خطاب/ ١/ ٣٦٨. والسحيل: الحبل الذي لم يُحسَن برمه. والمبرَم: الذي أحكم برمه.

٥. تاج العروس/ مادة: سَيَد.

تاريخ قديم أيضاً حيثُ كان بنو اسرائيل يطلقونه على بعض الملوك مثل الملك (بازِق) فقالوا: ادوني بازِق أي السيد بازق أو سيدي بازق. والملك (صادق) فقالوا: ادوني صادق أي السيد صادق أو سيدي صادق[1].

و كلمة (ادوني) من الكلمات الساميّة التي تعني (السيد) واطلقت على الالاه (أدونيس) وهــي بــالأصل لــقب مــن الــقــاب إلالاه تموز إلاه وادي الرافدين[2].

و في الاسلام تطلق كلمة (السيد) على الله تعالى. ففي حديثه (ص) لرجل قال له: أنت سيد قريش. قال (ص): السيّدُ الله. ومنه الحديث لما قالوا له: أنت سيدنا. قال: قولوا بقولكم: أي ادعوني نبياً رسولاً كما سمّاني الله ولا تسموني سيداً كما تسمون رؤساكم فإني لستُ كأحدهم ممن سوّدكم في اسباب الدنيا. وكان العرب يطلقون كلمة (السيد) على رؤسائهم[3].

و تطلق كلمة السيد كذلك على (ربّ البيت) أي (الزوج) ففي حديث عائشة: أن إمرأة سألتها عن الخضاب فقالت: كان (سيدي) رسول الله (ص) يكره رائحته. فأرادت معنى الزوج. ومنه قوله تعالى:" وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ" (يوسف/ ٢٥): أي زوجها. وفي حديث أُمّ الدرداء قالت: حدثني سيدي أبو الدرداء. أي زوجي.

و هكذا حملت الكلمة معنى: الرب والله والملك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومتحمّل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدّم[4].

و على أساس تلك المعاني السامية أطلقت لفظة (السيّد) على المتعلق نسباً بالنبي عن طريق أهل بيته المخصوصين فأصبح بذلك حرماً مقدساً

---

١. قاموس الكتاب المقدس/ المصدر السابق/ ١/ ٥٤.

٢. معجم الفولكلور/ عبد الحميد يونس/ مادة أدونيس.

٣. النهاية في غريب الحدث والأثر/ ابن الأثير/ ٢/ ٤١٧.

٤. م. ن./ ٤١٨.

ينظر إليه بامتياز على سائر الناس وقد انقسم المجتمع إلى طبقتين: طبقة السادة وطبقة العوام جمع)عامّي) وقالوا: هذا رجلٌ عامي يقصدون أنه ليس من السادة.

يقول عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي: وللسادة بين القبائل الشيعية في العراق امتيازات ومنزلة رفيعة جداً قد لا نجد ما يقاربها في الاقطار الاسلامية الأخرى، فالسيد في القبائل العراقية له حق (الخُمس) في الحاصلات الزراعية وهو يطالبُ به من غير توسّل واستجداء وهو يسميه (حقُ جدي) يقصد رسول الله (ص). وإذا اشتهر أحد السادة بقوة (شارته) (كرامته) ازدادت منزلته ارتفاعاً بين القبائل فحلفوا باسمه وتبرّكوا بدعائه ونذروا له النذور الوفيرة. وإذا تمرّض أحدهم ذهب إلى السيد وأخذ منه خيطاً أخضر فشدَّه على رسغه لينال به الشفاء[1].

أقول: إن الإيمان بقدرة (خيط السيّد) على شفاء الأمراض معروفة عندنا في محيط مدينتنا كربلاء. ولايهم أن يكون هذا السيد شيعياً أو سنياً المهم أن يكون (سيداً) وحسب. واذكر من طفولتي أن الوالدة يرحمها الله كانت إذا أصاب المرض أحد إخوتي، تأتي بخيط من القطن الأبيض وتطلب مني أن أذهب إلى (جامع السنّة) الموجود الآن في محلة العباسية الغربية، لكي يعقده إمامُ الجامع المرحوم (السيد هاشم الخطيب). فكنت آخذ الخيط وأقف عند باب الجامع فأرى عدداً من الأطفال بيدهم الخيوط مثلي، فيأتي خادم الجامع المرحوم (زينل) (زين العابدين) فيأخذ منا الخيوط ويقدمها للإمام بعد أن يفرغ من الخطبة. فكنت أرى الأمام وهو على المنبر يستلم الخيوط ويعقد كلَّ واحد منها عدّة عقد لا أدري عددها وربما كانت سبعاً ثم يعطيها إلى الخادم الذي يوزعها علينا فآخذ خيطي وأذهب به إلى البيت فتشدّه الوالدة على رسغ أخي المريض. وعندما يشفى كانت تقول: إن

---

١. كتابه/ دراسه في طبيعة المجتمع العراقي/ ٢٤٦.

الشفاء حصل من بركة خيط السيد.

و يحدثنا الدكتور شاكر مصطفى سليم – عالم الانثروبولوجيا العراقي – عن منزلة السادة في قرية (الچبايش) فيقول: وينظر أهل الچبايش كما يفعل بقية شيعة العراق إلى السادة كرجال مقدسين يجب أن يوضعوا فوق بقية البشر كافة. فما داموا أولاد رسول الله فإن احترامهم وتقديسهم واجب ديني. ويقسم أهل الچبايش الإيمان بالسادة وخاصة بعدد قليل منهم معروفين بتقواهم وورعهم. ومن المفضل في حالات ارسال وفد لخطوبة فتاة أو لفصل قضيّة أو تسوية خلاف أو في ارسال وفد (مشيةٍ) لتطييب خاطر شخصٍ متألم أو غضبان، أن يترأس هذا الوفد (سيد) لأنه لا يُردُّ إذا طلب شيئاً. ويجلس السادة في مكان الصدارة في المضايف ويعطون الأفضلية والأسبقية أينما ذهبوا أو حلّوا.

و يعقّبُ (الوردي) على هذا بقوله: يبدو أن السيد بين القبائل يشبه أن يكون (مصوناً غير مسؤول) فهو يستطيع أن يصفع أو يعتدي على أي رجلٍ ريفي مهما كانت مكانته الاجتماعية والرجل لا يجوز له أن يغضب أو يردّ على السيد بما لا يليق[1].

و ليس أدلَّ على القداسة التي يتمتَّع بها السيّد بين الناس من كونه يتميز عنهم بما يعادل أربعة منهم. ففي الأعراف العشائرية في العراق الخاصة بالديات نجد أن دية السيد في حال مقتله تعادل أربع ديات من القتلى العاديين. يقول الباحث عبد الحميد التكريتي في (جمهرة الأمثال البغدادية) أن من يقتل علوياً يلتزم بأَداء أربع ديات ويحكم بجلاء القاتل عن ديرته زمناً يحدّد وفقاً لنوع الجريمة ودوافعها.

---

١. م.ن./ ٢٤٧.

بَزر السادة

و قد اعتدت أن اسمع الأغنية التالية من أم عراقية تغنيها لطفلها وهي ترقصه قائلةً:

بَعَدْ هلِي وهلَ هَلي	و(سيد علي) لَغْ
عَبنْهُم ســاده	يِشَوْرُون بسَـعْ

ومعناها:

فداءٌ لك أهلي وأهل أهلي و(سيد علي) لَغْ: أي ليس معهم قطعاً. (عبنهم) لأنهم سادة (يشورون) ينتقمون (بسَعْ) بسرعة وبالساعة.

وتشير هذه الأغنية إلى خوف الناس من أنباء السادة وحذرهم منهم لأنهم إذا ما اعتديَ عليهم فإن (شارةَ) علامة انتقامهم تتحققُ على المعتدي فوراً.

لذلك يولون أبناء السادة عناية كبيرة وتقديراً عظيماً ويفضلونهم على أبنائهم.

و من تقاليد ذلك التقدير أنه إذا خطب أحدهم بنتاً فإن أهل البنت يفخرون بذلك ويعتبرونه تكريماً لهم فيزوجونها منه حتى لو كان معدماً لا يملك شيئاً.

و اعتاد البعض أن ينذر ابنته لسيّد منذ ولادتها فإذا تقدّم إليها خاطب عاميّ اعتذروا إليه وقالوا إنها (منذورة). والنذر هذا قديم الجذر يعود إلى زمنٍ كان الناس خلاله ينذرون بناتهم منذ صغرهن للآلهة أو لمن ينوب عنهم من كهنة المعابد.

و قد تهدى البنت للسيد عن طريق (الهبة) ولا يهمّ إذا كان السيد متزوجاً. وليس من اللائق بالسيد أن يرد الهبة فكان ربما يتزوجها على زوجته أو

يطلقها إذا لم ترضَ زوجته الأولى بذلك.

و في بعض الحالات كان السيد يتفق مع والد الفتاة على التنازل عنها لقاء مبلغ يتراضى عليه الإثنان[1].

و أعرف رجلاً وهبَ بنته لسيّد فيه لوثَةٌ من جنون فأولدها أبناء متخلفين فلما لمته على جنايته تبسَّم قائلاً: المهمُّ أنني حصلت على (بزرٍ) من ابن رسول الله. و(البزر) عند العراقيين معناه الذرية والاولاد. فيقولون (بزر حرام) إذا كان الاولاد سيئين و(بزر حلال) إذا كان الاولاد صالحين. واللفظة من الفصيح حيث (البزر) في القواميس معناه (الولد) فيقال: ما أكثر بزره أي ولده[2]. ويقابله في الانكليزية (Seed) ومعناه الذريّة والولد أيضاً.

كما أنه ليس منقصة من السيد أن يتصف بالجنون فذلك من طبعه لأن (رأسه حار) كما يعبَّرُ عنه شعبياً. يثور وينفعل لأتفه الاسباب فأصبح من المعروف عن السادة أنهم من أولي الغضب السريع والمزاج الحادّ ومن هذا جاء في الامثال الشعبية: "السيّد بلا جنون كالعنْزَة بلا قرون"[3].

و نظراً لهذه الطبيعة يطلق بعض العراقيين على السيّد لفظة (بيذنجانة). وهي الثمرة المعروفة بالباذنجان لأنه يشبهها في المظهر والطبع. فطبعه حادٌّ وكذلك طبعها، ومظهره بجُبَّته السوداء وعمامته الخضراء يشبهها أيضاً.

و من تقاليد الناس عندنا أنهم إذا عَزَّ عليهم إنجاب الذكر طلبوه من

---

١. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ المصدر السابق/ ٢١٤.

٢. ينظر/ تاج العروس مادة (بَزَر) وفيها: البزر لفظة تطلق على الحبوب بعامة، تفتح الباء وتكسر واستعير للولد فقالوا مأكثر بزره: أى ولده. ومنه: هو مبزور أي كثير الولد والمرأة مبزورة.

٣. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ المصدر السابق/ ٢٤٧.

السادة بالتوسّل بهم سواءً أكانوا أحياءً أم أمواتاً لإعتقادهم بقدرتهم على تحقيق ذلك. فإذا جاء الولد نذروه لهم عبداً بالتسمية فيسمونه (عبد السادة) إو (عبد السيد). وهذا التقليد قديمٌ يعودُ إلى نذور الناس أولادهم عبيداً للآلهة وكانوا في الجاهلية يسمونهم (عبد العزى) أو (عبد مناة) أو (عبد اللات) وعندما جاء الإسلام أبطل تلك التسميات.

تقبيل عمامةُ السيّد

يروي المرحوم عبود الشالجي المحامي في (موسوعة الكنايات البغدادية) أن المرحوم السيد أحمد جمال الدين حدّثهُ بأنه كان يتنقّل بين قرى الجنوب في سفينة فهاجم اللصوص السفينة وصعدوا إليها يسلبون الركاب. وتقدم أحدهم من السيد وأكبَّ على عمامته وقبّلها ثم وضعها جانبا، فاستبشر السيد خيراً ولكنه فوجئ باللّص يقوم بسلبه فلما انتهى أخذ العمامة وقبلها ثانيةً ثم أعادها على رأس السيد ومضى إلى حالِ سبيله.

و ينبيك هذا الخبر عن مدى تقديس الناس عمامة السيد حيث اعتادوا القسم بها ولمسها تبركاً وتقبيلها لاعتبار أنها تمثل (تاج رسول الله) ولا يختلف في هذا الأعتقاد أحد حتى الخارج عن لوازم الدين واعراف المجتمع. فهذا اللّص الذي لم يتورع عن استلاب السيد وهو يعلم أنه ابن رسول الله، تورع عن استلاب عمامته، والظاهر أنها عنده أعظم قدسية من السيد نفسه. فالسيد يمكن أن يسلب من كلٍّ ما يملك ولكن عمامته لا يجوز أن تسلب، فلذلك كرمها بالتقبيل ونحّاها جانباً حتى لاتهان ولما انتهى من العملية اعادها إلى موضعها من رأسه بعد أن قبلها ثانيةً. ولعلّه كان يبغي من وراء هذا مرضاة الله ورسوله وربما رجا أن تشفع له لدى رسول الله يوم القيامة.

و يسيرُ بيننا قسمٌ هو قول الناس: (وحقِ تاج رسول الله) يقصدون العمامة. وإذا جرى القسم أمام السيد قالوا: (وحق هذا التاج) واشاروا إلى عمامته.

و جاء في النصوص المأثورة أن العمامة تاج رسول الله كان يتعمّم بعدة عمائم وكانت أحدى عمائمه تسمّى (السَّحاب) سميت بذلك تفاؤلاً بالسحاب الماطر: وإنه (ص) وهبها للإمام عليٍ (ع)[1]. وكان عليّ يطلع فيها فإذا رآه النبيّ قال: أتاكم عليٌّ في السحاب[2]. وذكر أنه عَمَّمهُ بها يوم (غدير خمّ) وكان لونها أسود. وقال (ص): إن الله أمدّني يوم بدر وحُنين بملائكة يعتمّون بهذه العِمّة.

و تشير الأحاديث إلى أنه (ص) كان يعتمُّ بالعمائم السود ولذلك لبس السادة العمائم السود[3]. ثم تحوّل لون العمامة إلى الأخضر منذ أن بايع المأمون عليّاً بن موسى الرضا ولاية العهد وأمر بلبس الخضرة بدلاً من السواد. وكان السواد شعار العباسيين.

و منذ أن جعلت العمائم وسيلة لتمييز مراتب الناس ووظائفهم ومواقعهم الاجتماعية في الدولة العباسية تميّز الشريف أو السيد بلبس العمامة الخضراء[4].

و في زمن الدولة العثمانية أعطي أمر الأشراف عليها إلى (نقيب الأشراف) الموجود في (أستامبول) فكان هو الذي يصدر (الفَرمان) أي (المرسوم) بتعيين الشريف في الولايات. ولا يَسْمَحُ فيه لأحد بوضع العمامة الخضراء إلا إذا كان من الأشراف. وقد تقرَّر أن يضعها على رأس

---

١. النهاية في غريب الحديث والأثر/ المصدر السابق/ ٢/ ١٦٠.

٢. الغدير/ أميني١/ ٢٩٢.

٣. ينظر/ اللباس والزينة من السنة المطهرة/ محمد عبد الحكيم القاضي/ ١٢٤.

٤. مقاتل الطالبيين/ الاصبهاني/ ٣٧٦.

أكبر الأسرة سِناً. ومن بعد وفاته تعطى للأكبر بعده ثم الأكبر وهكذا.

و ينقل لنا الباحث (نمر سرحان) ترجمة لفرمان عن اللغة التركية صادر من سيادة نقيب الأشراف العام في استامبول بتعيين قائمقام نقيب الأشراف في مركز نقابة نابلس يقول فيه: "مفخر السادات، عمدة أصحاب السعادات، السيد عمر الأحزمي دام شريف سيادته. غبَّ التحية نُنهي إليكم تعينكم من طرفنا قائمقاماً على السادات المحترمين في صيدا وبيروت ونابلس وبعلبك. فواجبكم إعزاز واحترام من ينتمون إلى السلالة النبوية الطاهرة وبيدهم أنسابٌ ظاهرة، وزَجر ومنع من يضعون العمائم الخضراء بلا نسبٍ ظاهر وكل من يدعي النسب، عليكم إحالته لطرفنا لتأديبه مع حماية الأشراف من أيِّ مداخلةٍ أو تعدّي أو تعجيزٍ من الحكام وأن لا يكلّفوا بدفع قرشٍ واحدٍ. وعليكم صيانة أعراضهم وحقوقهم وأموالهم وحمايتهم من كلِّ أذى بكلّ الوسائل إكراماً لخاطرِ سيد الأنام عليه السلام"

حُرِّر في اليوم الثاني والعشرين

من جمادي الآخرة لسنة إحدى

وأربعين ومائة وألف.

موقّع

نقيب الأشراف زين العابدين[1]

و لم تلبث هذه الأمتيازات حتى ألغيت عندما حصل الإنقلاب العثماني وسيطرة الاتحاديين على الحكم فقام أصحاب الطرق الصوفية وخاصة الرفاعية يلبسون العمامة الخضراء وذلك لأن مؤسس طريقتهم سيدٌ حسني وبذلك أصبح لا يعرف السيد الحسني الحقيقي من الدرويش المتصوف[2].

---

١. موسوعة الفولكلور الفلسطيني/ نمر سرحان/ ١/ ٤٤.

٢. م.ن./ ١/ ٣٨.

أما في مصر فإن أول من ميّزَ السادة بنوع خاص من اللباس هو السلطان الملك الأشرف الثاني صاحب مصر والشام، فإنه رسَمَ سنة ١٧٧٣م أن يَسِمَ الأشراف في مصر والشام عمائمهم بعلامة خضراء إجلالاً لحقهم. وقام الدراويش السعدية فجعلوا عمائمهم وأعلامهم خضراً. بينما اتخذ الرفاعيون اللون الأسود علماً لهم ولعمائمهم. وهذا هو قول المؤرخ أحمد أمين[١].

أما في العراق فإن السادة اتخذوا لعمائمهم اللونين معاً الأخضر والأسود واتخذ سواهم اللون الأبيض وهم الشيوخ. وتعتبر عمامة الشيخ أقل قدسية من عمامة السيد وقد يهينها صاحبها في حضرة السيد تواضعاً له كما فعل ذلك شيخ الأمامية الأكبر (جعفر كاشف الغطاء) فإنه مع ما هو عليه من الجلالة والزهد كان يمسح بحنك عمامته تراب خفٍّ السيد محمد مهدي بحر العلوم[٢]. وقد ذكر أن الشيخ كاشف الغطاء كان يجعل تحت حنك عمامته شيئاً من غبار نعلي السيد المذكور تبركاً بذلك الغبار[٣].

تقديس السلاطين للسادة

كان ركنُ الدين الملك الظاهر بيبرس العلائي سلطان مصر والشام (سنة ٦٥٨هـ) قد خلَّدَ اسمه بلقب (الملك القاهر أبي الفتوحات).وكان شجاعاً جباراً يباشر الحروبَ بنفسه، وله الوقائع الهائلة مع التتار والافرنج والصليبيين. وله الفتوحات العظيمة في بلاد النوبة و(دنقلة) ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها. وآثاره وعمائره كثيرة جداً[٤].

---

١. كتابه قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ ١٩٩.

٢. الفوائد الرجالية/ محمد مهدي بحر العلوم/ من مقدمة المحقق/ ١/ ٣٨.

٣. علم الفقه/ الشيخ علي خازم/ ٢٣.

٤. الاعلام/ الزركلي/ ٢/ ٧٩.

هذا السلطان بهذه العظمة والجبروت كان يتصاغر ويتخاذل أمام رجلٍ بدويٍّ مغربيّ كان يعاصره هو (السيد أحمد البدوي). فكان إذا رآه خلَعَ عنه لبوس الملك وطرح جانباً رداء السلطنة وخرج عن رسومها فيتلقاه ببشاشة ثم ينحني على قدميه فيقبلهما[1]. ولم يكن كلُّ ذلك الإكبار إلا لأن هذا البدوي كان يحمل لقب (السيد) الذي يعني أن نسبه متصلٌ بالإمام علي.

و قد وجدنا أن صيغة التقديس هذه تكاد تكون متغلّبة على عواطف كثير من الملوك والسلاطين في مختلف البلدان الإسلامية.

ففي الهند يتميز السيّد عند سلاطينها بميزة تعلو على سائر الرعايا حتى الذين هم من الطبقة العليا أو الخاصة. ويعاقب من يهين السيد بالقتل. فيروي (هولستر) حالة من هذه الحالات ويقول: كان شهاب الدين أحمد شاه ولي، ملك الدكن (سنة ١٤٢٩م) يوقّر سادات كربلاء. فحدث أن سيداً اسمه ناصر الدين تجاوز عليه رجلٌ من أشراف الدكن وأنزله من فوق فرسِهِ بالقوة. فشكا السيد إلى الملك المذكور، فما كان من الملك إلاّ أن بعثَ إلى المعتدي فأمر بزجّه تحت أرجل الفيلة فسحقته حتى مات. ثم خاطب الملك من كان حوله بقوله: سإن الإهانة التي توجهُ إلى رجل من سلالة النبيُ الكريم لابدّ أن يقتصَّ من فاعلها على هذه الشاكلة"[2].

وقد اعتاد الكثير من السلاطين ضمَّ سيّد من العلويين إلى معيتهم وفي بلاطهم ليظهروا أمام شعبهم بمظهر من يرعى رسول الله في آله. وهذه الخصوصيّةُ تقرّب السلطان من رعيته لأن الرعية كانوا على هذا الديدن من التوقير وتعظيم السادة.

و كان من أولئك السلاطين سلطان مصر المشهور كافور الأخشيدي ممدوح المتنبي ومهُجوُّه. فقد أُثِر عنه شدّة حبه لآل البيت وكان في معيته

---

١. دائرة المعارف الإسلامية/ ١/ ٤٦٦.

٢. كتابه/ شيعة الهند/ ٦٤.

الشريف أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عليّ بن الحسن بن إبراهيم بن طباطبا الحسني العلوي. وقد اعتاد السيد هذا أن يبعث إلى كافور في كلّ يوم جامين من الحلوى يصنعها في بيته ورغيفاً في منديلٍ مختوم. وكان كافور يتقبّل باعتزاز هذه الهدية البسيطة. فحسدَ بعض الأعيان ابن طباطبا وقال لكافور: الحلوى حَسَنٌ فما لهذا الرغيف؟ فإنه لا يحسنُ أن يقابلك به. فأرسل إليه كافور قائلاً: يجزيني الشريفُ في الحلوى ويعفيني من الرغيف. فركب الشريف إليه وقد علم أنهم حسدوه على ذلك وقصدوا إبطاله. فلما اجتمع به قال له: أيّدك الله، إننا ما ننفذُ الرغيف تطاولاً ولا تعاظماً وإنما هي صبيةٌ حسنيةٌ تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله لك على سبيل التبرّك فإذا كرهته قطعناه. فقال كافور: لا والله لا تقطعه ولا يكون قُوتي سواه. فعاد الشريف إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف[1].

و كان كافور يقبّل أيادي السادة العلويين الذين في معيته فيحكى أنه كان يوماً في موكبه فسقط منه سوطه فناوله إياه أحد الشرفاء فقبّل يده شكراً وقال له: نَعيتَ والله إليَّ نفسي فما بعد أن ناولني وَلَدُ رسول الله (ص) سوطي غايَةٌ يُتَشَرَّف بها. فقيل أنه مات بعيدَ ذلك[2]. وكان السادة العلويون يرحلون إليه من بغداد لأنهم وجدوا عنده التكريم والأمان.

ثم هاجر السادة في العراق إلى مصر لأنهم لقوا من المصريين الاحترام والاجلال والتقديس. نذكر منهم على سبيل المثال قبيلة السادة المحامدة أجداد الزعيم أحمد عرابي. أنتقل رأس قبيلتهم إلى مصر في أواسط القرن السابع الهجري.

و قد هاجر بعضهم من الحجاز إلى مصر. نذكر منهم – على سبيل المثال – العلوية السيدة نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن علي بن أبي

---

١. وفيات الأعيان/ ابن خلكان/ ٣/ ٨١/ تحقيق د. احسان عباس.

٢. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ المصدر السابق/ ١/ ٢٨٩.

طالب (المتوفاة في القاهرة سنة ٢٠٨هـ) وزوجها اسحاق المؤتمن بن الأمام جعفر الصادق. وكانت ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ ثم صار لها شأن كبير بمصر. وقبرها الآن يزار وتدور الاساطير والحكايات الشعبية حول كراماته[١].

الأسودُ لا تفترس السادة

و لايقتصر احترام السادة على الانسان وحسب، بل ينسحبُ كذلك على الحيوان وأخصها الأسود الضارية فقد جاء أنها لاتفترسهم وتعاف أكل لحوم اجسادهم لقداستها. وقد شاعت بين الناس حكايات وقصص تروي حوادث يعتقدون بصحتها عن اسودٍ خضعت لبعض السادة وسمحت لهم بإمتطاء ظهورها أذكر منها قصة سمعتها في الطفولة من الوالدة أن سيداً كان يحتطب في البرية وعندما أنهى عمله وأراد أن يحمل الحطب إلى البيت لم يستطع لثقله، فتلفت عن أحد بعينه فلم ير غير أسدٍ فظنّه دابةً فحملَ الحطب على ظهره وقاده إلى القرية فرأى الناس تهرب منه فتعجّب وعندما علم أن رفيقه هو الأسد أنزل الحمل من على ظهره ثم قال له: سألتك باسم جدّي رسول الله أن تزأر ثلاث زأرات ثم تذهب. فامتثل الأسد لقسم السيد وزأر ثلاث زأرات ثم مضى إلى حال سبيله.

وكان السادة الرفاعيون في منطقة واسط جنوبي العراق يربون الأسود ويدجّنوها ويسيرون بها معهم مربوطة بسلاسل ليظهروا أمام الناس بأنهم سادة حقيقيون. وكانت تلك المنطقة ملأى بالمآسد.

و يحدثنا السيد نعمة الله الجزائري صاحب التصانيف الكثيرة حادثةً وقعت لجدّه السيد شمس الدين، فذكر في كتابه (نور البراهين) أنه كان لجدّه المذكور ثورٌ يرعى بعيداً عن البيوت، فأتى السبع فافترسه. وعندما

---

١. للتفصيل ينظر/ الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور/ زينب العاملي/ ٥٢١.

وصل الخبرُ إلى السيّد أسرع وذهب إلى المكان فوجد الأسد فأخذ الحبل المربوط به الثور وربط به الأسد وقاده إلى بيته وقال: اتخذه للحراثةِ بدلاً من ثوري فقال له الجيران: إنَّ هذا لا يصير لأنّا نخافُ منه. فحينئذٍ أرسله من يده. فقال أحد الشعراء الشعبيين يمدح السيد ويمدح أولاده:

ساده حسينيين	أهل التقى والدين
أولاد شمس الدين	جاب السبع ثوره
والناس شهّاده	غيّاب وحضوره[1]

و قد انتشرت تلك الحكايات بين العامة تأكيداً لحديث منسوب إلى النبي (ص) يقول فيه: إن لحوم بني فاطمة محرمة على الأسود. وقد جاء ذكر هذا الحديث في حادثة جرت للسيد أبي القاسم بن الأعلم العلوي الكوفي الفيلسوف حيث كان هذا السيد خرج من بغداد يريد الكوفة يوم الثلاثاء غُرَّةَ المحرم سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة للهجرة. فلما كان في بعض الطريق إذا بالأسد يقابله وجهاً لوجه فأيقن بالهلاك وأقبل يتشهَّد ويقرأ. ثم رمى بنفسه عن الحمار فأخذ الأسد غلامه. وحينها أطلق السيد ساقيه للريح ومرّ يعدو على المسنّاة حتى خرج من الأجمة، فصادف قوماً أوصلوه إلى بيته في الكوفة. فجاءه الناسُ يهنئونه بالسلامة وكان فيهم أبو عليّ عمر بن يحيى العلوي، فلامه على هربه من الأسد وقال له كيف خفت من الأسد؟ أما علمت بأن لحومنا معاشر بني فاطمة محرمةٌ على السباع؟ فقال له: مثلُ سيّدنا – أطال الله بقاءه – لا يقول مثل هذا، وما الذي كان يؤَمِّنُني أن يكون هذا الحديث باطلاً فأتلف؟ وكيف كانت نفسي – مع طبع البشرية – تطمئنني في مثل ذلك الوقت إلى مثل هذا الحديث؟[2].

---

١. نور البراهين/ ١/ ٦.

٢. الفرج بعد الشدة/ القاضي التنوخي/ ٤/ ١٧١/ تحقيق عبود الشالجي.

السيّد يُحيي الموتى

و قد رفع الناس البسطاء منزلة السادة رفعة عظيمة واعطوا لبعضهم القدرة على احياء الموتى فمن ذلك ما جاء في الأخبار أن (محمد بن عتيق) حاكم (زَيْلَع) - قرية من أعمال اليمن) - كان يحبُّ جاريةً له حُبّاً جَمّاً، ولم يكن يصبر على فراقها ساعة، فحدثَ أن توفّاها الله فكاد عقله يذهب لموتها ولم يسمح بدفنها وسَجّاها أمامه وراح يندبها ليله ونهاره.

فاتفق أن قدم زيلَعَ أحد السادة العلويين وهو (أبو بكر عبد الله باعلوي اليمني المتوفى سنة ٩١٤هـ) وكان قادماً من الحج فسمع بمصيبته الحاكم ابن عتيق وسمع بشدّة جزعه على موت جاريته الحبيبة، فذهب إليه ليعزيَهُ ويصبّرَه على قضاء الله. فدخل عليه فوجده عندها وهي مسجاةٌ أمامه في ثوب. فعزّاه وصبّره فلم ينفع به الكلام بل اندفع نحوه بدون شعور واكبَّ على قدميه وقبلهما وقال: "لا ياسيدي إن لم يحي الله هذه مُتُّ أنا ولم تبق لي عقيدة في أحد".

فتأثر السيد من هذا القول وقام إلى الجارية وكشف عن وجهها فناداها باسمها فأجابت: لبّيك. وردّ الله روحها بفضل ذلك السيد فنهضت وأكلت مع سيدها (الهريسةَ) وعاشت بعد ذلك مدّة طويلة.

مُمارسة الجنس في أضرحة السادة

أما طلبات الناس من أضرحة السادة فكثيرة ومتنوعة أبرزها طلب الولد الذكر، فتأتي المرأةُ القبر وتهزّه طالبةً منه أن يهبها مولوداً ذكراً وتنذر له نذراً إذا استجاب كطعام توزعه على الفقراء ونحو ذلك. أو تعده بأن تسمي المولود باسمه أو تجعله عبداً له بالأسم فتسميه (عبد السيّد) أو (عبد

---

١. شذرات الذهب في اخبار من ذهب/ ابن العمد الحنبلي/ ٨/ ٦٣.

السادة) وإذا كان إماماً سمته (عبد الإمام) أو (عبد الأئمة) أو (عبد الحسين) أو (عبد علي) وهكذا.

أما الرجال (الريفيون والاعراب بخاصة) فيأتون الضريح في حالة العجز الجنسي معتقدين أن صاحبه يستطيع منحهم القوّة الاخصابية إذا انتخوه وتمسّحوا به. ويكون مسح (العضو) بجدار القبر أو شباكه أجدى لنيل القوة. وقد حدثني بعض السدنة في كربلاء أنه اعتاد أن يرى ريفياً يفعلُ هذا. وقسماً منهم يلتصق بالشباك ثم يتستر بعباءته ويرفع ثوبه عن عورته لتلمس الشباك.

و حدثني كبير السدنة أنه أثناء جمع الهدايا والهبات من أحد أضرحة الأئمة وجدوا مجسّماً من الحجر على شكل ذكر فتعجبوا. والواقع ليس فيه ما يدعو إلى التعجب فإن المجسّم الذكري لا شك يمثل عضو صاحبه وقد ألقاه في هذا المكان مؤملاً أن يتشبع بالقوة الأخصابية من صاحب المكان فإذا تشبع بها أمكن انتقالها إلى عضوه أثيرياً وبذلك يصبح الرجل منجباً حسب عقيدة السحر الانتقالي.

و قد يشار على المتزوج حديثاً قبل دخوله بزوجته أن يزيل عذريتها عند ضريح أحد السادة. وقد حدّثني غير واحدٍ من السدنة أنهم ضبطوا حالات من هذه الممارسة حدثت في غفلةٍ من الرقباء عند أحد قبور الأئمة وقد تبين بعد التحقيق أن المتمارسين كانا زوجين شرعيين قاما بذلك طلباً للولد. وحدّثني أحد رجال الأمن أنه اقتيد إليه فتىً وفتاة في حالة اتصال جنسي في خربةٍ قرب (سيدنا العباس) فلما أراد أن يتخذ إجراءً بحقهما أبرزا له وثيقة زواجهما وأخبره الزوج أنه أشير عليه أن يأخذ عذرية زوجته قرب هذا المكان المقدس لغرض الانجاب.

و فيما يخصُّ هذا الشأن بالذات – شأن إزالة عذرية الزوجة عند أضرحة السادة – نجده معروفاً في مصر لدى الصوفية على الأقل بخاصةٍ عند

ضريح (السيد احمد البدوي) حيث روى الصوفي عبد الوهاب الشعراني (٨٩٨ – ٩٧٣ هـ) متحدثاً عن نفسه أثناء زيارته لضريح السيد المذكور قال: "ثم رأيته – يقصد السيد – وقال لي: قف هنا، أدخل عليَّ من شئت وامنع من شئت، ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن وهي بِكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءني وأخذني وهي معي وفرش لي فرشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل وطبخ لي حلوى ودعى الأحياء والأموات إليه وقال: أزل بكارتها هنا. فكان الأمر تلك الليلة[١].

و الظاهر أن تلك الدعوة كانت تعبر عن دافعٍ إيمانيٍ خاص. يقول (فولرز K. Vollers) وتطابق هذه الدعوة وما يتبعها من تنفيذ تمام المطابقة مع روح السيد احمد وطبيعة التوسل به[٢].

و لدينا اخبار تشير إلى وجود هذه الممارسة عند شعوب البلاد العربية. منها ما ذكره الباحث محمود سليم الحوت عن ضريح وليٍّ يقع على مكانٍ مرتفع على شاطئ فلسطين شمالي يافا. حيث جرت فيه مثل هذه الممارسات[٣].

و كانت ممارسة الجنس في المكانات المقدسة طلباً للإخصاب معروفة منذ القدم فكانت تجري في معابد آلهة الخصب كتموز وادونيس واوزيريس.

و مارسه العرب القدماء في معابدهم المقدسة حسبما ورد في اسطورة (إساف ونائلة). وهما رجلٌ وامرأةٌ من قبيلة (جُرهم) كانا متعاشقين في أرض اليمن. فأقبلا مع الحُجاج فدخلا الكعبة فوجدا غفلةً من الناس وخلوةً في البيت ففجرا فيه فمُسخا حجرين فوضعا موضعهما ليعتبر بهما

---

١. الطبقات الكبرى/ الشعراني/ ١٩٤.

٢. دائرة المعارف الاسلامية/ ١/ ٤٧٠.

٣. كتابه/ في طريق الميثوليجيا عند العرب/ ٥٥.

الناس فطال بهما الزمن ونُسِيَ أمر الفجور فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حجَّ من العرب[1].

و الاسطورة هذه - كما ترى - لا تخلو من تناقض وتداخل أفكار حيث أن الشخصين لو كانا يريدان الفجور أما كان بوسعهما أن يفعلاه في بلدهما أو في الطريق، فلماذا في هذا المكان المقدس بالذات؟ وإذا كانا فعلا وفجرا في البيت وغضب عليهما رب البيت فمسخهما حجرين فلماذا عُبدا بعد ذلك وعبدتهما القبائل والناس الآتون إلى الحجّ؟

يمكننا أن نقول تقويماً للاسطورة أن الحجرين الذين يشبهان رجلاً وامرأةً كانا بالأصل صنمين يمثلان إلاهين للإخصاب كتموز وزوجته عشتار أو كبَعل وزوجته عناة وقد جيىء بهما من العراق أو من بلاد الشام، وربما جاء بهما الكاهن (عمرو بن لُحَيّ)[2] جدّ قبيلة خزاعة وكان يتولّى سدانة البيت فوضعهما في مكانهما ليأتمَّ بهما من أراد الاستشفاء أو الإخصاب. فحدث أن قدم العروسان (إساف ونائلة) من اليمن بعد أن أُشير عليهما أن يتباضعا عند قدمي الصنمين المذكورين لغرض الإنجاب فانتهزا غفلة من الناس وخلوةً في البيت فتباضعا فشاع أمرهما فسميَ الصنمان باسمهما وعندما جاء الاسلام تأسلمت الحكاية فقيل أن إساف ونائلة مسخا حجرين لفعلهما الشنيع.

١. الأصنام/ الكلبي/ تحقيق أحمد زكي/ ٩٥.

٢. عمرو بن لحي: لا يعرف زمنه. وقيل أنه أول من غيَّر دين اسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الاوثان. نولى حجابة البيت الحرام وكان يزور الاردن وبلاد الشام ويأتي بالاصنام المعبودة وهناك ويضعهما في البيت ويطلب من الناس عبادتها ومن المحتمل أنه جاء بالصنمين المذكورين فوضعهما بمكانهما وطلب من الناس عبادتهما.

السيد (أبو السعود) صانعُ أعضاء الذكورة

لم يحظَ سيد من سادات مصر بمعجزة خارقةٍ كالمعجزةِ التي نسبت إلى (سيدي أبو السعود). وهذه المعجزة شاعت بين الناس البسطاء واعتقدوا بحصولها ومفادها:

> "إن رجلاً وزوجته عاشا في سعادة غامرة ولكن بمرور الأيام اكتشفت الزوجة بأنها عاقر لا تنجب. وقد أحزنها هذا، أما زوجها فقد أراد أن يخفّفَ عنها إلا أن مخاوف الزوجة اشتدّت فقد يتزوج زوجها من أخرى تنجبُ له اطفالاً. ولكن الزوج لكي يطمئنها قام بإخصاء نفسه حتى ترتاح الزوجة ولا تفكرّ في هذا الأمر نهائياً.
>
> وتمرُ الأيام وتشفى الزوجة من العقم – ولا تذكر الحكاية كيف اكتشفت ذلك – فيصاب الزوج بالذهول ويهيم على وجهه إلى أن تقوده قدماه إلى (سيدي أبو السعود) الذي تأثّر لحاله وقام بعمل عضو ذكورة له من الطين ثم قرأ عليه ومسحه بيديه فاستردَّ الزوج كامل لياقته وعاد إلى زوجته وأنجب منها إناثاً وذكوراً وعاشا عيشة سعيدة بفضل معجزة هذا السيد"[1].

و بسبب تلك المعجزة راح الناس السذج من الرجال والنساء يلتجئون إلى ضريحه إلى اليوم يتوسلون به لشفاء عقمهم وغالبيتهم من النساء.

و السيد هذا يعتقدون أنه من أولاد (سيدي علي زين العابدين بن الأمام

---

١. الزار ومسرح الطقوس/ عادل العليمي/ ٣٤.

الحسين بن علي من زوجته السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام).

و قد توفي الرجلُ ليلة الاربعاء أي يوم الثلاثاء بعد منتصف الليل ولذلك يقام له طقسٌ (حضور) يسمّى (الزار)[1] يوم الثلاثاء فيحضر في مسجده المسمى باسمه في الحيّ المسمى باسمه كذلك ويقع قرب مصر القديمة[2].

و يرى بعض الباحثين أن ارتباط السيد أبي السعود بصناعة أعضاء الذكورة من الطين يعود إلى شهرة الحيّ الذي عاش فيه بصناعة الفخاريات والقُلَلِ من الطين. ولكن المسألة في رأينا لها تعليلٌ آخر يعود إلى ممارسات قديمة كان المصريون يقومون بها زمن الفراعنة أيام كانوا يعبدون الإلاه (أوزيريس) إلاه الإخصاب وكان من شعائر عبادته أن يقوم كهنة معبده بصناعة مُجَسَّمٍ من القماش أو الجلد على هيئة ذكر يجعلونه على عربة ويطوفون به في الشوارع وكان الرجال والنساء العواقر

---

١. الزار: لفظة تطلق على احتفاليةٍ طقسية جماعية تقوم بها النساء بخاصة وقد يشترك معهن الرجال. وتعتمد على الرقص العنيف والاهتزاز الهستيري الموقع على آلات موسيقية ضاجَّةٍ كالطبل والطنبورة والصنج والدف. ويصحب الموسيقى غناء خاص وإطلاق بخور بكثافة وذبح أضاح حيوانية. وغالباً ما تصيب الراقصين غيبوبة يسقطون على أثرها.

والزار على أنواع منها الصعيدي وأبو الغيط والسوداني وهو أعنفها وأكثرها خلاعة حيث يشترك في الرقص رجال سود شبه عرايا مع فتيات. وقد يصاحب الرقص تعذيب جسدي تقوم به العروسة التي دخل الجنّي في جسمها بضرب جسدها بكرباج من الحبال.

وتقام هذه الاحتفاليات لعدة اغراض. منها اخراج الجنّ من الاجساد أو في حالات العقم أو في حالات العقم أو في حالات طب الشفاء من المرض أو في حالة الحزن على الميت واحياناً للترفيه عن الكبت الجنسي. وقد جاءت هذه الطقوس إلى مصر من الحبشة وعمت بلاد المسلمين شمال افريقيا.

٢. الزار ومسرح الطقوس/ المصدر السابق/ ٣٣.

المبتغون البزر والذرّية يلمسونه ويتمسحون به طلباً أن يعينهم على الإنجاب.

ثم يمضي الزمان وتذهب تلك العبادة ولكن أوشالاً منها تبقى إلى زمن المؤرخ المشهور احمد أمين (١٨٧٨-١٩٥٤م) الذي يحدثنا عن شخصية مصرية اسمها (علي كاكا) يقول:

> "هو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، فهي شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبسُ في وسطه حِزاماً يتدلّى منه قطعة على شكل الآلة الجنسية في أضخم أنواعها. وكان هذا المنظر يثير ضحك النساء والرجال على العموم ضحكاً بالغاً.
>
> وكانوا يصنعون منه (يقصد العضو) نماذج من الحلوى في الموالد. وكان هناك نوعٌ من الحلوى عبارة عن سكر مجفَّف فيه شربات ويسمونه أيضاً شربات ويدورُ البائع فيه في الشوارع ويقول: العروسة من الشربات، العريس من الشربات، الحمه من الشربات، علي كاكا من الشربات"[١].

أقول: تذكرني هذه الحلوى الطريفةُ بحلوى كنا نشتريها من بائع الحلويات عندما كنّا صغاراً يطلق عليها أسم (..؟.. القاضي) وهي عبارة عن قضيبٍ لدنٍ يُصنع من النشأ والسكر وكنا نسميه باسمه الفاحش دون أن ندري من هو هذا القاضي الذي قد يكون سيّداً كسيدي أبي السعود أو إلاهاً كأوزيريس أو تموز إلاه الخصب العراقي.

---

١. كتابه/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ ٢١٧.

البحثُ عن سيِّدٍ معبود

التعبُّدُ عند الإنسان ظاهرة معقدة تشترك فيها ايمانات قديمة بقيت راسخةً في لا وعيه يصعبُ توحيدها بإلاهٍ واحدٍ غير منظور، حيث أنه يبقى دائماً يبحثُ عن شيءٍ منظور ملموس يتعبّدُ إليه وهذا طبعه وما يزال. وليست عبادة الاحجار والاشجار والانهار والنجوم والشمس والقمر وغيرها إلا نتيجة لهذا الطبع والشواهد على هذا في كتب الديانات والتواريخ كثيرة.

و قد يدعوه الأمر إلى أن يجعل من أبطاله أرباباً وإذا تنازل شيئاً جعلهم واسطة لعبادة الإلاه الواحد غير المنظور.

يحدثنا الدكتور علي الوردي عن زيارته لمدينة (عفك) قائلاً:

"في زيارتي الأخيرة إلى ناحية (عفك) لاحظت ظاهرة اجتماعية لفتت نظري وهي وجود باحات صغيرة مسيجة بجدران من الطين وعليها علمٌ أخضر. وقد رأيت ثلاثةً أو أربعةً منها في الطريق بين عفك والدغارة. ولما سألتُ عنها قيل لي أنها الموضع الذي غُسِلَ فيه جثمان أحد السادة المعروفين بعد موته. فالجثمان قد نقل بعد موته إلى النجف لدفنه ولكن موضع غسله أصبح مقاماً مقدّساً ينذر الناس له النذور ويتبرّكون به. ومن يدري فلعلَّ هذه المواضع ستكون في يومٍ من الأيام مزاراً مقصوداً تقام عليه قبة ويكون له سدنه"[١].

هذا إذا لم يكن السيد مدفوناً في تلك البقعة أما إذا دفن فيها فإن القبر

١. كتابه/ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ ٢٤٨.

يكون محجّةً لأهل المنطقة. فإذا طار صيته ورويت عنه الكرامات، نشَدَتهُ مناطق أخرى وجاء الناس يحجّون إليه من مكانات قصيّه ليقضي حاجاتهم المستعصية.

و لايقتصر هذا الأمر على أهل العراق فحسب ففي مصر توجد مقابر مماثلة للأولياء والسادة اشهرها قبر (سيدي الغريب) وهو قبر لشخص مجهول الأصل ولكن أهالي الاسماعيلية يفدون إليه في اسبوع مولده ليقيموا الاحتفالات ويقدّموا الهدايا والنذور وهم ليسوا على علمٍ بأصله التاريخي. وسدنة القبر يقولون أنهم لم يعثروا عليه في التاريخ ولم تستطع حتى وزارة الاوقاف أن تصل إلى شيءٍ عنه[1].

و يذكر المؤرخون أن في مصر أربعين قبراً كلُّ قبرٍ يسمى قبر (سيدي الأربعين) يتبرّك بها أهلها ويحكون عنها الاساطير والمعجزات والسيد المدفون في هذه القبور هو شخص واحد مجهول الأصل.

و يعزو المؤرخ (محمد كمال السيد) تعدد قبور (سيدي الأربعين) إلى الطرق الصوفية التي يعتقد اصحابها بإن (الأبدال) وهم من مراتب الصوفية عددهم أربعون فكلما توفي من يعتقد أنه من الأبدال بنوا له ضريحاً ينتفع من نذوره الأقربون له أو الداعون إليه[2].

إلا أن تعدد هذه القبور حسب رأي المؤرخ (احمد أمين) يعود إلى إن صاحب البيت إذا وجد الناس يبولون في ركنٍ من أركان بيته أو حارته فمنعهم فلم يمتنعوا، إحتال بين ليلةٍ وضحاها فادّعى إن هذا المكان مكان سيدي الأربعين ويبني ضريحاً صغيراً وادعى أن فيه شيخاً، فيمتنع الناس من البول في المكان ولذلك نراه كثيراً في أركان القاهرة[3].

---

١. المصدر السابق نقلاً عن مجلة العربي/ كانون ١/ ١٩٦٣ ص ٨١.

٢. كتابه/ اسماء ومسميات/١٩٣.

٣. قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ ٢٤١.

و في الواقع إن هذا السبب بعيد عن الحقيقة فإن تعَدّد هذه القبور يعود إلى أمر اقتصادي سببه حاجة مخترع القبر للمال فهو فقير يحتال بهذه الوسيلة للحصول على نذور الناس وهباتهم فيقوم باستثارة نازعهم الديني القديم في البحث عن بطل معبود فيُقدّمه لهم بصفة (سيد) وبالمقابل يقدمون له اموالهم رغم فقرهم هم أيضاً.

و تلعب الأحلام دوراً كبيراً في ظهور السادة المعبودين فيذكر الدكتور الوردي أن فلاحاً فقيراً من قريةِ (القريشات) القريبة من النجف رأى في الحلم كأنَّ ولياً اسمه (السيد محمد) مدفون بجوار بيته. ولم تمضِ أيامٌ على شيوع خبر الحلم حتى أقبل الناس على القبر المزعوم يتبرّكون به فأثرى الفلاح من جرّاء ذلك مما دعا غيره أن يحلم بقبر ولي آخر اسمه (السيد ابراهيم) ثم ظهر قبرٌ ثالث ورابع حتى ازدحمت القرية بالقبور المقدسة.

و من طريف ما رواه الوردي عن هذه القبور قصة قبر ظهر منذ زهاء مائة سنة قرب مدينة (الهندية) قيل أنه لحفيد الإمام جعفر الصادق اسمه (صگبان). ومن الغريب أن هذا الاسم معناه (حارس الكلب) وكان يطلق في العهد العثماني على نوع من الجنود وليس من المعقول أن يسمى حفيد الإمام جعفر الصادق بهذا الاسم ولكن الناس لم يهتمّوا بذلك وانثالوا على القبر يتبركون به ويقبلون أركانه ويتمسحون بها[1].

جنكيزخان سيداً

و على الرغم من أنه في كثير من الأحيان لا يمكن الموائمة تاريخياً بين نسب السيد الدعيّ والنسب العلوي كما رأينا في حالة (السيد صگبان) حارس الكلب فإن الناس لا يهمهم ذلك. المهمُّ أن يقال عن الشخص أنه (سيّد) وكفى حتى لو كان من جنسٍ آخر أو إثنية عرقية بعيدة الارتباط بآل محمد.

---

١. كتابه/ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي/ ٢٤٩.

و لدينا أمثلة كثيرة على ذلك نشهدها اليوم أو نقرؤها في التواريخ منها الطريقة التي انتسب بها (تيمورلنك) حفيد (جنكيزخان) الوثني المغولي بالامام علي. فقد ابتكر المؤرخ لجنكيزخان نسباً يتصل بالإمام بواسطة أحد أجداده السالفين فادّعى أن ذلك الجدّ ولدته امرأة عذراء تدعى (ألانكوما) من نور خرج عليها من الباب الجبلي فتمثل لها بشراً هو الإمام عليّ فحَلَّ فيها وأولدها ذلك الجدُّ الذي نَسلَ منه جنكيزخان وبذلك صار جنكيزخان سيداً علوياً وبالتالي أصبح تيمورلنك سيداً علوياً أيضاً.

و أكدّ التيموريون هذا النسب فقام عالمهم المشهور (أُلوغ ببك) عندما مات تيمورلنك (سنة ١٤٠٥م) فوضع بلاطةً من (اليَشم) الأخضر على قبره الموجود حالياً في مدينة)سمرقند) وكتب عليها باللغة العربية سيرته ونسبه العلوي وذكر فيها تلك الاسطورة[١].

و هنا قد يتساءل المرء كيف صدّق الشعب تلك الولادة وآمن بها وهي بعيدة عن العقل؟ فأقول إن غالبية الشعوب في تلك الأزمان قد تآلفت مع أمثال تلك الولادات الاعجازية وحفظوا ولادات مشابهة وليست بعيدة عنهم ولادة السيد المسيح من روح، وقبلها ولادة الفيلسوف افلاطون (٤٢٧–٣٤٧ ق.م) الذي قيل عنه أنه ولد من صلب الاله (أبولو) تعظيماً لشأنه وكذلك (الأسكندر المقدوني) (٣٥٦–٣٢٣ ق.م) الذي أولده الاله (زيوس) من أمه (اوليمبياس) وكذلك فيثاغورس عالم الرياضيات اليوناني، حبلت به أمه (بثياس) (سنة ٥٥٠ ق.م) من روح الاله (أبولو)[٢].

و كانت اذهان الشعوب في تلك الأصقاع التي عاش فيها المغول تختزن تصورات عن ولادات حدثت بهذه الطريقة فاعتقد الهندوس أن نبيّهم (كرشنا) – وكان قبل المسيح باثني عشر قرناً – ولد من أمه العذراء (مايا)

---

١. مجلة العربي الكويتية/ العدد ٢٥٨/ سنة ١٩٨٠/ ص ٢٧.

٢. المسيح في مفهوم معاصر/ عصام الدين حفني ناصف/ ٥٣.

حملت به بعد أن حلَّ فيها روح أو طيف[1].

أما البوذيون الذين كانت أول نشأتهم في الهند فاعتقدوا أن نبيّهم (بوذا) كذلك ولد من أمٍّ عذراء اسمها (مايا) أو (مَهامايا) حيث خرج عليها من (جبل الذهب) شعاعٌ من نور على هيئة فيل أبيض ولاح لها كأنه ولج في رحمها واستقرّ فيه فولدت منه بوذا بعد ذلك[2].

و لما كان المغول قد نشأوا بين أكناف البوذيين المنتشرين في أواسط آسيا فليس من الصعب عليهم أن يحوّلوا أسطورة ولادة بوذا إلى جدهم الأكبر حسبما أسلفنا مع تغيير شخوصها فأبدلوا الفيل الأبيض المقدس بالإمام علي.

و هكذا آمن التيموريون بسهولةٍ بإن جدهم هو الإمام علي.

الملوك السادة

و رأينا الناس في هذا العصر يُجلّون ملوكهم وزعماءهم إذا كانوا سادة. ويكون إجلالهم متأتّياً من دافعين، دافع احترام المنصب ودافع تقديس النسب. ويُملي عليهم الدافع الثاني المبادرة إلى استلام يد الملك أو الزعيم وتقبيلها بشكل تلقائي مأسورٍ بمخزون القداسة الكامن في لا شعورهم نحو الرسول الكريم. وكأنما هم أرادوا أن يعوضوا بهذه القبلة عن تقبيل يد الرسول نفسه.

و يمكننا أن نعتبر تقبيل أهل المغرب أيادي ملوكهم من هذا الباب لأن هؤلاء الملوك اشراف (سادة) علويون حسنيون. وعلى هذا الأساس أيضاً يكون تقبيل أهل الأردن أيادي ملوكهم لكونهم من الأشراف الحسنية الهواشم.

---

١. م.ن./ ٧١ وما بعدها.

٢. دائرة معارف بطرس البستاني/ مادة (بوذه)/ وينظر/ مجلة ثقافة الهند/ العدد ٢ يونيو ١٩٥٧.

و في ضمنهم نذكر الزعيم الليبي (معمَّر القذافي) فإن له جذر نسب يمتد إلى الإمام موسى الكاظم. وتؤكد قبيلة (القذاذفة) هذا النسب وذلك عندما جاء وفدهم إلى العراق سنة (٢٠٠٥م) للتعزية بضحايا جسر الأئمة فتبرعوا بمبلغ مليون دينار لإعمار مرقد جدهم المذكور[١].

و قد حدّثني من أثقُ به – والعهدة عليه – أن السيد معمّر القذافي عندما جاء العراق في مؤتمر القمّة الذي انعقد في بغداد في أيار سنة ١٩٩٠ أُعِدَّ له في أحد القصور مبيتاً فخماً ولكنه طلب أن ينام في خيمة في حديقة القصر فرتّبت له الخيمة. وفي الليل استدعى مرافقه الضابط العراقي وطلب منه أن يهيّئَ له طريقاً لزيارة جدّه الأمام موسى الكاظم فهيئت له ظروف الزيارة رغم أنها لم تكن مدرجة ضمن البرنامج.

و لايحظى الملك أو السلطان بهذه الخصوصية التقديسية إذا لم يكن سيداً. ويعتبر تقبيل يديه حين ذاك من باب لزوم ما لا يلزم.

لذلك حرصَ كثيرٌ من الملوك والسلاطين أن يربطوا انفسهم بسلالة علي بشكل من الأشكال وصورة من الصور لينالوا المنْزلتين معاً كما رأينا في ما فعله (السيد) بتيمورلنك.

العلماء وآيينُ تقبيلهم

كانت مدرسة (دار الملك) بدهلي (دلهي) في الهند قد شرطت على طالب العلم إذا لقي استاذه أن يبادر بتقبيل يده أو رجله. ولكن الشيخ العالم

---

١. كارثة جسر الأئمة حدثت يوم ٢٥ رجب ١٤٢٥هـ بمناسبة وفاة الأمام موسى الكاظم. وقد اعتاد الناس كل عام في مثل هذا اليوم الذهاب بجموع غفيرة سيراً على الاقدام إلى مرقد الإمام في الكاظمية وكان عليهم أن يعبروا الجسر الواصل بين الكاظمية والأعظمية فانحصرت جموعهم على الجسر وشاع بينهم أن (متفجرة) أعدت لتفجيرهم فتدافعوا هرباً وسقط الكثير في النهر فغرق عدد منهم يزيد على الألف.

الكبير (برهان الدين النَسَفي) أحد العلماء المبرزين في تدريس الفقه بالمدرسة المذكورة كَسَرَ هذا الشرط ولم يرتضه لتلامذته فحتم عليهم إذا لقوه في الطريق أن يكتفوا بالتحيّة المسنونة ولا يزيدون على ذلك من تقبيل اليد أو الرجل وغيرهما[1].

و إزاء هذا لا بد أن نتساءل: هل رضخ الطلاب إلى ذلك الآيين أو الرسم المُذلّ برحابة صدر ولم يعترضوا عليه؟ أم أن بعضهم كان يرفضه صامتاً فعبّر الاستاذ (النسفي) عن موقفهم؟

في الواقع أن العملية التربوية في ذلك الزمان كانت تقوم على قاعدة الاستعلاء الطبقي بين الاستاذ وطالب العلم. وكانت هذه العلاقة مشابهة للعلاقة بين السيد والعبد. ونحن نتذكر من خلال تثقفنا الذي مررنا به كيف سار بيننا حديث (من علمني حرفاً صرتُ له عبداً) الذي قيل أنه للإمام علي قاله قاصداً به استاذه العظيم (محمداً). وقد كتبنا عنه في (دروس الإنشاء) مواضيع كثيرة.

و كان هذا الحديث يدور على الألسنة كما يقول (العجلوني)[2]. وهناك احاديث مشابهة تناقلتها الروايات وكلها تنصب في باب تكريس العبودية للاستاذ. منها حديث رواه الطبراني وهو: (من علَّم عبداً آيةً من كتاب الله تعالى فهو عبد له)[3].

و لهذا يخيّل لنا أن القسم الاكبر من طلاب مدرسة دار الملك بدهلي قد ارتضوا تلك المراسيم المذلّة من جانب التدين بمضمون تلك الاحاديث أو من جانب الإقرار بجميل الاستاذ ووفاءً منهم لعمله المقدس.

و من الطبيعي أن تنشّئَ تلك التربية في الطالب حبّ التواضع وعدم

---

١. مجلة ثقافة الهند/ يونيو ١٩٥٢/ المجلد الثالث العدد الأول ص ٨٨.

٢. كتابه/ كشف الخفاء/ ٢٩٥.

٣. م.ن./ ٢٩٥.

الغرور فلا يصعّر خدّه ولا يمشي في الأرض مرحاً وقد قادت تلك التربية علماء ذلك الزمان إلى أن يذيّلوا اسماءهم في الكتب التي يؤلفونها بأوصاف تدل على تواضعهم فيقولون مثلاً (كتبه العبد الأحقر فلان بن فلان) أو (المذنب) أو (الجاني) أو (الفقير إلى عفوه تعالى) وقد وصف بعضهم نفسه بأنه (تراب أقدام الصالحين) أو (تراب أقدام العلماء) وهكذا..

هذا من الجانب التربوي أما من الجانب الشرعي فأجاز بعض الفقهاء تقبيلَ يد العالم ومنهم (النووي) قال: "تقبيل يد الرجل لزهده وصلاحه أو عمله أو شرفه ونحو ذلك من الأمور الدينية لا يُكره بل يستحبّ. فإذا كان لغناه أو شوكته وجاهه عند أهل الدنيا فمكروه أشدّ الكراهة"[1].

كما إن حديث الإمام جعفر الصادق الذي ذكرناه يجيز في تفسيره تقبيل يد العلماء على أساس أنهم ورثة الأنبياء فلا يبعد دخولهم ضمنهم.

و قد سار طلاب العلم على هذا المبدأ وزادوا فقبّلوا الأرجل أيضاً والركبة والخف وقد ذكرنا ما فعله الشيخ جعفر كاشف الغطاء عندما كان يرى استاذه السيد محمد مهدي بحر العلوم فإنه كان ينحني على خفّه فيمسح التراب عنه بحنك عمامته.

و قد جاء في الأخبار أنه لما وصل بغداد (بهاءُ الدين وَلَد) أبو جلال الدين الرومي الفقيه الصوفي المشهور، سَعى إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي حفيّاً به وانحنى على ركبتيه فقبلهما ودعاه إلى (الخانقاه) ولكنه آثر النْزول بالمدرسة المستنصرية. وبلغ من إجلال السهروردي له أن خلَع حذاءه بيديه[2].

و هكذا كانت العلاقة بين العالم وتلامذته. أما العلاقة بين العالم وسائر الشعب فكانت تتخذ بعداً واسعاً حيث تشترك كل طوائف الشعب في

---

١. القبل والمعانقة/ المصدر السابق/ ١١.

٢. القصة المصرية في الأدب الفارسي/ د. أمين عبد الحميد بدوي/ ٤٠٩.

احترامه وتعبّرُ كلُ منها بطريقتها الخاصة بتقديره. وإننا لنرى هذا قد جرى أثناء زيارة قام بها أحد العلماء الزهّاد إلى مدينة خراسان فإنه لما دخلها خرج في استقباله جميع أهلها بنسائهم ورجالهم وأولادهم، فتلقّوه يمسحون أردانه ويأخذون تراب نعليه للأستشفاء. وكان كلما دخل إلى سوق أخرج أصحابُ السوق بضائعهم ينثرونها عليه ما بين حلوى وفاكهة وثيابٍ وفراء وغير ذلك وهو ينهاهم حتى دخل إلى سوق الأساكفة فجعلوا ينثرون المتاعات وهي تقع على رؤوس الناس. وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهنّ وألقينها عليه وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة[1].

و يذكر ابن كثير أن أبا إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) العلامة المناظر ومفتي الأمة في عصره كان كلما مرَّ ببلدةٍ خرج أهلها باولادهم ونسائهم يتبركون به ويتمسحون بركابه وربما أخذوا من تراب حافر بغلته[2].

و في هذا الباب أيضاً ما ذكر عن الشيخ أبي الحسن البكري أحد علماء مصر (ت/ ٩٥٣هـ) الذي كان أكثر المشايخ أبّهةً عند العوام والدولة. وكان على غايةٍ من حُسن الطالع والحظّ الوافر من الدنيا واقبال القلوب عليه. وكان من شدّة ميل الناس إليه إذا حضر مجلس العلم أو دخل المسجدَ يزدحم الناس على تقبيل كفيه وقدميه حتى إن منهم يمشي حبواً حتى يصل إلى قدميه فيقبلهما[3].

و كان هذا التقدير المسرف في الولاء والتبَعيّة للعلماء ينحدر من منابع تاريخية منذ عهد الرسول (ص) فإنه (ص) جعل العلماء بمنزلة الانبياء

---

١. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ المصدر السابق/ عن طبقات السبكي/ ٣/ ٩١.

٢. كتابه/ البداية والنهاية/ ١٢/ ١٢٣.

٣. مسالك الإفهام/ الشهيد الثاني/ ١٢/ ١٢٣.

حسب أحاديث كثيرة أشهرها الحديث الذي يقول (علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل)[1] وفي رواية (علماء أمتي أفضل من أنبياء بني اسرائيل. وأُثر عنه قوله:

أفتخرُ يوم القيامة بعلماء أمتي فأقول: (علماء أمتي كسائر أنبياء قبلي)[2].

و يعتبر المداد الذي يكتب به العلماء كتبهم مقدساً كذلك وقد جاء في حقه أحاديث كثيرة أيضا، منها (مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء)[3] وتوسَّع في الحديث الإمام جعفر الصادق فقال:

زإذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صفٌ واحد ووضعت الموازين فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرتجح مداد العلماء على دماء الشهداء[4].

و على هذا لا نجد غرابةً عندما يقوم الناس تقديراً لعلمائهم فيتهاوَون على أيديهم وأرجلهم فيقبلونها. وينحنون على مواطئ أقدامهم فيأخذون التراب الذي داسته أقدامهم ونعالهم يستشفون به. وقد جاء في الاحاديث (أن الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم يطؤها رضىً به)[5].

و كان تقديس العلماء قد بدأ منذ فجر الاسلام حيث ذكر التاريخ أن ابن عباس على جلالة قدره وسعة علمه وموضعه من النبي كان يأتي إلى بيت زيد بن ثابت رأس المدينة في القضاء والفتوى فيأخذ العلم منه وكان يقول: العلم يؤتى ولا يأتي. وذات يوم رأى ابن عباس زيداً راكباً فأخذ

---

١. الحديث قبله الزركشي والدميري وهو في كفاية الطالب للكنجي/ ٢٣٩.

٢. عوائد الأنام/ المحقق النراقي/ ١٨٧.

٣. مغني المحتاج/ الشربيني/ ص ٢١٩.

٤. السرائر/ إبن ادريس الحلي/ ٣/ ٦٢٢.

٥. كشف اللثام/ الفاضل الهندي/ ١/ ٧.

بركابه فأعظم زيدٌ ذلك فقال: تنحَّ يا ابن عم رسول الله. فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا. فقال زيد: أرني يدك. فأخرج يده فقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهلِ بيت نبينا[1].

---

١. الرخصة في تقبيل اليد/ محمد بن ابراهيم المغربي/ ٩٥.

الباب الثاني عشر

القبلة في الرسوم السياسية

- تقبيل الأرض لخليفة الله في الأرض
- آيينُ تقبيل الأرض
- المعفوون من رسم تقبيل الأرض
- تقبيل الأرض بالوكالة
- تقبيل الأرض في مصر الفاطمية
- خشونة شوارب المقبّلين تؤذي يد الخليفة
- تقبيل حافر حمار الخليفة
- تقبيل حوافر الحمير المقدسة: الجذر والامتداد

تقبيل الأرض لخليفة الله في الأرض

في عام (٣٦٩هـ = ٩٧٩م) تم في دار الخلافة العباسية ببغداد تتويج (عضد الدولة البويهي)[1] على هذه الصورة:

(جلس الخليفة (الطائع لله)[2] على سرير الخلافة في صدر صحن السلام. وحوله من خدمه من الخواص نحو مائة بالمناطق والسيوف وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بردة النبي وبيده القضيب وهو متقلد بسيف ووقف الأشراف من الجانبين ودخل الأتراك والديلم ولم يكن مع أحدهم حديد (أي سلاح) فلما وصل عضد الدولة، أذن له الخليفة فدخل. فلما وقع عليه طرف الخليفة قبّل الأرض بين يديه، فارتاع أحد القواد لما شاهد ذلك وقال بالفارسية مخاطباً عضد الدولة: ما هذا أيها الملك؟ أهو الله عزّ وجل؟ فالتفت عضد الدولة إلى من يفهمه أن هذا هو

---

١. هو (فنّا خِسرو) الملقب بعضد الدولة البويهي أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية في العراق وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة وأول من لقب في الاسلام بـ(شاهنشاه) أي ملك الملوك. كان شديد الهيبة جبّاراً عسوفاً أديباً عالماً باللغة العربية ينظم الشعر. كثير العمران توفي ببغداد سنة ٣٧٢هـ وحمل في تابوت ودفن في النجف. (الاعلام/ الزركلي).

٢. الطائع للّه عبد الكريم بن الفضل المطيع للّه بن المقتدر العباسي من خلفاء الدولة العباسية أيام ضعفها وكانت في أيامه فتن بين عضد الدولة والأمير بختيار فقتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ومات عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ وخلفه ابنه بهاء الدولة فقبض على الطائع سنة ٣٨١هـ وخلعه وسجنه في داره إلى أن توفي (الاعلام/ الزركلي).

(خليفة الله في الأرض)[1].

و بهذا التبرير عُلِّلت أهم شعيرةٍ من شعائر الخضوع للخليفة وهي شعيرة (تقبيل الأرض) ويندرج ضمنها السجود له بالطبع. والظاهر من خلال النصّ السابق أنها كانت تلقى معارضة من قبل المسلمين. لأنها حسب العقيدة الأسلامية تمثل افتئاتاً على حقٍّ من حقوق الله، حيث ينحصر السجود لذاته إطلاقاً ولا يجوز السجود للمخلوقين. ولكن أصحاب الموقف المستسلم لجبروت الخليفة برروا السجود له بحجَّةِ كون الخليفة يمثل الله في الأرض فكما إن واجب المخلوقين السجود لله فإن خليفة الله جدير بالسجود له كذلك.

و كان موقف الرسول (ص) من طقوسية السجود له موقفاً رافضاً رأيناه في (حديث الشجرة) الذي أتينا عليه في فصل سابق حيث منع الأعرابيَّ أن يسجد له وقال: لا يسجد أحدٌ لأَحدٍ إلا لله.

و قد سار الخلفاء الأوائل على هذه السنّة فمنعوا كل شكلٍ من اشكال السجود لهم وحتى أنهم منعوا غير المسلمين من الذين اعتادوا السجود لملوكهم أن يماثلوا بالسجود أمامهم.

و كان الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز) يأمر حَرَسهُ إذا دخَلَ رجلٌ من أهل الذمّة أن يمنعه من السجود في حضرته. فإذا أغفَلَ الحرسيُّ عن ذلك كان عمر ينحّيهِ عن وظيفة الحرس ويلحقه بأهله. وكان هذا الخليفة الزاهد يقول: إن السجدة لله عزّ وجل[2].

و كان الأئمة من آل البيت يمنعون من والاهم من السجود أمامهم فجاء أن (ابا حمزة الثمالي) عندما أراد أن يكبَّ على قدمي الإمام (عليّ بن الحسين) رفع الإمام رأس ابي حمزة بيديه وقال: إنما يكون السجود لله[3].

---

١. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ المصدر السابق/ ١/ ٣٦٤.

٢. تاريخ دمشق/ ابن عساكر/ ١٩/ ١٣٧.

٣. جواهر الكلام/ الشيخ الجواهري/ ٢/ ١٠١.

و نجد هذا الالتزام سارياً في الأطوار الأولى للدولة الإسلامية عندما كانت قريبة العهد من منابع التأسيس غير أنه لما امتدت أطرافها شرقاً وغرباً وتوسَّعت رقعتها على حساب احتلال الممالك الأُخرى فإن الدولة الإسلامية قد دخلت طور العظمة والغرور فصار رأس الدولة خليفة الله في الأرض وليس خليفة رسول الله. واصبحت املاك الدولة واراضيها ليست ملكاً لله أو ملكاً للمسلمين وإنما ملك للخليفة يتصرّف به كما يشاء. وقد قيل إن (هارون الرشيد) نظر إلى سحابة في السماء فخاطبها قائلاً: إذهبي أينما شئتِ فما تمطرين إلا في أرضي. وهذه النظرة دخيلة على الأسلام جاءت استردافاً من طبائع حكم الأباطرة والأكاسرة.

و نتيجةً لهذا الغرور اصبحت العلاقة بين الخليفة والرعية علاقة بين سيّد وعبيد. ولتكريس هذا المدرَك في نفوس الناس أوجب الخلفاء على تبعيتهم الولاء لهم عن طريق السجود لهم وتقبيل الأرض بين أيديهم.

آيينُ تقبيل الأرض

و قد اقتضت رسوم الخلافة العباسية أن يوضع لتقبيل الأرض (آيين) خاص. فكان الخليفة عندما يزمع تعيين عامل لإدارة شأن من شؤون المملكة كالوزارة أو الولاية أو الجيش أو غير ذلك، كان يوقَفُ العاملُ أمامه ويقول الخليفة له:

(قلَّدتكَ النيابةَ عني وفوضتُ إليك ما وراء بابي)

فكان المشمول بالتعيين يخدمُ ويَقبِّل. والخدمة تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ إلى حدّ الركوع. والتقبيل: أن يسجدَ ويقبّل الأرض أمام الخليفة[1].

و كانت غاية الخليفة من هذه العملية توطين الموظف على التصاغر

---

١. تحفةُ الوزراء/ الثعالبي/ ٧٥.

أمامه وتدجينه على الخضوع له بإعتبار أنه ربُّ نعمته ووليُّ أمره. وقد كان البعض من هؤلاء يبالغ في إظهار الذلّة فيقبّل الأرض عدّة مرات. فحدثَ في سنة (٣٣٧هـ) أن قدم الملكُ شرفُ الدولة إلى بغداد (وهو ابن عضد الدولة) فخرج الخليفة لتلقّيه في (طيّارته)[1]. فلما واجهه شرف الدولة قبّل الأرض بين يديه عدة مرات[2].

و كان أكثر الوزراء إظهاراً للمذلّة والاستخذاء أمام الخليفة عضد الدولة فإنه في حفل التتويج الذي ذكرناه تقدم أمام الطائع وقبّل الأرض تسع مرات. ولما استدناه الطائع صعد وقبّل الأرض دفعتين. فقال له الطائع: أُدنُ مني، أُدنُ مني. فدنا وأكبَّ على رجله فقبّلها. وثَنى الطائع يمينه عليه، وكان بين يديه سرير ومما يلي الجانب الأيسر كرسيّ. فقال له: إجلس، مرتين فلم يفعل. فقال له: أقسمتُ لتجلِسّ. فقبّل الكرسي وجلس[3].

و كان الحفل يضمُّ ناساً من مختلف الطبقات وليس من البعيد أن يتأثر أولئك بالمشهد وربما كان بعضهم يستحسن تواضع الملك ويثَمّنُ تذلُّله لخليفة الله في الأرض. وربما تمنى بعضهم أن يفعلوا مثله ولكنهم كانوا يعلمون أن الوصول إلى ذلك أمرٌ مستحيل لإن الرسوم قضت ألاّ ينال ذلك الشرف إلاّ الوزراء ومن بمرتبتهم فأما الجند ومن دونهم وعوام الناس ومن لا رُتبة لهم فيستنكر منهم تقبيل الأرض لإن مرتبتهم تقصر عن ذلك.

المَعفوّون من رسم تقبيل الأرض

و إذا كان في طبقة العامّة من حُرموا من شرف تقبيل الأرض أمام الخليفة احتقاراً لشأنهم واستصغاراً لطبقتهم فإنَّ في طبقة الخاصة نجد من أُعفوا منها صوناً لكرامتهم وحفظاً لماء وجوههم أن يراق على الأرض.

١. الطيّارة: نوع من السفن النهرية سريعة الحركة.

٢. البداية والنهاية/ ابن كثير/ ١٢/ ١٩.

٣. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ المصدر السابق/١/ ٢٦٤.

وتتمثل هذه الطبقة بعصبةِ الخليفة من اهله من بني هاشم وولاة العهود من أولاد الخلفاء ويضاف إليهم القضاة والفقهاء والزّهاد والفقراء المتنسكون، فإن هؤلاء ما كانوا يقبّلون أرضاً ولا يداً ويقتصرون على السلام وحده[1].

ثم أضيف إلى هذا الرسم (بروتوكول) خاص بالوفود الأجانب إذا قدموا لمقابلة الخليفة فإنهم غير مشمولين برسم تقبيل الأرض. وقد ذكر أنه لما قدم على (المقتدر) رسل ملك الروم اعفاهم من تقبيل البساط لئلا يطالب المسلمون بمثل هذا أمام الامبراطور الروماني في بيزنطة[2]. على اعتبار أن المسلم لا يجوز له السجود لكافر.

تقبيل الأرض بالوكالة

و قد امتدَّ تسَلسُلُ الاستذلال الوظيفي من الكبار نزولاً إلى عناصر الدولة الأوطأ رتبةً فأخذ اولئك الكبار يستذلون من جانبهم الاقلَّ منهم درجة والاصغر في الوظيفة ففرضوا على عمالهم ومستخدميهم الذين يعينون من قبلهم أن يقوموا برسم تقبيل الأرض لهم كذلك.

و إذا حدث أن كان الموظف المعيّن في بلاد بعيدة يتعذّر حضوره أمام الوزير أو الأمير أو الملك يُبعثُ إليه رسولٌ يأخذ منه ذلك الرسم وكالةً. وقد جاء في (صبح الأعشى) أن رسول الأمير (تيمور) لما وصل إلى الرحبة المحروسة (دمشق) قال للنائب فيها: بُسِ الأرض للأمير تيمور واقرأ الخطبة باسمه[3].

و كان (الآيين) عند قراءة الخطبة أن يقوم المشمول بالتعيين على قدميه وينتبه بيقظة إلى الخطبة فكلما جاء فيها ذكر الخليفة أو الوزير عليه أن

---

١. رسوم الدولة العباسية ببغداد في العصر العباسي/ ميخائيل عواد/ ١٣.

٢. الحضارة الاسلامية/ المصدر السابق/ ١/ ٢٦٣.

٣. صبح الأعشى/ القلقشندي/ ٧/ ٣٤٠/ منشورات دار الفكر. دمشق.

يسجدَ ويقبّل الأرض.

تقبيل الأرض في مصر الفاطمية

و كـان إجـلال الخلـيفـة فـي مـصر الفـاطمـيـة أعظم مما تـقدّم فقد شمل السجود الجميع ولم يستثنَ منه احدٌ حتى القضاة. ففي سنة (٣٦٦هـ = ٩٧٦م) قُرِئَ سجِلٌ تعيين احد القضاة في الجامع الأزهر والقاضي واقف على قدميه فكلما مرّ ذكر (المعزّ لدين الله) أو أحد من أهله أومأ بالسجود. (أي طأطأ رأسه وحتى جسمه).

و لما أُسند القضاء في عام (٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) إلى مالك بن سعيد الفارقي، قُرِئ سجلّه بالقصر وهو قائم على رجليه وكان كلما مرّ ذكر الخليفة (الحاكم بأمر الله) في السجلّ قبّل الأرض.

و قد اعتبر هذا خروجاً على القاعدة المنصوص عليها في رسوم دار الخلافة العباسية ببغداد، فإن القضاة هناك كانوا غير مشمولين بالرسم فلا يقبلون يداً ولا أرضاً. وكذلك الوفود الأجانب. غير أن الوفود الأجانب في مصر خضعوا لهذا الرسم ايضاً. فقد كان إذا قدم رسولٌ من ملوك الأفرنج يُتَنَزَّل عند (باب الفتوح) ويقوم بتقبيل الأرض وهو ماشٍ حتى يصل إلى القصر.

ثم أمر الحاكم بأمر الله الناسَ في الحرمين في احدى السنين أن يقوموا عند ذكر اسمه على ارجلهم. ثم كان إذا ذكر اسمه في الاسواق ومواضع

---

١. اسماء ومسميات من تاريخ مصر القاهرة/ محمد كمال السيد/ ٣٢٨.

٢. الوقوف على الأرجل عند ذكر اسم المقدس تحيّة مارستها الشعوب القديمة لتبجيل آلهتها وملوكها. وأذكر في اربعينيات القرن الماضي أن الناس عندنا إذا عزف (السلام الملكي) في السينمات أو المحلات العامة يقفون على أرجلهم وقد صادف أن كنتُ مع زميل لي في احدى دور السينما وعزف السلام فلم يقف صاحبي استنكاراً =

الاجتماع بمصر قام الناس وارتموا على الأرض سُجَّداً[1].

و يبدو أن الخليفة الفاطمي المذكور تنبّهَ في نهاية حكمه بعد أن أعلنَ التنسُّك والزهد أن هذه الخَلَّةَ تزري بالكرامة وتنتقص من هيبة الناس فقام بمنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بَوسِ اليد والارتماء والسجود له ومنع مخاطبته بـ(مولانا).

و لكن هذه الرسوم عادت في زمن خَلَفهِ إلى ما كانت عليه فعندما احتضر الحاكم وَصَّى ابا محمد الحسنَ بن عمار احد شيوخ (كتامةَ) ثم جَعَل له الوساطة. فكان الناس يذهبون إلى قصره فمنهم من يقبّل الأرض ولكنه أمَرَ ألا يقبّل يده سوى أناس من الأعيان. وشرَّفَ بعض الناس بتقبيل ركابه وكان أجلُّهم من يقبل ركبته[2].

و لم ينعدم المشهدُ المذلُّ من اناسٍ رفضوا ذلك الرسم بشجاعةٍ دون خشية من عقاب السلطان منهم (الملا صدر الدين ابن الوكيل) حسبما يذكر جلال الدين القزويني قال: كنت عند الملك الناصر (بغزّة) فدخل (بكتُمر) الحاجب فقال: صدرُ الدين ابن الوكيل بالباب. فقال الناصرُ: يدخل. فلما دخل قال له (بكتُمر): بُسِ الأرض. فامتنع وقال: مثلي لا يبوس الأرض إلا لله[3].

= فشاهدتُ من دفعه إلى الوقوف بعنف فوقف.. ويقف الشيعة الأمامية على أرجلهم عندما يرد ذكر (الإمام المهدي) بخاصةٍ ولا يفعلون ذلك مع غيره من الأئمة لاعتقادهم بوجوده حيّاً وإذا تعذر الوقوف عليهم أن يضعوا أياديهم اليمنى على رؤوسهم كعلامة على السلام عليه لإعتقادهم أنه حيٌّ. ويفعل المصريون نفس العمل إذا ورد ذكر (الخضر) فيقولون (عليكم السلام) اعتقاداً بإنه يمرُّ عليهم عند ذكر اسمه فيسلم عليهم فيردون التحية (قاموس العادات/ احمد امين/ ١٩٣).

١. الحضارة الاسلامية/ المصدر السابق/ ١/ ٢٦٥.

٢. م.ن./ ١/ ٢٦٥.

٣. الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة/ ابن حجر العسقلاني/ ٢/ ٥٧.

خشونةُ شوارب المُقَبّلين تؤذي يد الخليفة

و كان تقبيل يد الخليفة بعيد المنال على سائر الناس فلا يحظى به غير الوزير أو الأمير أو ذي المنصب الخطير وحتى هؤلاء لم يكن يتيَسَّرُ لهم أن تباشرَ افواههم بشرةَ يده، وإنما كان الخليفة يقدمها لهم وهي مغطاةً بِكمِّهِ فيطبعون القبلةَ على الكُمِّ وكان ذلك من رسوم تقبيل يد الخليفة. ويبدو أن هذا المرسوم شُرِّعَ تجنباً لإزعاج الخليفة من ترادف الأفواه على يده وحمايةً لها من وضَرِ الشفاه ومن خشونة شوارب المقبلين ولحاهم. فكان بعض الأمراء يتلافى ازعاج الخليفة بها ويعمد إلى تقبيل ما دون يده. وقد اتخذ الأمير (بجكم) التركي طريقةً لطيفةً تفادى بها تقبيل اليد. فإنه لما دعاه الخليفة الراضي إليه. تقدّم نحوه وقبَّل فخذه[1]. وكان ذلك ابتكاراً لم يسبقه إليه احد.

و لاشكَّ أن خشونة الشوارب تؤذي الأيادي المترفة الناعمة. وقد تأذّت يد (عبد الله بن ظاهر) أحد اكابر الوزراء زمن المأمون عندما قبَّلها (أبو العُمَيثل). فإنه لما دخل عليه قدَّم له يده فقبّلها فانزعج الوزير من ذلك وقال: ما عَقَقتني به اكثر مما بَرَرتني. فتعجب أبو العميثلُ وقال: بماذا؟ قال: بخشونةِ شاربك. فأجابه أبو العميثلُ: (إن شوكَ القنفذ لا يَضرُّ بُرثُنَ الأسد). فَطَربَ عبد الله للجواب وقال: هذا والله أحبّ إليّ من مَدّحِ مائة قافية. وأمَرَ له بعشرة آلاف درهم[2].

و في هذه المناسبة أحب أن أذكر أن تلميذي السيد اسامة بن جعفر قد وقف على حالة تقبيلِ ليدِ أحد المراجع الشيعية في احدى المناسبات فرأى إن يد المرجع قد أُسندت على مِخده وأمسك بها أحد أعوانه فكان الوافدون – وأعدادهم كبيرة – يتقدمون فينحنون على يده ويقبلونها. ثم ذُكر له أن

١. الحضارة الاسلامية/ المصدر السابق/ ١/ ٢٦٣.

٢. الديارات/ الشابشتي/ ١٤٠/ تحقيق كوركيس عواد. ط. الثانية.

يدَ المرجع قد تقرحت من كثرة ما تلامست مع لحى المقبيلن وشواربهم الأمر الذي دعاه لإن يقلب ظاهرها باطنها فكان التقبيل يجري على باطن يده.

تقبيل حافر حمار الخليفة

و لقد غالى كبار الموظفين في إبداء أخَسِّ سمات الانخذال والتصاغر أمام الخليفة فكان البعضُ منهم يتقصّدُ تقبيل أرذل الأشياء المتعلقة به كنعاله أو أوطأ اجزاء جسمه وهي رجله وقد رأينا ذلك في تتويج عضد الدولة فإنه لما قال له الطائع: أُدنُ مني. دنا واكبٌّ على رجله فقبلها أمام الحضور من الخاصة والعامة.

و قد نال (حمار الخليفة)من التبجيل والتعظيم مالم تنله مراكبه الأُخرى للاسباب التي سنذكرها فيما يأتي. فكان الناس عندما يرون الخليفة راكباً اياه يرتمون تحته ويقبلون حافره. وقد فعل ذلك عبد الله صاحب شرطة الخليفة (الهادي) فإنه عندما شاهد أمير المؤمنين وهو راكب على حمار قام إليه وقبّل يده ورجله وحافر حماره[١].

تقبيل حوافر الحمير المقدسة

الجذر والامتداد

و قد يرى البعضُ منا في تقبيل صاحب شرطة الهادي حافر حمار الخليفة تذللاً ليس أرخص منه[٢]. إلا أن المبدأ الذي قام عليه فعله يرمي إلى

---

١. تاريخ الطبري/ ٨/ ٢١٦.

٢. يطلق على مثل هذا الشخص في لغة العامة الانكليز اسم (Ass Kisser) (مقبّل الحمار) وهو مصطلح بالغ الإهانة يوصف به الشخص الذي يتملق أو يداهن الاعلى منه مرتبة وينفذ أوامره للحصول على عطفه ورضاه. (انظر/ .Encarta dictionary (Ass Kisser.

عكس ذلك. حيث إن الرجل – بلا شك – كان يشعر في دخيلة نفسه بالزهو والفخر لإن الفرصة واتته للحصول على نفحةٍ روحية من الخليفة المقدس عن طريق حافر حماره الذي اصبح مقدساً كذلك بالتماسّ مع الخليفة. وهذا معتقدٌ بعيدُ الجذور ترسخ في عقول الناسِ منذ القدم على أساس الإيمان بوجود طاقة حيويه يمتلكها المقدس وإن هذه الطاقة يمكنُ أن تنتقل إلى الآخرين عن طريقِ مسّه أو مس الأشياء التي لامسته فيكتسب المتماسُ معها تلك الطاقة.

و قد أطلق (تايلر) عالم الانثروبولوجيا على هذا المعتقد اسم (المبدأ الأرواحي Animism) وهو حسب رأيه يتضمن جانب العقيدة وجانب العبادة[1] ويظهر أمامنا هذا المعتقد بشكل واضح في تقديس المسيحيين الأوائل للحمار على اعتبار إنه نال القداسة بامتطاء السيد المسيح إياه وهو في طريقه لدخول أورشليم القدس. وامتطه كذلك أمهُ (مريم) عند فرارها إلى مصر هرباً من بطش (هيرودس) ولهذا فضل كهنة المسيحيين الأوائل وأساقفتهم ركوبه على غيره من المركوبات في سفرهم وتنقلهم من مكانٍ إلى آخر وقد أدت هذه الروايات إلى شمول جنس الحمير عموماً بالقداسة.

و يحدثنا (ديورانت) عن طقوسٍ تعبديةٍ للحمار كان يقومُ بها المسيحيون الأوربيون في القرون الوسطى فيقول: إن الفرنسيين في مدينة (بوفيه) و (سان) وغيرهما يحتفلون في اليوم الرابع عشر من يناير بعيد الحمار (Fete Al'ane) فتركبُ فتاةٌ جميلة حمارا، ويُخيّلُ إلينا – والقول لديورانت – إنها تمثل بهذه الطريقة مريم أُمُّ المسيح أثناء فرارها إلى مصر. ثم يقاد الحمار إلى كنيسة فينحني ويثني ركبته اليمنى احتراماً وتعبّدا، ويقف بجانب المذبح ويستمع إلى قداس وترانيم يُتغنى فيها بمديحه. فإذا

---

١. طبيعة المجتمع البشري/ د. قيس النوري/ ١/ ٢٠٤.

انتهت الصلاة نهق القسُّ والمصلون ثلاث مرات تكريماً لهذا الحيوان الذي انقذ أمَّ المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم[1].

و يعتبر الحمار رمز السلام عند المسيحيين، حيث دخل به المسيح أورشليم مسالماً ولم يدخلها على ظهر جواد لأن الجواد من معدات الحرب يثير الرهبة والرعب. وقد بقي من أثر ركوب المسيح عليه خطان متقاطعان من الشعر الاسود على شكل صليب في مقدمة ظهره وتراها على كل حمار في العالم ويمتلك هذا الشعر قدرات شفائية خاصة. وحتى ركوبه ينفع في شفاء كثير من الأمراض كوجع الأسنان والسعال الديكي[2].

كما يعتقدُ المسيحيون أنه بقي من مخلّفات حمار المسيح حافره وهو موجود في احدى كنائس مصر. وتسمى هذه الكنيسة (كنيسة الحافر) في محرابها حلقة ذهب وفيها حافر حمار مرصّعٌ بالدر والياقوت ومن حوله الذهب والفضة، يعظّمه الناس ويقدّسونه بزعمهم أنه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام. وكان الكثير منهم يقصدون زيارته ويطوفون حوله[3].

و كما قدّس المسيحيون حافر حمار نبيهم عيسى، قدّس اليهود كذلك حافر حمار نبيهم العزير (عزرا) فكانوا يقبلونه حسب قول الشاعر:

آلُ العزير يعظمون حماره ويرون فوزاً لثمَهم للحافر[4]

و يبدو أن هذا الحافر كان محفوظاً عندهم في احدى كنسهم بمصر ففقد فأراد الخليفة الفاطمي المؤيد بالله هشام أن يبحث عنه لينال المثوبة والأجر فرصد جائزةً لمن يعثر عليه فأتاه رجلٌ بحافر حمارٍ قديم وزعم أنه

---

١. كتابه/ قصة الحضارة/ ١٦/ ٢٢١.

٢. A book of Super Stations. Brown. P.92.

٣. نور العين في مشهد الحسين/ الاسفرايني/ ٧٢.

٤. مناقب آل أبي طالب/ ابن شهر آشوب/ ٣/ ٢٦٨.

حافر حمار العزيرفأعطاه مالاً عظيماً[1].ولسنا ندري بعد هذا ما حلَّ بذلك الحافر المقدس وهو أمرٌ يؤسف له حيث فقدنا دليلاً حَيّاً يشير إلى غباء الناس وحمقهم في ذلك الزمان.

و مع هذا فإننا نجد من الناس من قَدَّس حمار العزير فتسمى به، نذكر منهم سليمان بن أبي شيخ صاحب المؤلفات في (مقاتل الطالبيين) لُقِّبَ بحمار العزير ومنهم احمد بن عبد الله بن عمار عرف بحمار العزير كذلك.

و يعزو الباحثون اهتمام الناس بهذا الحيوان أو بآثاره إلى بقايا عبادية كان الحمار يُعبد فيها كإلاه للخصب وقد جاء في (سفر التكوين) اشارة إلى ذلك في ذكر (الحمار مع الجفنة) كدليل على الخصب والكرامة)[2].

و يمكن حمل ذلك التقديس على محمل العلاقة (الطوطمية) إذا أخذنا بالتقدير رأي العالم الانثروبولوجي (روبرتسون سميث) الذي اثبت وجود هذه الديانة عند العرب القدماء بعد أن درس اسماء القبائل والبطون فوجد أن بعض القبائل تسمت باسماء حيوانات وكذلك الاشخاص نذكر منهم: حمار بن الأَصيَد وهو احد المحدِّثين وعياض بن حمار بن ابي حمار بن ناجية بن عقال التميمي. ومنهم حمار بن عديّ الذي اعترض الحُجاج فقتله رجل من أهل سمرقند. وحمار بن طويلح الذي كفر فأحرقته الصاعقة فقيل (أكفر من حمار)[3] وغير ذلك من الاسماء.

و قد لُقِّبَ أشهر متنبِىءٍ في جزيرة العرب بلقب (ذي الحمار)[4]. والمتنبىءُ هذا هو (عَبْهَلَة) نبيُّ اليمن سنة (١٠هـ) لقب بذلك بسبب اختصاصه بحمار

---

١. سير أعلام النبلاء/ الذهبي/ ١٧/ ١٣٣.

٢. قاموس الكتاب المقدس/ مادة حمار.

٣. معجم البلدان/ ياقوت/ ٣/ ١٨٧.

٤. دائرة المعارف الاسلامية/ ٢/ ١٩٨.

أسود مُدَرَّب كان يقول له: أسجد لربك فيسجد ويقول له: ابرك فيبرك[1]. ومن الواضح أن هذه الحركات التي كان الحمار يؤديها كانت نوعاً من الصلاة وقد تكون لها علاقة بصلاة حمار الكنيسة في مدينتي (بوفيه) و (سان) في فرنسا.

و على أساس تلك المدركات التقديسية طارت شهرة الحمار في جميع البلدان والاقطار فأخذ بعض الناس حافره وشعر ظهره الاسود الصليبي الشكل للأستشفاء وعظم جمجمته في طقوس الخصب والاستمطار.

---

١. تاج العروس/ مادة حمر.

الباب الثالث عشر

ختام البحث

- العودة إلى القبلة الغريبة
- الحصان معبوداً
- الحصان شفيعاً

العودة إلى القبلة الغريبة

يبدو لنا أن قارئنا بعد هذه الرحلة الطويلة في عالم التقبيل قد نسيَ الغرض الذي جئنا من أجله ألا وهو الكشف عن سرّ القبلة الغريبة التي أنقذت آلاف الكربلائيين من القتل.

و قد حَلَّ الآن موعدُ الكشف عن السرّ ولكننا قبل أن نأخذ بذلك ونزيح عنه غبار السنين المتكاثف عليه رأينا أن نسترجع مع قارئنا صورة مشهدها الرهيب، ونجعله وجهاً لوجه أمام القائد التركي الفريق (مصطفى باشا) وهو راكب على حصانه قبالة باب صحن الحسين المؤصد، وكان قد هيّأ مدفعاً لكسره والدخول إلى المرقد لقتل من فيه من اللاجئين مثلما فعل في مرقد العباس. وخلال تلك اللحظة الحرجة فتح الباب وخرج منه نائب كليدار الحضرة وعمامته في رقبته وهو يبكي ويلطم ويقول بالتركية مخاطباً القائد: أفندم إننا لم نخلع الطاعة ولم نفارق الجماعة فلا تأخذنا بذنوب المفسدين وترحّم علينا بالأمان.

ثم استدار نحو مؤخرة حصان القائد وطبع على (إليته) قبلة. فلما رأى القائد فعلته رفع يده واشار على الجنود بالكف عن اطلاق النار فتوقفوا ثم أعلن الأمان، فنجا جميع من كان داخل الصحن من الموت بفضل تلك القبلة الغريبة.

و هكذا انغلق ذلك المشهد التاريخي على هذه النهاية.

إلا أن هذه النهاية لا تغلق فضول الباحث المدقق بل تفتح فيه تشوقاً إلى معرفة سرِ تلك القبلة كيف أحدث ذلك الإنقلاب في سلوك القائد الموتور؟

و لكشف السر نتقدمُ بالقول إن الأمر لا يخلو من وجود عقيدةٍ باطنيةٍ كانت هاجعةً في لا وعي القائد فقدحتها القبلة فظهرت وتغلبت على تصرفه الأهوج فألانته وهذبته. وهذه العقيدة تشربها وراثةً من ديانة

أسلافه الاتراك وهم أقوام بُداة كانت ديانتهم تقوم على تقديس الحيوان وعبادته فيما يعرفُ بالديانة الطوطمية حيث يُعتبر الحيوان المعبود أباً للقبيلة. وإن أفراد القبيلة نسلوا منه وقد أثبتت دراسات الباحثين وجود هذه الديانة في عقائدهم قبل الأسلام وبعده. فذكروا مثلاً إن (التوكتو) وهم قبيلة تركية يعتقدون بأنهم جاءوا من تزاوج ذئبةٍ برجل. ويعتقد المغول إنهم إنحدروا من الذئب ولا تزال آثار هذه العبادة تتمثل في التراث الشعبي الأناضولي. وهناك عبادات لحيوانات اخرى اصفحنا عن ذكرها تجنباً للأطالة ونجد تفاصيلها في دائرة المعارف الأسلامية[1].

الحصان معبوداً

و لكن الحصان كان أهم الحيوانات التي قدسها الاتراك وعبدوها وذلك لكونه اكثر لصوقاً بهم من غيره من سائر الحيوانات التي ذكرناها. فقد اعتمدوا عليه في حياتهم البدوية القائمة على الغزو فوق ظهور الجياد. فمهروا بالصيد وبالحرب وتميزوا بفنونها، وعلى هذا الاساس استخدمهم الخليفة العباسي (المعتصم) في دعم ملكه.

يقول الجاحظ في (رسالة مناقب الترك) التي كتبها لهذا الخليفة: (ولو حصلتَ عُمرَ التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على ظهر الارض)[2].

ثم يقول: (والتركيُّ يركب فحلاً أو (رمكةً) (فرساً) ويخرج غازياً أو مسافراً أو متباعداً في طلب صيد أو سببٍ من الاسباب فتتبعه الرمكة وافلاذها، إن أعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش. وإن اخفق فيها أو احتاج إلى طعام فَصَدَ دابَّةً من دوابّه. وإن عطش حلب رمكةً من رمكاته).

---

١. ج١٦/ ٢٨٤ ص ٢٨٤ طبعة دار الشعب.

٢. رسائل الجاحظ/ ١/ ٤٨/ تحقيق عبد السلام هارون.

ثم قال: (والتركيُّ هو الراعي وهو السائس وهو الرائضُ وهو النخّاس وهو البيطار، والتركيُّ الواحدُ أُمةٌ واحدة)[1].

و هذه حالٌ فريدةٌ نستشفُ من خلالها عظم العلاقة الحميمة بين التركي وبين حصانه أو فرسه. ولهذا احتل الجواد المرتبة الاولى في ديانة الاتراك القديمة.

و قد أدى رسوخ هذه الديانة عندهم لإن تدخل في آدابهم القصصية كثير من الحكايات تدور حول الخيول الخارقة. فعندهم جنسٌ من الجياد يقال أنه انحدر من صلب جوادٍ كان يقطن في اعماق المياه. أو جنس آخر من جيادٍ أصيلةٍ مجنَّحة أو جنس من جياد استؤنس جدّه يطلق عليه اسم (الحصان الناري).

و في ملاحمهم وحكاياتهم البطولية يصوِّر الحصان تصوير الرفيق المخلص. وقد وُهب النطق ويستطيع أن يتحادث مع سيده ليبذل له المشورة ويحذره من الأخطار[2].

الحصان شفيعاً

و تمضي التصورات عن الحصان عند الاتراك إلى بعد أوسع عندما يرفعوهُ في كثير من الحالات إلى مرتبة (الولي) سواءً في حياته أو موته. وعندما يموت يقام له مرقدٌ يزار كما تزار مراقد الاولياء وينذر له وتطلب منه الحاجات.

و اشهر حصانٍ وليٍّ في هذه المراقد جواد السلطان (عثمان الثاني) في (أسكدار) الذي جُعلَ مزاراً يحجُ إليه الناس وكان معروفاً باسم (آت أولياسي) ومعناه (ولي الجياد). وكانت الجياد المريضة يؤتى بها إليه

---

١. م. ن./ ٤٩.

٢. دائرة المعارف الاسلامية/ المصدر السابق/ ٢٨٤.

فيشفيها[1] وليس من البعيد أن يأتي الناس المرضى إليه طلباً للشفاء كذلك.

و نتيجة لتلك المنزلة العظيمة للحصان اتخذ من ذيله شعاراً سياسياً للمراتب الادارية في الدولة العثمانية فكان يؤخذ من شعر ذنبه اضمامة تعقد على شكل كرات وتصبغ بالألوان وتوضع على رأس عمود وتسمى (التوغ) (الطوغ).

و اعتادت الحكومة العثمانية أن تمنح هذا التوغ لأصحاب المناصب العالية في الدولة ليكون علامة لهم.

و كان يجري التمييز بين المناصب بعدد (التوغات) الممنوحة لصاحب المنصب. فكان يعطى أمير اللواء والبك والسنجق توغاً واحداً. والمير توغين والوزراء ثلاثة والصدر الاعظم خمسة. وكانت تحمل مع ركب السلطان اثناء الحروب سبعه توغات.

و قد ذكر أن المملوك (سليمان أغا) تحول إلى مرتبة (باشا) بعد أن تزوج من (عادلة خاتون) ابنة احمد باشا والي بغداد سنة (١٧٣٢م) وهو أول باشا من باشوات المماليك فمنح ثلاث توغات أي باشا من الدرجة الأولى[2].

و هكذا يتحصَّلُ لدينا من خلال هذا العرض أن شأن الحصان عظيم عند التركي ونستطيع أن نقول إنه والتركي كيان واحد بل أنه المركز الحيوي الذي تتجمع فيه أوتار التركي العاطفية فإذا أريد تحريكها للتعطف والترحم حُرِّكت عن طريق (الدخالة) على حصانه والتوسل به فيستجيب ويتعطف ويترحم.

و يبدو لنا أن نائب كليدار الحضرة كان واقفاً على بعض تلك الطباع بحكم علاقاته المتواصلة مع الحاكمين الاتراك فقدّر أن يكون القائد مصطفى باشا مرتهناً بها ورأى أن يستغلّه عن طريقها لعلّها في تلك

١. دائرة المعارف الاسلامية/ المصدر السابق/ ١٦/ ٢٨٤.

٢. صور من تاريخ العراق في الفترة المظلمة/ جعفر خياط/ ١/ ١٤٦ والملحق.

الآونة الحرجة تنفع في انقاذ الناس ولم يكن بيده حيلة أخرى إلاّها فقام وارتمى على حصان القائد وقبّل كفله فحدثت المعجزة وانطفأ غضب القائد ولان ورفع يده بالأمان فنجا أهالي كربلاء جميعاً من الموت.

و بهذا نصلُ إلى الغرض الذي ألّفنا من أجله هذا الكتاب فعسى أننا وفقنا فيه إلى تحقيق الغرض ولم نزغ عن الطريق في الوصول إلى الحقيقة ونلنا الصواب في سلامة الحجة وصحة المقالة. فإن لم نوفق إلى ذلك فما أوردنا فيه من إفادات ومعلومات نظنها ذات نفعٍ لكل قارئ يقرؤه وهذا حسبنا والله وليُّ التوفيق.

حسين علي الجبوري

كربلاء المقدسة

٢٠١٠

فهرست المصادر

مرتبة على حروف الهجاء

أ

أساس البلاغة	الزمخشري
أساطير الحبّ والجمال عند اليونان	دريني خشبه
أسد الغابة	ابن الأثير
الأسطورة والتوراة	ناجح المعموري
الاسلام والجنس	عبد الوهاب بوحديبة
أسماء ومسمّيات من تاريخ مصر والقاهرة	محمد كمال السيد
الأصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني
الأصنام	الكلبي
الأعلام	الزركلي
الأغاني	ابو الفرج الاصبهاني
القاب رسول الله وعترته	جماعة من المؤرخين
الأمالي	الشيخ الطوسي

ب

بحار الأنوار	المجلسي
البداية والنهاية	ابن كثير
بصائر الدرجات	محمد عبد الحسين الصفّار

ت

الكتاب	المؤلف
تاج العروس	الزبيدي
تاريخ الأدب العربي	بروكلمان
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
تاريخ دمشق	ابن عساكر
تاريخ التعذيب	براين إينز
تاريخ الطبري	الطبري
تاييس	أناتول فرانس
التحفة السَّنيّة (مخطوط)	الفيض الكاشاني
تحفة الوزراء	الثعالبي
تذكرة الفقهاء	العلامة الحلّي
تكملة المعاجم العربية	دوزي
التوحيد	الشيخ الصدوق

ج

الكتاب	المؤلف
جامع السعادات	الشيخ النراقي
الجنس والنفس	د. علي كمال
جواهر الكلام	الشيخ الجواهري

ح

الكتاب	المؤلف
الحب	عمر رضا كحالّة

الحب بين تراثين — ناجية مُرّاني

الحب والغرب — ديني دي رجمون

الحدائق الناضرة — المحقق البحراني

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري — آدم متز

الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية — صدر الدين الشيرازي

الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية — د. محمد غنيمي هلال

الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور — جورج كونتينو

د

دائرة المعارف — بطرس البستاني

دائرة المعارف الاسلامية — جماعة من المستشرقين

الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور — زينب العاملية

الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة — ابن حجر العسقلاني

دراسات في تاريخ الأدب العربي — كراتشكوفسكي

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي — د. علي الوردي

دعائم الاسلام — القاضي النعماني

الديارات — الشابشتي

ديوان الاساطير — ترجمة قاسم الشوّاف وتقديم أدونيس

ديوان الأعشى الكبير — تحقيق د. محمد حسين

ديوان أبي نواس

ديوان الحبّ العربي	د. داود سلّوم
ديوان الحماسة	أبو تمام
ديوان الصبابة	
ابن أبي حجلة	
ديوان عبد الله بن المعتز	
ديوان عنترة العبسي	
ديوان المتنبي	

ذ

ذخائر العُقبى	احمد بن عبد الله الطبري
ذم الهوى	ابن الجوزي

ر

ربيع الأبرار	محمد بن عمر الزمخشري
الرخصة في تقبيل اليد	محمد بن ابراهيم المغربي
رحلة ابن بطوطة	
رسائل ابن حزم الاندلسي	تحقيق د. احسان عباس
رسائل اخوان الصفا	
رسائل الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون
رسائل الشريف المرتضى	تحقيق السيد احمد الحسيني
الرسالة	الشافعي
رسوم الدولة العباسية ببغداد في	ميخائيل عواد

العصر العباسي	
روضة المحبين	ابن قيم الجوزية

ز

الزار ومسرح الطقوس	عادل العليمي
زبدة البيان	المحقق الاردبيلي
الزهرة	محمد بن داود الأنطاكي

س

سُبُل الهوى والرشاد	الصالح الشامي
السرائر	ابن ادريس الحلّي
سنن أبي داود	
سنن البيهقي	
سنن النّسائي	
سيد قريش	معروف الارناؤوط
سير اعلام النبلاء	الذهبي

ش

شذرات الذهب في اخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلي
شرح ابن عقيل	ابن عقيل الهمذاني
شرح ديوان امرئ القيس والمراقسة	حسن السندوني
شرح المعلقات التسع المشهورات	النحّاس
شرح المعلقات السبع	الزوزني

شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد
الشخصية المحمدية	معروف الرصافي
الشعر والشعراء	ابن قتيبة
شيعة الهند	هولستر

ص

الصابئة المندائيون	الليدي دراوور
صبح الأعشى	القلقشندي
صحيح مسلم	
صراط النجاة	الميرزا جواد التبريزي
صور من تاريخ العراق في الفترة المظلمة	جعفر خياط

ط

الطبقات الكبرى	عبد الوهاب الشعراني
طبيعة المجتمع البشري	د. قيس النوري
طقوس الجنس المقدس عند السومريين	كريمر. ترجمة نهاد خياطة
طوق الحمامة	ابن حزم الأندلسي

ع

عشتار ومأساة تموز	د. عبد الواحد علي
علم الاجتماع البدوي	د. صلاح مصطفى الفوال
علم الفقه	الشيخ علي خازم

علم الفولكلور	الكسندر كراب
العمدة في صناعة الشعر ونقده	ابن رشيق القيرواني
عوائد الأيام	المحقق النراقي
عون المعبود	العظيم آبادي
عيون الأخبار	ابن قتيبة
غ	
الغدير	عبد الحسين الأميني النجفي
الغصن الذهبي	فريزر
ف	
الفرج بعد الشدة	القاضي التنوخي
الفوائد الرجالية	محمد مهدي بحر العلوم
الفولكلور الفلسطيني	نمر سرحان
في الحب والحب العذري	د. صادق جلال العظم
في طريق الميثولوجيا عند العرب	محمود سليم الحوت
فيض القدير	المناوي
ق	
قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية	أحمد أمين
قاموس الكتاب المقدس	جورج بوست
قاموس الكتاب المقدس	نخبة من ذوي الاختصاص

القبل والمعانقة والمصافحة	ابن الأعرابي
القبلة	د. فوزية الدريع
القبلة في الأدب العربي	د. علي شلق
القرآن الكريم	
قِرى الضيف	مؤلف مجهول
قصص الأنبياء	عبد الوهاب النجار
قصة الحضارة	وول ديورانت
القصة المصرية في الأدب الفارسي	د. أمين عبد الحميد
القواعد والفوائد	الشهيد الأول

ك

الكافي	الكليني
الكامل في اللغة والأدب	المبرّد
الكتاب المقدس	العهد القديم والعهد الجديد
كتاب النوادر	القطب الراوندي
كشف الخفاء	العجلوني
كشف اللثام	الفاضل الهندي
الكشكول	بهاء الدين العاملي

ل

اللباس والزينة من السنّةِ النبوية المطهّرة	محمد عبد الكريم القاضي
لسان العرب	ابن منظور

الكتاب	المؤلف
لغز عشتار	فراس السوّاح
لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث	د. علي الوردي

م

الكتاب	المؤلف
المازوخية	ساشا ناخت. ترجمة مَي طرابيشي
المبسوط	الشيخ الطوسي
المجموع في شرح التهذيب	محيي الدين النووي
المحلّى	ابن حزم الأندلسي
مدخل إلى العقيدة المسيحية	الأب توماس اليسوعي
المدخل إلى النقد الأدبي	د. محمد غنيمي هلال
المدونة الكبرى	الأمام مالك
مدينة الحسين	محمد حسن الكليدار آل طعمه
المرأة . دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين	ثيلما عقراوي
مسائل علي بن جعفر	علي بن جعفر
مسالك الأفهام	الشهيد الثاني زين الدين بن علي
المستدرك	الحاكم النيسابوري
مستدرك سفينة البحار	علي النمازي

مسند احمد	احمد بن حنبل
مسند ابن راهويه	ابن راهويه
المسيح في مفهومٍ معاصر	عصام الدين حفني ناصف
مشكلة الحب	د. زكريا ابراهيم
مصارع العشاق	جعفر بن احمد السرّاج
معجم اسماء النباتات الواردة في تاج العروس	جمع وتحقيق مصطفى الدمياطي
معجم البلدان	ياقوت
المعجم القانوني	حارث سليمان الفاروقي
المعجم الكبير	الطبراني
معجم الفولكلور	د. عبد الحميد يونس
معجم المصطلحات والأعلام في العراق	د. حسن النجفي
المغني	ابن قدامة
مغني المحتاج	الشربيني
مفردات غريب القرآن	الراغب الاصبهاني
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام	د. جواد علي
مقاتل الطالبيين	الأصبهاني
مناقب آل أبي طالب	ابن شهر آشوب
المنتخب من الشعر الانكليزي	عبد الرحمن بشناق
موسوعة العتبات المقدسة (قسم كربلاء)	جعفر الخليلي
الموشى أو الظرف والظرفاء	الوشاء

ن

النِزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم	المقريزي
نشيد الأناشيد	آن ماري بلتيه
النفس	د. علي كمال
النهاية في غريب الحديث والأثر	ابن الأثير
نور البراهين	نعمة الله الجزائري
نور العين في مشهد الحسين	الإسفرايني
نيل الأوطار	الشوكاني

هـ

الهوى والشباب	بشارة الخوري (الأخطل الصغير)

و

الواضح المبين في ذكر من استشهد من العاشقين	الحافظ مغلطاي
وسائل الشيعة	الحر العاملي
وفيات الأعيان	ابن خلكان

ي

يهود كردستان	إريك براور

المصادر الأجنبية

1- A Book of Superstitions. R. L. Brown

2- A Dictionary of Literary Terms. Magdi Wahba

3- Encyclopedia Britannica.

4- Encarta Encyclopedia.

5- New Webster's Dictionary and Thesaurus.

6- Webster Encyclopedia.

فهرست

مشاهد القُبَل التي قدمتُها في مدخل الكتاب لاشكَّ أنها طَبعت في نفس القارئ أثرا، من حيثُ أنها جَسَّدت أمامَ رؤيته أحداثاً من التاريخ مغمورةً ومطويّة، وكانت القبلةُ فيها مدار الحدث، وما كان الحدثُ ليتّسق من دونها. فلو لم يقبّل الخائن يهوذا الاسخريوطي استاذه ومعلّمه السيد المسيح فلربما سار التاريخ مساراً آخر، وخَفيَ المسيح على طالبيه فنجا، ولكن القبلةَ كانت شيفرةَ الدلالة فشخّصته من بين حوارييه الأحد عشر وهم يتناولون العشاء الرباني، فألقي القبضُ عليه ثم عُلّق بعد ذلك على الصليب فصارت تلك القبلة أغدر قبلة في التاريخ. و شبيه بها (قبلة الارض) التي موّهَ فيها القائد الخائن توزون التركي على سيدّه الخليفة المتقي لله . فانها جعلتَ الخليفةَ يطمئن اليه ويسلّمُ له نفسه، ولكنه خدعه بتلك القبلة فأضحت من أشهر قبل الخداع المشهورة في حوادث التاريخ.




ISBN 978-9933-487-09-6
9 789933 487096
السعر ٥٠٠٠ دينار